الفصلُ الرّابعُ

مــؤلــفــاتــهُ

- مؤلفاتُـهُ في الفكـرِ الإسـلاميِّ والعقيـدةِ والتَّفسير .
- مؤلفاتُهُ في الفلسفةِ وعلمِ النَّفسِ .
- مؤلفاتُهُ في الاقتصادِ والسِّياسَةِ .
- رسائلُهُ في التَّربيةِ والإصلاحِ الاجتماعيِّ .

المبحثُ الأوّلُ

مؤلّفاتُهُ في الفكرِ الإسلاميِّ والعقيدةِ والتّفسيرِ

«البهيُّ» عالِمٌ جليلٌ ، وأستاذٌ مُتخصِّصٌ ، يَجْمَعُ بينَ الثّقافةِ الإسلاميّةِ الواسعةِ ، والثّقافةِ الغربيَّةِ الواعيةِ . لَهُ مكانتُهُ في الفكرِ والعلومِ الإسلاميّةِ والقُرآنيّةِ ، والتّربيَّةِ السِّياسيَّةِ ، والاقتصاديَّةِ ، والاجتماعيَّةِ ، والفلسفيَّةِ ، ولَهُ العديدُ مِنَ المؤلّفاتِ القيِّمةِ ، التي أثرتِ المكْتبةَ الإسلاميَّةَ .

كَتَبَ رحمَهُ اللهُ تعالى مِنَ الكُتُبِ ثلاثةً وعشرينَ كِتاباً ، وَألَّفَ مِنَ الرَّسائلِ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرينَ رِسالةً ، وَأَنْشأ في سِلْسِلةِ التّفسيرِ الموضوعيِّ أربعةً وعشرينَ سِفراً . مُضيفاً إلى ذلكَ خبرتَهِ وتجاربِهِ العلميّةِ ، في مُؤسَّساتِ العِلْمِ والبَحْثِ ، وأجْهزةِ الثّقافةِ والتّوجيهِ . تَشْهَدُ لَهُ بذلكَ رحلاتُهُ المُتعدِّدةُ ، [1] ومُشاركَتُهُ في كثيرٍ مِنَ المؤتَمَراتِ والنّدَواتِ العربيَّةِ ، والإسلاميّةِ والدّوليَّةِ . في الشرقِ والغربِ .

أمّا مُؤلّفاتُهُ في الفكر الإسلاميِّ فهيَ مُتعدِّدةٌ :

كانَ مِنْ أبرزِها : كتابُهُ : «**الفكرُ الإسلاميُّ الحديثُ وصلتُهُ بالاستعمارِ الغربيِّ**» : يَرْصُدُ هَذا السِّفْرُ النَّفِيسُ الفِكْرَ الإسْلامِيَّ الْحَدِيثَ ، في القَرنِ

---

(١) الرّحلات والمؤتمرات : رحلَ «البهيُّ» طالباً وأُستاذاً جامعيّاً ، ومُشاركاً في ندوات ومؤتمراتٍ علميّةٍ وإسلاميّةٍ كثيرةٍ ، إلى أقطارَ عديدةٍ ، منها على سبيل المثال : ألمانيا ، بريطانيا ، كندا ، الباكستان ، الجزائر ، . المغرب العربي «مراكش» ، قطر ، الكويت ، سوريا ، لبنان ، الإمارات العربيّة المتحدّة . انظر ، محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، ص٧ .

العشرينَ ؛ لِيَكْشِفَ الصِّلَةَ التي تربطُهُ مع الاستعمارِ الغربيِّ ، في شخصيَّاتِهِ واتِّجاهاتِهِ ، يَرْصُدُهُ تاريخياً وأحداثاً وقعَتْ ؛ لأنَّ الأحداثَ كما يَقُولُونَ : أقوى مِنَ التَّوجِيْهِ . ولمْ يكْتَفِ بهذا ، لكنَّهُ : كان أديباً ناقداً ، بوعيٍ وثِقَةٍ واقتدار .
والمُهِمَّةُ الأولى لهذا الكتابِ هيَ : (أنَّه [يتَناولُ] قِيمَ الإسلامِ ؛ ليكْشِفَ عَنْ صلاحيَةِ هذهِ القيمِ وحدَها ، [لِيُعارِضَ] المَشاكِلَ الماديَّةَ في المُجتمعاتِ المُعاصِرَةِ .

هِيَ تلك المشاكلُ التي واجَهَها ـ [الرَّسولُ مُحَمَّدٌ ﷺ] ـ على عهدِ الرِّسالةِ ، [حيثُ كانتْ] باسمِ الجاهليّةِ [الأُولى] . فجاهليَّةُ الأمسِ هيَ ماديَّةُ اليومَ .

وقدْ صودِرَ هذا الكتابُ ومُنِعَ في القاهِرةِ ، لمدَّةِ عَشْرِ سنواتٍ ، [لأنَّهُ يُحَذِّرُ] المُسلمينَ مِنْ خِداعِ الصَّليبيَّةِ الدَّوليَّةِ ، والإلحادِ العلميِّ للشُّيوعيَّةِ العالميَّةِ ، [وقد تُرجِمَ الكتابُ] إلى اللغةِ الأندونيسيّةِ ، والتُّرْكيَّةِ ، والإنجليزيَّةِ ، والأُرديَّةِ)[1].

عَزَى صاحبُ هذا الكتابِ ، في فكرِهِ الإسلاميِّ ، خُطَطَ الاستعمارِ الغربيِّ ، في بسْطِ نُفوذِهِ على الشرقِ الإسلاميِّ ، حيثُ ركَّزَ الغربيُّ المُستشرِقُ على مادةِ التّوجيهِ المحليّةِ ، فطَعَنَ في موائمتِها للعصرِ الحديثِ .

في الواقعِ أنَّهُ لم يكُنْ في توجيهِ الشرقِ الإسلاميِّ إلاّ الإسلامُ وتُراثُهُ ، فَعَمِدَ الاستعمارُ إلى مُحاولةِ إفسادِ حَمَلَةِ الإسلامِ لا سيما الشَّباب . وسلَّطَ الضَّوءَ على المناهجِ التَّعليميَّةِ ، بأنْ أخذَ يُروِّجُ للفكرِ الإلحاديِّ الماديِّ[2] الغربيِّ ،

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٥-٩.
(٢) المذهب المادي : يعتبر المادة جوهر العالم ، ويعتبرُ المظاهرَ النّفسيّةَ والفكريّةَ ناشئة عنها ، والأخلاق في نظرِهِ يجب أن تهدِفَ إلى المتعةِ الحسيّةِ في الآن الحاضر ، وشعار هذا المذهب : «البطن قبلَ الرّوح» فهو مذهبٌ يُسلِّمُ بوجودِ المادّة وحدها ، وبها يفسِّرُ الكون والسلوك والمعرفة . انظر ، إبراهيم مذكور : المعجم الوجيز ، ص٥٧٥ .

والفكرِ الوضعيِّ الاشتراكيِّ الماركسيِّ ، ثُمَّ يَعرِضُ فِكرَهُ بحُجَّةِ التَّجديدِ ، بناءً على شِعاراتٍ زائغةٍ ، مِثْلُ : الإسلامُ دينٌ لا دولةٌ ، الدِّينُ خُرافةٌ ، والدِّينُ مُخدِّرُ الشُّعوبِ . رغبةً مِنْهُ في الدِّعايةِ للاتجاهِ الإلحاديِّ الماديِّ (الذي يَستَنفِذُ نشاطَهُ . . . في الاستمتاعِ بِمُتَعِ الحياةِ المادِّيَّةِ ، ويستغرقُ فيها ، دونَ أنْ يعرفَ حدّاً لمُتعةٍ ، ويستوي عندئذٍ في انطلاقِهِ فيها مَعَ الحيَوانِ ، . . . هُمُ الماديّون [الذينَ] يصدُّونَ عنْ دينِ اللهِ بكُفرِهِم وعنادِهِم ، ويُحاولونَ طَمْسَهُ وتشويهَهُ ... إنَّهُمْ اشتراكيّونَ : بمعنى المُشاركَةِ المادِّيَّةِ في المِلكيَّةِ أو في الانتفاعِ بها ، وستكونُ طريقاً للتنازُعِ أو للتَّواكُلِ ؛ ... لأنَّها توجِّهُ أهدافَ الأفرادِ المُتشاركينَ نحوَ الغايةِ المادِّيَّةِ وحدَها ، . . . وهُنا تختفي معاني الأُخوَّةِ ، والتَّسامُحِ ، والتَّعاونِ ، . . . وتتواردُ بدلاً منها دوافعُ : النِّفاقِ ، والانتهازيّةِ ، والنَّفعيّةِ) [1].

فالمادِّيُّون إذاً أنانيُّونَ ؛ لأنَّهم يتَّجِهُونَ إلى مُخاصمةِ الرُّوحيَّةِ في الإنسانِ ، فهُم يَعزِفونَ عنْ سَماعِ ذِكْرِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، ويعمَدُونَ إلى اللَّغوِ في كتابِهِ ، ولا يُؤمنونَ بالحياةِ الأُخرويّةِ وراءَ هذهِ الحياةِ الدُّنيويّةِ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ٢، ٣).

وقالَ تعالى أيضا يصِفُ حالَهُم ، وكيف أنَّهُم يسيرُونَ وراءَ كُلِّ ناعقٍ وزاعِقٍ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).

وقالَ سُبحانَهُ يُبيِّنُ موقِفَ المادِّيِّينَ مِنَ القُرآنِ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦).

---

(١) محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص١٨ ، ١٩ .

الماديُّونَ وَصَفَهُمُ اللهُ تعالى بالكافرينَ ، وهم بعيدُونَ كلَّ البُعدِ عنِ الميلِ الجماعيِّ أوِ الرُّوحِ الجماعيّةِ ؛ لأنَّ الميلَ الذاتيَّ الأنانيَّ هو المُسيطرُ عليهم ، وإنْ هُمُ ادَّعَوا بعدَ ذلكَ : أنـَّهُم اشتراكيُّونَ : أي أصحابُ نزعةٍ اجتماعيّةٍ ، فدعوتُهُم هذهِ تتنافرُ معَ إيمانِهم بالماديَّةِ وبسلوكِهِمُ الأنانيِّ . اشتراكيّتُهُم مُجرّدةٌ مِنْ كُلِّ معنًى إنسانيٍّ ، ومِنْ كُلِّ قيمَةٍ إنسانيَّةٍ عامَّةٍ . بكلِّ حزمٍ تصدّى «البهيُّ» في كتابهِ هذا ، لجميعِ الأفكارِ المُغرِضَةِ ، والتُّرّهاتِ الباطلةِ ؛ لأنـَّها تهدِفُ إلى تدميرِ الدِّينِ ، عنْ طريقِ الاستشراقِ وأعوانِهِ ، ونشرِ الشّائعاتِ الكاذبةِ مثلِ : إنَّ الدِّينَ لا قيمةَ لَهُ ؛ ويُعلّلونَ ذلكَ بقولِهم إنَّ الشيءَ موجودٌ بآثارِهِ ، ويدَّعُونَ بأنـَّهُم لا يرونَ أثراً للدِّينِ على المُجتمعِ ، وانطلَى زعمُهُم هذا على غوغاءِ البُسطاءِ والسُّذَّجِ مِنَ المُسلمينَ ، حتّى أنَّ (بعضَ الطَّلبةِ مِنْ جامِعَتَيِّ : عينِ شمسٍ والقاهرةِ ـ في ذلكَ الوقتِ عام ١٩٥٥م ـ [أخذوا يهتفونَ ويُردِّدونَ العبارةَ الشُّيوعيَّةَ الماركسيَّةَ الاشتراكيَّةَ[١] التاليةَ] الدِّينُ إيحاءٌ خُرافيٌّ) [٢].

راجَتْ في الشَّرقِ العربيِّ والإسلاميِّ ، منذُ نهايةِ الحربِ العالميةِ الثّانيةِ ، في عام ١٩٤٥م ، فِكرَةُ مُحاربَةِ جميعِ أشكالِ مظاهرِ التّديُّنِ ، وإبعادِ الدِّينِ عنْ مجالَي الإنسانِ والجماعةِ ، (وهنا في مصرَ ، كانَ من مظاهرِ التّجديدِ في الفكرِ الإسلاميِّ ، [مِنْ] بدايةِ القرنِ العشرينَ ، ترديدُ الفكرِ الغربيِّ . . . ولم يكُنِ التّرديدُ النّافعُ ، الّذي يَصِحُّ أنْ يُثمِرَ في الجماعةِ الإسلاميّةِ النّاهضةِ ، كالفكرِ العلميِّ ، في مجالِ التّعميرِ والهندسةِ . . . والطِّبِّ . . . والكيمياء ، وإنّما كانَ ترديداً لفكرِ المُستشرقينَ أو للفكرِ الماديِّ ، ... وقد يُردَّدُ مُشوَّهاً أو مُحرَّفاً ...

---

(١) الاشتراكيّة : مذهب سياسي واقتصادي ، يقوم على سيطرةِ الدّولةِ ، على وسائل الإنتاج وعدالة التوزيع ، والتخطيط الشامل ، انظر ، إبراهيم مدكور ، : المعجم الوجيز ، ص٣٤١ .

(٢) صحيفة الجمهوريّة اليومية ، تحت عنوان «الجامعة بين المؤمنين والمُلحدين والوجوديين» ، القاهرة ، بتاريخ ١٥سبتمبر ١٩٥٥م .

ممّا يزيدُ الأمرَ لُبساً [وغُموضاً] . . . ويدفعُ إلى الشَّكِّ السلبيِّ ، . . . هذهِ هيَ الماركسيَّةُ[1] . . . عدوَّةُ الدِّينِ والإيمانِ باللهِ . . . عدوَّةُ الحياةِ الإنسانيَّةِ)[2] .

يسعَى العالَمُ الغربيُّ العَلمانيُّ اليـومَ إلى إقامةِ ما يُسمَّى «بالعَوْلَمَةِ»[3] . ولا يُنكِرُ عليهِ أحدٌ مِنْ أدعياءِ الحضارةِ المادِّيَّةِ الحديثةِ ، بلْ تُحاولُ بعضُ الثَّقافاتِ والجماعاتِ والطَّوائفِ ، أنْ تتقارَبَ معَ بعضِها على أساسٍ ليبراليٍّ عَلمانيٍّ[4] ، ولا يجرؤُ كثيرٌ مِنَ النّاسِ أنْ يقفَ في سبيلِ هذا التّيّارِ الجارفِ .

أمّا إذا جاءَ الإسلامُ بالتّوحيدِ عقيدةً وعبادةً ونظامَ حياةٍ ، أنكرَ عليهِ دُعاةُ التجديدِ مِنَ الغربيِّينَ ، وفريقٌ مِنَ المُتظاهرينَ بالإسلامِ ، تحتَ شعارِ الحضارةِ المادِّيَّةِ والتَّجديدِ الغربيِّ في كلِّ شيءٍ كما يزعُمُونَ ، والرّغبةِ في اللّقاءِ مع الأُممِ ، ذاتِ المدنيةِ الجوفاء العبثيَّةِ ، التي لا روحَ فيها . ما هذا التقليدُ الأعمى لفكرٍ شرقيٍّ أو غربيٍّ؟! صارَ فسادُهُ وضعفُهُ بارزاً لكُلِّ ذي لُبٍّ ؛ لأنَّهُ فقدَ

---

(١) الماركسية : نسبةً «لكارل ماركس» ، وتسمى الماديّة التّاريخيّة : وهي عبارة عن مذهب يرمي إلى تفسير النّظم الاجتماعيّة ، والأحداث التّاريخيّة ، بالظواهر الاقتصاديّة . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٥٧٥ .

(٢) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربيّ ، ص٢٣٩، ٣١٩ .

(٣) العولمة والعَلماني : العَلماني : بفتح العين : نسبةٌ إلى العَلْم بمعنى العالَم ، والعَلمانيُّ : عند الغربيين المسيحيين هو : من يعنى بشؤون الدّنيا ، وهو خلافُ الكهنوتي . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٤٣٢ . والعلمانيّة بالإنجليزيّة : «SECULARISM» وترجمتها الصحيحة : اللادينيّة أو الدُّنيويّة ، وهي دعوة إلى إقامة الحياةِ على غير الدِّين ، وتعني في جانبها السياسيّ باللّذاتِ اللادينيّة في الحُكمِ ، وهي اصطلاحٌ لا صلةَ له بكلمةِ العِلمِ «SCIENCE» والمذهب العلميّ «SCIENTISM» . انظر ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٣٦٧ .

(٤) ليبرالي ، ليبرالزم «LIBERALISM» : تعني التّحرُّريّةَ ، وهو المذهب الحُرُّ القائلُ بتركِ الأفرادِ يعملونَ ويربحونَ ، بدونِ تدخُّلِ الدّولةِ في ذلكَ . انظر ، قسطنطين تيودوري : المنجد في اللغة والأعلام ، ص٤٦٠ .

صلاحيتَهُ في مهدِ وطنهِ ، نظراً لوقوعهِ أسيراً للأهواء الشّخصيّةِ ، والمزاجيّةِ الضّالّةِ .

قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد:١٧).

الصِّراعُ بينَ الحقِّ والباطلِ مُستمرٌ إلى يومِ القيامةِ ، فَلا بُدَّ للحقِّ مِنْ أنْ ينتصرَ في نهايةِ المطافِ ، ولكنْ بعدَ التّمحيصِ والتَّربيَةِ الحقيقيَّةِ للصّفِّ الإيمانيِّ ؛ لأنَّ (الباطلَ يطفُو ويعلُو وينتفخُ ، ويبدُو رابياً طافياً ، [فهو] زَبَدٌ أوْ خَبَثٌ ، ما يلبثُ أنْ يذهبَ جُفاءً مطْروحاً ، لا حقيقَةَ لهُ ولا تَماسُكَ فيهِ .

أمَّا الحقُّ يظلُّ هادِئاً ساكِناً ، وربَّما يحسبُهُ [بعضُ النّاس] قدِ انْزَوى أوْ ضاعَ ، ولكنَّهُ هُوَ الباقِي في الأرضِ)[1].

مِنَ اللَّمَحاتِ البارزةِ في التَّوجيهِ الرَّبانيِّ ، لرسولِ اللهِ ﷺ ، أنْ يَجهَرَ - في مواجهةِ الإعراضِ والتّكذيبِ والتَّحدِّي ، وبُطءِ الاستجابةِ ووعُورةِ الطَّريقِ - بالحقِّ الذي يحملُهُ كاملاً غيرَ منقوصٍ ، وهو التَّوحيدُ والإيمانُ ، وأنَّهُ لا معبودَ بصدقٍ إلاَّ اللهُ وأنَّ النَّاسَ جميعاً مردودُونَ إليهِ ، فإمَّا إلى جنَّةٍ وإمَّا إلى نارٍ ، هذهِ هيَ مجموعةُ الحقائقِ والأفكارِ ، التي يُنكِرُها أصحابُ المذاهبِ المادِّيَّةِ والاشتراكيَّةِ .

لعلَّ هذهِ اليقظَةَ الفكريَّةَ - التي بدأتْ تظهرُ بينَ شبابِ المُسلمينَ اليومَ - تستمرُّ حتى ينبلجَ صُبحُ الإسلامِ مِنْ جديدٍ ، (بعدَ أنِ انكشفَ الخِداعُ الاستعماريُّ الفكريُّ والأيديولوجيُّ ، [وأقبلَ] الشَّبابُ على فكرٍ أصيلٍ ، [يستنِدُ إلى] القيمِ الإسلاميَّةِ الخالدةِ ، [إذْ] هيَ [الرَّكيزةُ التي] ارتبطتْ بها شخصيَّةُ الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ ، في وجودِها واستمرارِها ، وإيقاظِ الوعيِّ بتفكيرٍ

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ١٣/٨٥ .

تَوجيهيٌ مُحايدٍ ، وبأيديولوجيَّةٍ لا هيَ بالشَّرقيَّةِ الإلحاديَّةِ ، ولا هيَ بالغربيَّةِ الصَّليبيَّةِ . تقومُ بينَ المُسلمينَ على أساسٍ من الإسلامِ الأصيلِ نفسهِ» [١].

فالمُسلمونَ يحتاجُونَ اليومَ إلى تَجميعِ طاقاتِهِمُ الفكريَّةِ ، واستخدامِ ثرواتِهِمُ البشريَّةِ والماليَّةِ ، واستقلالِ إرادَتِهِم في حِفظِ قوَّتِهِم . يكونُ ذلكَ بالرُّجوعِ إلى أنفُسِهِم ، وما حولَهُمْ وما بينَ أيديهِم ؛ ليقفُوا سدّاً منيعاً في وجهِ الفكرِ الصَّليبيِّ الدَّوليِّ ، ثُمَّ لبقايا الإلحادِ العلميِّ، للشُّيوعيَّةِ العالميَّةِ المُنهارةِ البائِدَةِ .

وفي كتابهِ «**الفكرُ الإسلاميُّ في تطوُّرِه**» يُفيدُ بأنَّ الفكرَ الإسلاميَّ، لا يقِفُ عندَ حِقبةٍ زمنيَّةٍ مُعيَّنةٍ ، ولا عندَ مُفكِّريْنَ مُعيَّنينَ في جيلٍ مِنَ الأجيالِ أو وقتٍ مِنَ الأوقاتِ . لذا فإنَّ للفكرِ الإسلاميِّ عُهوداً ومراحلَ ، وفي كُلِّ عهدٍ ، أوْ في كُلِّ مرحلةٍ ، لَهُ قضايا ولَهُ رجالٌ .

يُبرِزُ «البهيُّ» في بعضِ فُصُولِ كتابهِ هذا ، مُواجَهَةَ الفكْرِ الإسلاميِّ ، للدَّخيلِ مِنَ الأفكارِ على أُمَّةِ الإسلامِ ودينِهِم ، بسببِ الخُصومةِ الدَّاخليَّةِ النَّاشئةِ عنِ التَّعصُّبِ المذهبيِّ والطَّائفيِّ . بالرَّغمِ مِنْ ذلكَ : فهُوَ يصِلُ حَلَقاتِ التَّفكيرِ عندَ المُسلمينَ بعضِها ببعضٍ ، نحو هدفِ الفكرِ الإسلاميِّ مُنذُ نشأتِهِ . وهُوَ الحِفاظُ على الإيمانِ باللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، والقيَمِ الإسلاميَّةِ .

تأييدُ هذا الحفاظِ أو نقدُ ما يُضعِفُهُ ، أو يواجهُهُ في تحدٍّ مِنْ أسبابٍ : هو فكرٌ إسلاميٌّ في عهدٍ ماضٍ ، أو في وقتٍ حاضرٍ ، أو في مُستقبلٍ آتٍ .

لقَدْ واجهَ الفكرُ الإسلاميُّ الفكرَ الإغريقيَّ ، والفارسيَّ ، والهنديَّ ، في عهدِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ فيما مَضَى مِنَ الزَّمانِ . ويواجِهُ اليومَ الفكرَ الأوروبيَّ العَلمانيَّ ، والفكرَ الآخرَ الماركسيَّ اللينينيَّ .

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلاميُّ الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٦-١٢.

يُلقِي الكتابُ إذاً نظرةً على تَطوُّر مَراحلِ الفكْرِ الإسلاميِّ ، ويُعطِي صُورةً لوجودِهِ وامتدادِهِ ، إلى اليومِ الّذي نعيشُهُ الآنَ . فالفكْرُ الإسلاميُّ ، يعني هُوَ : (المُحاولاتُ العقليَّةُ مِنْ عُلماءِ المُسلمينَ ، لشرحِ الإسلامِ مِنْ مصادرِهِ الأصليَّةِ : القُرآنِ ، والسُّنَّةِ الصّحيحةِ : إمّا تفقُّهاً واستنباطاً ، لأحكامٍ دينيَّةٍ في صِلَةِ الإنسانِ بخالِقِهِ في العبادةِ ، أو في صِلَةِ الإنسانِ بالإنسانِ في المُعاملاتِ ، أو لمُعالجَةِ أحداثٍ جَدَّتْ ، أو ردّاً لعقائِدَ أُخرى مُناوئَةٍ [لعقيدةِ الإيمانِ والإسلامِ] ، حاولَتْ أنْ تحتلَّ منزلَةً في الحياةِ الإسلاميّةِ العامّةِ ، لسببٍ أو لآخرَ ، إلى غيرِ ذلكَ من الدّوافعِ والأسبابِ ، التي تدعو إلى إعمالِ الفكرِ في المُحافظَةِ على الطّابَعِ الإسلاميِّ . كما يُرادُ لَهُ أنْ يكونَ أو يبقى ذو صِبْغَةٍ إسلاميّةٍ .

هذهِ المُحاولاتُ العقليّةُ ، بَدَتْ كظاهِرَةٍ في الرُّبعِ الأخيرِ مِنَ القرَنِ الأول الهجريِّ ، وأصبحَ مُنذُئذٍ يؤرِّخُ لفكرٍ إسلاميٍّ ، ولاتّجاهاتٍ فكريّةٍ إسلاميّةٍ مُختلفَةٍ . يومَ أنْ خَفَّ إيمانُ المُسلمينَ بالإسلامِ ، وشَغَلَتِ الدُّنيا رُكْناً فسيحاً في قُلوبِهم ، واضطرُّوا مِنْ أجلِ ذلكَ إلى المُلائمَةِ بينَ إسلامِهِم كدينٍ وعقيدَةٍ ، وبينَ تصرُّفاتِهِم في هذهِ الحياةِ ، تَبعاً لمنزلَةِ هذهِ الحياةِ الدُّنيا ، التي صارَتْ إليها [حَسَبَ] تقديرِهِم . بعدَ أنْ كانتِ الدُّنيا كُلُّها على هامَشِ حياةِ السَّلَفِ مِنْ قبلِهِم .

أمّا المرحلَةُ التي لم يزل الفِكْرُ الإسلاميُّ يعيشُها حتّى الآنَ : في تحدٍّ وصِراعٍ ، فَهِيَ : تلكَ المرحَلَةُ التي ظهرَ فيها الاستعمارُ الغربيُّ والاستعمارُ الشّرقيُّ . إذْ يُحاولانِ السَّيطَرَةَ على توجيهِ المُسلمينَ فيها ، واتّجهَ الفِكْرُ الإسلاميُّ مرّةً أُخرى في هذهِ المرحلَةِ إلى مُقاومَةِ الاستعمارِ ، ومُقاومَةِ تلكَ المذاهبِ والبُحوثِ الفكريّةِ الإسلاميّةِ ، التي [أبْرَمَ صياغَتَها] لمُعاونَتِهِ في تمكينِ سُلُطاتِهِ ، في رُقعَةِ البلادِ الإسلاميّةِ) (1).

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي في تطوره ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص ٣-١٤ .

يستطيعُ المرءُ أنْ يقولَ : إنَّ الإسلامَ يقدِرُ على مُواجهةِ أيّةِ ثقافةٍ فكريّةٍ إنسانيّةٍ ، دونَ أنْ يُخشى عليهِ ، طالما وجدَ مِنَ المُؤمنينَ بهِ ، مَنْ يَقوى على فَهمِهِ : أُصولاً وغايةً ، بل قامَت ـ مُنذُ مَطْلَعِ القرنِ العشرين ـ حركاتٌ فكريّةٌ تجديديّةٌ ، وأُخرى إصلاحيّةٌ ذاتُ طابَعٍ دينيٍّ إسلاميٍّ .

امتازتْ دراسةُ الفكرِ الإسلاميِّ في هذه المرحلةِ ، ببيانِ العواملِ الإيجابيّةِ ، والأُخرى السّلبيّةِ التي لها أثرٌ مُباشَرٌ ، في قُوّةِ المُسلمينَ ودَفعِهِم إلى الأمامِ ، أو في ضَعْفِ المُسلمينَ ، وتمزيقِ أوصالِهِم وكُتلتِهِم ، وإبعادِهِم عنْ سيادَةِ أنفُسِهِم على أنفُسِهِم .

الحقيقةُ التي يجبُ أنْ يُدركَها ، كُلُّ مَنْ كانَ لديهِ لُبٌّ أو قلبٌ يَعقِلُ فيهِ : إنَّ إيمانَ المؤمنينَ لا يزيدُ في مُلكِ الله تعالى شيئاً ، كما إنَّ كُفرَ الكافرينَ لا يُنقِصُ منهُ فتيلاً . لكنَّ اللهَ تعالى لا يرضَى عن كُفْرِ الكافرينَ ولا يُحبُّهُ ، وفي المُقابلِ يُعجبُهُ سُبحانَهُ شُكرُ الشاكرينَ لأنعُمِهِ ، ويُحبُّهُ لَهُم ، ويُثيبُهُم عليهِ . كُلُّ فردٍ مأخوذٌ بعملِهِ ، مُحاسَبٌ على كَسْبِهِ ، ولا يحملُ أحدٌ عِبءَ أحدٍ يومِ القيامةِ ، بلِ لكلٍّ عِبْؤُهُ وحِملُهُ ، لذلكَ يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الزمر:٧-٩).

مرجِعُ الخلائقِ في النّهايةِ إلى اللهِ تعالى وحدَهُ دُونَ سواهُ ، فلا مَهربَ مِنهُ ولا ملْجأَ لأحَدٍ عِنْدَ غيرِهِ ، هذهِ هيَ العاقبةُ ، وتلكَ هيَ دلائلُ الهُدى كما بيّنتها

الآياتُ الكريمةُ ، ولكُلِّ امرئٍ أنْ يختارَ عَنْ بيِّنَةٍ وتَدَبُّرٍ ، بعدَ العِلْمِ وإعمالِ الفكرِ ، ومُطلَقِ الحُريَّةِ والإرادةِ .

العِلمُ الحقُّ هو المعرفةُ المُستنيرَةُ ، التي تفتحُ البصيرةَ على استشعارِ الحَذَرِ مِنَ الآخرةِ ، بالقُنوتِ إلى اللهِ تعالى ، والتطَلُّعِ إلى رحمةِ اللهِ سُبحانَهُ وفضلِهِ ، ومُراقبَتِهِ مُراقَبَةً واجفةً خاشعَةً ، ومِنْ ثَمَّ يُدرِكُ اللُّبُ ويعرِفُ ، وينتفعُ بما يرى ويسمعُ ، وبما يُجرِّبُ ويعملُ .

مِنْ مُؤلَّفاتِ «البهيِّ» الفكريَّةِ والإيمانيَّةِ ، التي تبحثُ في فلسفةِ فِكْرِ العقيدةِ ، كتابُهُ : **«الدِّينُ والدَّولةُ مِنْ توجيهِ القُرآنِ الكريمِ»** :

يقعُ الكتابُ في أبوابٍ سِتَّةٍ ، ويُمكِنُ أنْ يُكَوِّنَ صورةً مُتكاملَةً ، لمنهجٍ تَخطيطيٍّ في تأْصِيلِ مُجتمَعٍ إنسانيٍّ ، ينبغي أنْ يقومَ على مبادئِ الإسلامِ والإيمانِ . بلْ يعرضُ مُجتمعاً إسلامياً فكرياً ، يتّصِفُ بالصِّبْغةِ العقائديَّةِ ، مُقترِناً فيها باتِّزانٍ واعتدالٍ وحُريَّةِ اختيارٍ .

مُجتمَعٌ لَهُ تاريخٌ ماضٍ ومُستقبلٌ حاضرٌ ، يُريدُ أنْ ينفكَّ اليومَ مِنَ التَّبعيَّةِ الفكريَّةِ ، لا سيَّما في نظامِ حُكْمِهِ ، وعاداتِهِ وتقاليدِهِ عامَّةً ، واتِّجاهاتِهِ وقِيَمِهِ خاصَّةً ، عنِ الغربِ والشّرقِ معاً ؛ لكي يعيشَ يومَهُ وغدَهُ كريماً آمِناً ، مِنْ خَوفِ التَّخلُّفِ ، وليَحْيا في حُريَّةٍ حقيقيَّةٍ وتَحَرُّرٍ مِنْ كُلِّ مَصدرٍ للإذلالِ .

كانَ الإسلامُ ولا يزالُ رسالةَ اللهِ تعالى (علَى لسانِ أيِّ رسولٍ يدعُو إلى الحيلُولَةِ ، دُونَ الطُّغيانِ عنْ طَريقِ المالِ والقُوَّةِ المادِّيَّةِ ، كما يدعُو إلى [الرُّوحيَّةِ الدِّينيَّةِ] . منْ أجلِ ذلكَ : فإنَّ مُهِمَّةَ الرُّوحيَّةِ أو الدِّينِ لم تنتهِ بعدُ ؛ [لأنَّ] الصِّراعَ بينَ الوجوديِّ الماديِّ[1] وبينَ الواقعيِّ الرُّوحيِّ ، هو صِراعٌ مُنبثِقٌ

---

(١) الاتجاه الوجوديّ الماديّ : هو اتجاهٌ يقتصِرُ النَّظرةَ للحياةِ وللإيمان ، على ما يُحَسُّ بلمسِ اليدِ ، وما يُشاهَدُ برؤيةِ العين ، ثم نَفيُ كلّ ما وراءَ ذلكَ ، وإنكارُهُ إنكاراً شديداً ، لا يقبل المناقشةَ والمراجعةَ . الوجود : ضدُّ العَدَمِ ، وهو ذهنيٌّ وخارجيٌّ ؛ والوجوديَّة : مذهبٌ يرمي إلى إبراز قيمَةِ وجودِ الفردِ ، وعلى هذا الوجودِ تقوم الحريَّةُ المُطلَقَةُ ، وبهِ يستطيعُ الإنسانُ أنْ يتَخِذَ موقفاً مُعيَّناً ، تحقيقاً لوجودِهِ الكاملِ .
انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٦٦١ .

مِنْ طبيعةِ الإنسانِ ، وليسَ هو مفروضاً على الإنسان . معنى ذلكَ : أنّهُ سيظَلُّ [الصِّراعُ مُستمراً] على هذهِ الأرضِ ، طالما يوجَدُ عليها الإنسانُ . ومهما طغَتِ الماديّةُ في اتِّجاهِها وتأثيرِها ، واجتذابِ الأتباعِ إليها ، سيظلُّ للدِّينِ دَورُهُ ، كما للماديَّةِ عِنادُها وجِماحُها ، ولو تَرَكَ الدِّينُ مكانَهُ ، لنادتْهُ الماديَّةُ من جديدٍ إلى الصِّراعِ معَهُ)[1].

يستحيلُ إذاً أنْ يكونَ النّاسُ أُمّةً واحدةً في الإيمانِ والرُّوحيَّةِ جميعاً ، أو في الكُفرِ والماديَّةِ كُلّهم ، ولو تراءَىَ أنَّ النّاسَ جميعاً أصبحُوا أصحابَ روحيَّةٍ ، لوقعَ في ذاتِ اللَّحْظَةِ : أنَّ فريقاً منهُم ، سينصرِفُ عنِ الرُّوحيَّةِ إلى الماديَّةِ ؛ رَغْبةً في إشباعِ شَهَواتِهِ ، وهَوى لذّاتِهِ ، وقد يبدأُ الصِّراعَ مِنْ أجْلِ انفصالِهِ ، واعتزالِهِ بقيّةِ النّاسِ في اتجاهٍ وحْدَهُ .

كَشفَ اللهُ تعالى عنْ سُنّتِهِ ، في كَونِ النّاسِ مُختلفينَ في مناهجِهم واتِّجاهاتِهم ؛ وذلكَ لأنَّ إرادَتَهُ وحِكْمَتَهُ سُبحانَهُ وتَعالى ، اقتضتْ إعطاءَ البشرِ حُريّةَ الاختيارِ في العقيدةِ خاصّةً ، وقدْراً آخرَ مِنَ الاختيارِ في شُؤونِ الحياةِ عامّةً ، وخيرُ دليلٍ على هذا ، قولُهُ سُبحانَهُ وتعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود:١١٨-١٢٠).

الخطابُ في الآياتِ الكريمةِ مُوجّهٌ للرّسولِ مُحمّدٍ ﷺ ؛ لأنّهُ كانَ حريصاً على إيمانِ قومِهِ . لو شاءَ ربُّكَ أيُّها الرّسولُ ، لجعلَ النّاسَ أُمّةً واحدةً ، وآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهُمْ جميعاً . (لو شاءَ ربُّكَ لَخلقَ النّاسَ وفي غريزتِهم

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص٦٤ ، ٦٥ .

وفِطْرَتِهم ، قَبُولُ الدِّينِ بِلا تفكيرٍ أوْ نَظَرٍ ، فكانُوا كالنَّملِ أوِ النَّحلِ أوِ الملائكةِ ، لا يَعصُونَ اللهَ ما أمرَهُم [ويفعلونَ ما يُؤْمَرُونَ] ، ولكنَّهُ سُبحانَهُ شاءَ لَهُم ذلكَ [الاختلافَ] ، وقـدَّرَ لَهُم عُقولاً مُختلفَةً واتّجاهاتٍ مُتباينَةً ، لِحِكْمَةٍ يَعلَمُها .... وتمّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ وقُضِيَ الأمرُ ، [ليملأنَّ] جهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعينَ ، الّذينَ لا يهتدُونَ بِما أرسَلَ [اللهُ تعالى] بِهِ الرُّسُلَ مِنَ الآياتِ والأحكامِ . وكُلُّ قَصَصٍ نَقُصُّهُ عليكَ أيُّها الرّسولُ ، مِنْ أنباءِ الرُّسُلِ قبلَكَ وأخبارِهِمُ المُهِمَّةِ ، التي هيَ عينُ العِبرَةِ والعِظَةِ . نَقُصُّ عليكَ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ، حتّى يكونَ كالجبلِ ثَباتاً ورُسُوخاً ، [بسببِ ما] يُطْلِعُكَ عليهِ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى ، مِنْ أنواعِ العُلومِ والمعارفِ ، ... وما أوقَفَكَ عليهِ مِنْ طبائعِ النّاسِ ، وسُنَنِ اللهِ في الكونِ ، وما قاساهُ الرُّسُلُ الكِرامُ عليهِمُ السَّلامُ مِنَ الإيذاءِ ، فصبرُوا صبْراً كريماً .

وفي هذا موعِظَةٌ وذِكْرى للمُؤمنينَ ، فإنَّهُمُ الذينَ يستفيدونَ مِنَ الوعَظِ والذِّكرى ، والمُرادُ بالمؤمنينَ : المُعاصرونَ ومَنْ يأتي بعدَهُم)[1] .

شاءَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى ألاَّ يكونَ النّاسُ أُمّةً واحدةً ، فكانَ مِنْ مُقتضى هذا أنْ يكونوا مُختلِفينَ ، وأنْ يصِلَ هذا الاختلافُ إلى أُصولِ العقيدَةِ ، إلاَّ الّذينَ أدْركَتْهُم رحمةُ اللهِ تعالى ، الّذينَ هُم اهتدَوا إلى الحقِّ واتَّفقُوا عليهِ ، فالحقُّ أصيلٌ لا يتعدَّدُ ، ولا يَنْفِي أيضاً الاختلافَ مَعَ أهلِ الضَّلالِ . الأمرُ الذي يزيدُ أو ينحسِرُ هو عددُ المؤمنينَ بالرُّوحيَّةِ والكافرينَ بها ، إنَّهُ عددُ الّذينَ لا يتقاتَلُونَ على مُتَعِ هذهِ الحياةِ ، أو عددُ من يُقاتِلُ بسببِها ، ويُخرِّبُ ويُدمِّرُ ، وينتهكُ الحُرُماتِ ، ويرتكِبُ أساليبَ القَرْصَنَةِ والغدْرِ والخيانَةِ ، في سبيل هذهِ المُتَعِ الماديّةِ الرّخيصةِ .

---

(١) محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، ١١/٥٩-٦١ .

أمّا مؤلَّفاتُهُ في مجالِ العقيدة : فهيَ مُتعدِّدةٌ[1]، مِنها على سبيلِ المثالِ لا الحَصْرُ ، كتابُهُ : «مِنْ مفاهيمِ القُرآنِ في العقيدةِ والسلوكِ» : سطَّرَ هذا الكتابُ في ثناياهُ ، قَضايا في غايةِ الأهميّةِ ، كانتْ من أهمِّها وأبرزِها قضيّتا العقيدةِ والسُّلوكِ ، وما لَهُما مِنْ أثرٍ خطيرٍ في حياةِ الإنسانِ ، في دنياهُ وأُخراهُ ، في معاشِهِ ومعادِهِ ، وكريمِ خِصالِهِ . تربيَةً كريمَةً ، وحُسْنَ فِعالٍ ؛ ليُزاولَ حياتَهُ باعتدالٍ واتّزانٍ ، مُتواتماً مَعَ الجِبِلَّةِ السَّوِيَّةِ التي فُطِرَ عليها ، كما وردَ في الإسلامِ وقنَّنَهُ القرآنُ ؛ لذا فإنّ الذي يُحسِنُ التّعامُلَ مَعَ مفهومِ القُرآنِ ، يجدُ أنَّ كثيراً مِنَ الآياتِ المكيَّةِ ، تناولتْ في نُصُوصِها ، مَجالَ العقيدةِ والتّوحيدِ[2] للهِ تعالى : في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأسمائِهِ ، فالمؤمنُ العَقَديُّ يهتدي بكتابِ اللهِ ، في جميعِ ما يُحيطُ بِهِ مِنْ شئونٍ ، وما يواجِهُهُ مِنْ أفكارَ ومشاكلَ مُتنوّعةٍ . لذا كانَ (الإيمانُ باللهِ ، هو الطَّريقُ لرفعِ مُستوى الإنسانِ في إنسانيّتِهِ ، وللحَيلولَةِ دونَ التزامِهِ بمنطِقِ الطُّفولةِ البشريَّةِ ، القائمِ على حُبِّ الذاتِ وعدمِ الاعترافِ بالغيرِ ، والمُخاصَمَةِ في سبيلِ تحصيلِ المُتَعِ للذّاتِ وحدَها ، ولو على حسابِ شَقاءِ الآخرينَ وحرمانِهم .

الدِّينُ والإيمانُ باللهِ : يستهدفانِ أن يعيشَ الإنسانُ إنساناً ، في تعاوُنِهِ ومودَّتِهِ وإخائِهِ ، وإقرارِهِ بالمُساواةِ في الاعتبارِ البشريِّ ، وبالمُشاركَةِ في خيراتِ الدُّنيا ، وليسَ أنْ يَعيشَ الإنسانُ حيواناً في صُورةِ إنسانٍ ، أو طِفلاً في جِسْمِ إنسانٍ

---

(١) من كتب البهي في العقيدة : أ : الدين والدّولة من توجيه القرآن الكريم . ب : الشباب بين التطرّف في الإيمان والشكّ بالله . ج : العلمانيّة وتطبيقها في الإسلام ، إيمان ببعض الكتاب . . وكفر بالبعض الآخر . د : خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر . هـ : غيوم تحجب الإسلام . أُنظر ، محمد البهي : مؤلفاتُ البهيّ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٤٥-١٩٨٠م .

(٢) التّوحيد والوحدانيّة : هي صفةٌ من صفاتِ اللهِ تعالى ، معناها : يَمتَنِعُ أنْ يُشاركَهُ شيءٌ في ذاتِهِ ، أو صفاتِهِ ، وإنّهُ مُنفردٌ بالإيجادِ والتّدبيرِ ، بلا واسطَةٍ . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٦٦٢ .

كبير)[1]. الإيمانُ باللهِ مسئوليّةٌ كُبرى بالنِّسبةِ لذاتِ المؤمنِ ، يَنبغي أنْ تنعكِسَ إصراراً وتحوُّلاً سُلوكيّاً في التَّفكيرِ والوجدانِ ؛ لكي يَرتقيَ صاحبُ الإيمانِ إلى المُستوى الإنسانيِّ الفاضلِ ، الذي تتطلَّبُه هدايةُ الإيمانِ بوحدانيّةِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، وطاعةِ رسولِهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في كُلِّ ما أمرَ بهِ ، واجتنابِ ما نهى عنهُ ، وبذلكَ : يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (الحجرات:٧،٨).

تُشيرُ الآيتانِ الكريمتانِ إلى المُؤمنينَ ، الذين انتقلوا بإيمانهم سُلوكاً وتهذيباً ، فدخلوا مُجتمعَ الرّاشدينَ ، الذي يتميّزُ بالمودّةِ والرّحمةِ ، والرُّشدِ الإنسانيِّ ، حيثُ يرتقي المرءُ فيهِ إلى أعلى درجاتِ الإيثارِ ، في نُضوجِ تعامُلِهِ ، وإخراجِهِ من دائرةِ الطُّفولةِ القاصرةِ ، ومرحلةِ المُراهقةِ الفكريّةِ والسُّلوكيّةِ ، إلى كمالِ الأشُدِّ وتمامِ الرُّجولةِ ، والجديّةِ في القولِ والعملِ ، لأنَّ قضيّةَ الإيمانِ بالدِّينِ وباللهِ ، هيَ قضيّةُ الجديّةِ والصِّدقِ ، في إعلانِ قَبُولِ الإسلامِ .

والإيمانُ هو : المعيارُ في الدّينِ ، بينَ الجادِّ فيهِ ، الذي يتوقّعُ تحمُّلَ تَبِعاتٍ ومسئوليّاتٍ ، في الأموالِ والأرواحِ في سبيلِهِ ، وغيرِ الجادِّ في الدّينِ ، صاحبِ المنفعةِ منهُ ، الذي يتوقّعُ منافعَ ماديّةً ، مِنْ قَبُولِهِ إيّاه)[2]. لكنَّ المؤمنينَ لا يَرضَوْنَ عمّنْ يُخالِفُ رسولَ اللهِ ؛ لأنّهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ :

أولاً : لا يتّبعُ إلاّ ما يُوحَى إليهِ مِنْ ربِّهِ .

ثانياً : إنّ محبّةَ الرّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ ، ركنٌ من أركانِ العقيدةِ .

لهذا زيّنَ بل حبّبَ اللهُ تعالى الإيمانَ وطاعةَ الرّسولِ ﷺ إلى قلوبِ المُؤمنينَ ،

---

(١) محمد البهي : من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، ص ١٥ .

(٢) محمد البهي : من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك ، ص٧٠ .

وكرّهَ في نفوسهِم كُلَّ ألوانِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيان ، (أُولئكَ المؤمنونَ [الذينَ يتّصفُونَ بتلكَ المزايا] هُمُ الرّاشدونَ في الدُّنيا والآخرةِ ، وقد فعلَ اللهُ تعالى معَهُم ذلكَ تفضُّلاً منهُ ورحمةً ، ونِعمةً عليهِم ، واللهُ عليمٌ بخلْقِهِ حكيمٌ في فعلِهِ)[1].

المؤمنُ باللهِ تعالى إذْ يُحاكي هذهِ الصفاتِ في التّصرُّفاتِ والسُّلوكِ ، يلزمُهُ أن يترفّعَ فوقَ الشّهواتِ والأهواءِ ؛ لأنّهُ لا يقِفُ نفسَهُ عندَ حدِّ المُتَعِ الحسيّةِ المادّيَّةِ الدُّنيويَّةِ ، كهدفٍ أخيرٍ في حياتِهِ ، وإنما يتطلّعُ إلى مُتَعٍ أُخرى ، في مرحلةٍ ثانيةٍ في وجودِ الإنسان ، أكثرَ خيراً وأبقى نفعاً . (ومِنْ هُنا كانت جماعةُ المؤمنينَ جماعةً تَلْتَزِمُ ولا تُلْزِمُ ، وكانتْ دولتُهُم دولةَ أخلاق ، وليستْ دولةَ سَوْطٍ وعصاً وإرهابٍ ، وكانت أُمّتُهم أُمّةً إنسانيَّةً ، يسودُ فيها اعتبارُ الإنسان ، وكرامتُهُ ، وحُريّتُهُ ، يسودُ فيها ما صوَّرَ [اللهُ تعالى] بِهِ الإنسانَ من « رُوحيَّةٍ » بعدَ أنْ خلقَهُ مِنَ المادّةِ ؛ ليتميّزَ بهذا الازدواجِ عن بقيّةِ المخلوقاتِ ، ويستحقَّ أنْ تكونَ لهُ الخِلافَةُ في الأرضِ)[2]. إنّ التّوحيدَ ومحاسِنَ الأخلاق ، من أهمِّ ما دعتْ إليهِ الرِّسالاتُ السّماويّةُ جميعُها ، فجاءتْ رسالةُ مُحمّدٍ ﷺ ، لِتُتمّمَ ما بدأتْهُ رسالاتُ الأنبياءِ السّابقينَ في صَرحِ الأخلاقِ ، وممّا يؤيّدُ هذا ما رواهُ أبو هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنّما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ » وفي روايةٍ أُخرى « صالحَ الأخلاقِ »[3]. الأخلاقُ في الإسلامِ قائمةٌ على العقيدةِ ، التي توجِّهُ المُسلمَ في جميعِ شُؤونِ حياتهِ العامّةِ والخاصّةِ ، الظاهرةِ والباطنةِ ، فتتجلّى في سُلوكِ المؤمنِ ، وصلتِهِ بربِّ العالمينَ وطاعتِهِ لَهُ ، وخَشيتهِ وحُبِّهِ والتزامِ أوامرِهِ ، كما تَبْرُزُ في تعامُلِهِ معَ عِبادِ اللهِ : مُسلمينَ وغيرِ

---

(١) محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، ٥٩/٢١ .

(٢) محمد البهي : الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم ، ص٤٥٤ .

(٣) محمد ناصر الدّين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم الحديث « ٤٥ » ٧٥/١ . ورواه البخاري في « الأدب المفرد » تحت رقم « ٢٧٣ » ، ورواه أحمد في مسنده ، برقم ٣١٨/٢ .

مُسلمينَ ؛ لأنَّ الإسلامَ دينُ الحياةِ ، فكما دعانا الله تعالى إلى توحيدِهِ ، وتعظيمِهِ وعبادتِهِ ، دعانا أيضاً إلى مكارمِ الأخلاقِ ، ونبذِ مساوئِها .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤) .

بالإيمانِ تنتظمُ جميعُ أُمورِ الحياةِ وِفقَ أوامرِ اللهِ تعالى ، ويتعاملُ المؤمنُ معَ عبادِ الله جميعاً من خلالِ عقيدتِهِ ؛ لأنّ الوازعَ الدّينيَّ يُنظِّمُ ويضبطُ السُّلوكَ الإنسانيَّ ، ويدعمُ الأخلاقَ الفاضلةَ . إنَّ الإسلامَ (هو دينُ اللهِ ، وإنَّ القُرآنَ كتابُ اللهِ ، وإنَّ مُحمَّداً رسولُ اللهِ ، وخاتمُ الأنبياءِ والمُرسلينَ . للنّاسِ [جميعاً أُرسِلَ ، عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ] ، إلى أنْ يُبعثُوا مِنْ هذهِ الأرضِ يومَ الجزاءِ ، إلى الدّارِ الآخرةِ ولو كَرِهَ الكافرونَ ، ويُسيءِ المؤمنونَ فَهْمَ صِلَتِهِم باللهِ تعالى ، إنْ هُم اعتقدوا : أنّ دينَ اللهِ ـ وهو الإسلامُ ـ شيءٌ مُنفصِلٌ عن حياةِ الإنسان)[1] .

يكتسِبُ المؤمنُ إذاً صِفةَ التّوازُنِ والاعتدالِ ، نتيجةَ ثباتِهِ في تطبيقِ أركانِ إيمانِهِ ، فلا إفراطَ ولا تفريطَ في حياتِهِ ، فهو لا يُهزَمُ في عقيدتِهِ باللهِ تعالى ، أمامَ أحداثِ الحياةِ المادّيَّةِ ، القائمةِ على الشّهواتِ والأهواءِ ، أوِ الإغراءاتِ والنّزواتِ ، لكنْ يبقى مُحافظاً على أنماطِ سُلوكِهِ الإنسانيِّ المُهذَّبِ ؛ لأنَّ غايتَهُ أنْ يَلقى ربَّهُ وقد حقّقَ ما طلبَهُ الإيمانُ منهُ ، في مُحيطِ نفسِهِ وأُمّتِهِ . (إنَّ الإنسانَ في العقيدةِ الإسلاميَّةِ كريمٌ ، يحتلُّ المكانةَ الأولى في هذا الكَونِ ، فقدْ سخَّرَ اللهُ لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، . . . ومِنَ اللّحظةِ الأُولى التي أُعلِنَ فيها ميلادُ الإنسانِ ، أُمِرَ الملائكةُ بالسُّجودِ لَهُ ، إيذاناً بكرامَتِهِ عندَ اللهِ تعالى ، إذاً لا بُدَّ أنْ يكونَ لَهُ دورٌ كبيرٌ ، [فهو خليفةُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى في الأرضِ ، يَعمُرُها وِفقَ مشيئةِ اللهِ تعالى ، طاعةً وعبادةً لَهُ] . . . لا بُدَّ أنْ تكونَ خلافةُ

---

(١) محمد البهي : الدّين والدولة من توجيه القرآن ، ص٤٥٤ .

الأرضِ وعِمارتُها ، جُزءاً مِنَ العبادةِ ، فالعبادةُ تشمَلُ كُلَّ جوانبِ الحياةِ ، . . .
هذا مَعَ صِدْقِ النِّيَّةِ وإخلاصِها وتجرُّدِها لله سُبحانَهُ ، . . . فإنَّ قيمةَ الأعمالِ في العقيدةِ الإسلاميّةِ مُستمدَّةٌ مِنْ بواعِثِها لا مِنْ نتائِجِها ؛ لأنَّ النتائجَ بيدِ اللهِ تَعالى ، ولأنَّ جزاءَ الإنسانِ لا يتوقَّفُ على نتائجِها ، بل الجزاءُ مِنَ النِّيَّةِ في عَمَلِها ، . . .
ومِنْ أجلِ هذا : فإنَّ الغايةَ لا تُبرِّرُ الواسطةَ [أو الوسيلةَ] [(١)] في العقيدةِ الإسلاميّةِ ، فلا يُمكِنُ أنْ يستعمِلَ المُسلِمُ ولا يجوزُ لَهُ استعمالُ الوسائلَ الخسيسَةَ ، لتحقيقِ غايةٍ كريمة) [(٢)].

إنَّ الإنسانَ المُسلمَ صاحبُ العقيدةِ الإيمانيّةِ ، والذي يُسخَّرُ لَهُ السمواتُ والأرضُ وما فيهنَّ ، لهُوَ أثمنُ وأغلى عندَ اللهِ تعالى مِنهُما ، قالَ اللهُ تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ٢٠-٢٢).

عرضَ اللهُ تعالى : الدّليلَ الكونيَّ ـ من خلالِ الآياتِ الكريماتِ ـ وجعلَهُ مُرتبطاً بالنّاسِ ، مُتَلَبِّساً بمصالحِهِم وحياتِهِم ووسائلِ معاشِهِم ، مُتعلِّقاً بِنِعَمِ اللهِ

---

(١) الغايةُ تبرِّرُ الوسيلةَ : مبدأٌ يُنسبُ إلى «نيكولو ماكيافلّي» «١٤٦٩-١٥٢٧م» ، سياسيٌّ وأديبٌ وفيلسوفٌ إيطاليٌّ ، تولّى مُهمّاتٍ دبلوماسيّةً . اشتُهرَ بكتابهِ «الأمير» ، عَرَضَ فيهِ مذْهبَهُ السِّياسيَّ في الحُكْمِ . ودعا إلى نظامٍ جديدٍ حُرٍّ دينياً وأخلاقياً . تُنسبُ إليهِ «الماكيافليّة» التي أصبحتْ مُرادفةً للدّهاءِ السِّياسيِّ والمكرِ والخداعِ ، ولَهُ مقالَةٌ في فَنِّ الحربِ . انظر ، قسطنطين تيودوري : المنجد في اللغة والأعلام ، ص٨٨.

(٢) عبد الله عزّام : العقيدة وأثرها في بناء الجيل ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، لا . ط، ١٩٧٩م ، ص٤٨-٥١ .

تعالى عليهم ، الظّاهرةِ المرئيّةِ : كنعمةِ الصِّحّةِ والسّمعِ والبصَر . والباطنَةِ الخفيَّةِ : كالقلبِ والعقلِ والفَهمِ والمعرفةِ وغيرِها . تلكَ النِّعَمُ التي يستمتِعونَ بها ، وبالرَّغمِ مِنْ ذلكَ ينبري الماديُّونَ المُلحِدونَ الوثنيُّونَ ، ليُجادلوا في اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، المُنعمِ الوهّابِ المُتَفضِّلِ عليهِم .

أَلَمْ تَعلموا أيُها النّاسُ المُجادِلونَ بالباطِلِ ، أنَّ اللهَ العظيمَ الجليلَ ، سخَّرَ لَكُمْ ما في السّمواتِ ، مِنْ شمسٍ وقمرٍ ونُجومٍ ، مِنْ أجلِ أنْ تنتفِعُوا بها ، وسخَّرَ لكُمْ ما في الأرضِ مِنْ جبالٍ وأشجارٍ وثِمارٍ وأنهارٍ وغيرِ ذلكَ ممّا لا يُحصى عددُهُ؟! .

هذهِ الآياتُ المكيَّةُ أُنْموذَجٌ مِنْ نماذجِ الطَّريقةِ القُرآنيَّةِ ، في مُخاطَبَةِ القلبِ البشريِّ ، فهيَ تُعالِجُ قضيَّةَ العقيدَةِ في نفوسِ المُشركينَ ، الذينَ انحرفُوا عنْ تلكَ الحقيقةِ . فأخذوا يُجادلُونَ بالذّاتِ الإلهيَّةِ (وتبدو هذهِ المُجادلَةُ مُستغربَةً مُستنكَرةً ، في ظلِّ ذلكَ البُرهانِ الكونيِّ ، وفي جِوارِ هذهِ النِّعمةِ السّابغَةِ . يبدو الجُحودُ والإنكارُ بَشِعاً شَنِيعاً قَبِيحاً ، تنفُرُ منه الفِطرَةُ [السّوِيَّةُ] ، . . . [وممّا يَزيدُ الموقِفَ استغراباً ، أنَّ الفريقَ المُجادِلَ] لا يَرْكَنُ في هذا الجدالِ إلى عِلْمٍ ، ولا يستَنِدُ إلى كتابٍ ، يُنيرُ لَهُ القضيَّةَ ، ويُقدِّمُ لَهُ الدّليلَ . [أمّا] سندُهُمُ الوحيدُ ودليلُهُمُ العجيبُ ، هو التّقليدُ الجامِدُ المُتَحجِّرُ ، الذي لا يقومُ على عِلْمٍ ولا يعتمِدُ على تفكيرٍ .

التّقليدُ الّذي [يُمارِسُونَهُ هُوَ ما] يُريدُ الإسلامُ أنْ يُحرِّرَهُم مِنهُ ؛ وأنْ يُطلِقَ عُقولَهُم لِتتدَبَّرَ . . . إنَّ الإسلامَ حركَةٌ في الشُّعورِ ، ومَنهجٌ جديدٌ للحياةِ ، طليقٌ مِنْ إسارِ التّقليدِ والجُمُودِ . ومعَ ذلكَ كانَ يأباهُ ، ذلكَ الفريقُ مِنَ النّاسِ . . . فهذا الموقِفُ إنّما هو دعْوةٌ مِنَ الشّيْطانِ لَهُم ، لينتهيَ بِهِم إلى عذابِ السّعيرِ . فهلْ هُم مُصِرُّونَ عليهِ ولو قادَهُم إلى ذلكَ المصيرِ [الشّيْطانيِّ]؟ . . . لمسَةٌ موقِظَةٌ ، ومؤثِّرٌ مُخيفٌ ، بعدَ ذلكَ : الدّليلُ الكونيُّ العظيمُ اللّطيفُ)(١) .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٦/٤٨٩-٤٩١ .

أمّا الفريقُ المؤمِنُ الّذي يُقبِلُ على طاعةِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، ويُخلِصُ قَصْدَهُ وعِبادَتَهُ لَهُ ـ فهو المُوحِّدُ المُوقِنُ المُقِرُّ بِنَعْماءِ ربِّهِ عليهِ ـ يكونُ بذلكَ قد تَمَسَّكَ بِحَبْلٍ لا ينقطِعُ أبداً ، إنّهُ الإسلامُ أوِ الاستسلامُ المُطْلَقُ للهِ تعالى ، فالانصياعُ لأوامرِهِ وتَكاليفِهِ وتوجيهاتِهِ ، مَعَ إحسانِ العَمَلِ والسُّلوكِ ، يؤدّي إلى الشُّعورِ بالثِّقَةِ والاطمئنانِ لِما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وحْدَهُ . وَهُوَ الّذِي إليهِ مَرْجِعُ ومصيرُ الأُمورِ كُلِّها ، فيُجازي العاملَ المُحسِنَ خيرَ الجزاءِ . فلا بُدَّ إذاً للمَرْءِ مِنَ الإيمانِ والإحسانِ ؛ لأنَّهُما يَحفظانِ للنَّفسِ البشَرِيَّةِ سكينَتَها ، ورَباطَةَ جأشِها في مُواجهةِ أحداثِ الدُّنيا والآخرةِ .

الضَّمانُ الوحيدُ لحُرِيَّةِ الإنسانِ الفرديَّـةِ إذاً هـو (الإيمـانُ بـاللهِ وحـدَهُ ، لأنَّـهُ سَيَحولُ بينَـهُ وبينَ الإيمانِ بسيادَةِ الإنسانِ على الإنســانِ ، أو بسيــادَةِ النِّظـامِ أوِ الحزبِ ، أو أيِّ موجودٍ آخرَ ، عدا اللهَ ، على الإنسان . [فالقضيَّـةُ إذاً هـي : مجموعةُ تناقُضاتٍ يتشبَّثُ بها أدعياءُ المادِّيَّـةِ] مِـنَ المُشـركينَ : وهُـمُ الوثنيُّـونَ المادِّيُّونَ ، المُعارِضُونَ لدينِ اللهِ تعالى ، وهُم بحُكمِ اتِّجاهِهِمُ الماديِّ ، لا يؤمنونَ بالآخرَةِ . والكُفرُ لا يكونُ إلاَّ مِـنْ نصيبِ المُتَخَلِّـفِ في إدراكِـهِ ، أوِالأنـانيِّ في سُلوكِهِ ، أوِ المادِّيِّ في تفكيرِهِ) [1].

حقيقةُ الوثنيَّةِ هيَ المُضادَّةُ للعقيدةِ ولجميعِ مظاهرِ التَّديُّنِ ، والمُحارِبَةُ للقيَمِ الإنسانيَّةِ ، ولا تختلِفُ نتائجُ الوثنيَّةِ عنْ نتائجِ الأنانيَّةِ ، بل الأنانيَّةُ هيَ مُقدِمَةُ الوثنيَّةِ الدّافعةِ إليها ، فإذا تمثَّلتْ بالأمسِ في عِبادَةِ حَجَرٍ أو صَنَمٍ ، فإنَّـها تتمثَّلُ اليومَ في عبادَةِ إنسانٍ أو نظامٍ مُعيَّنٍ ، لذا يُجمِلُ القُرآنُ الكريمُ أنواعَ التَّحدِّياتِ المادِّيَّةِ ، التي واجَهَ بها المُشركونَ رسولَ اللهِ مُحمّداً عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، فيقولُ اللهُ تعالى :

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص٣٨-٤١ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(الإسراء:٨٩-٩٣).

تعرضُ هذهِ الآياتُ المكيَّةُ بعضَ ادعاءاتِ المُشركينَ المكِّيِّينَ - وهُمُ الجاهليُّونَ الماديُّونَ - وتوضِّحُ أوهامَهُم وتشكيكَهُم في صلاحيَةِ القُرآنِ المجيدِ ، معَ أنَّهُ المُعجزَةُ الدَّالَّةُ على رسالةِ الإيمانِ والإسلامِ . وتُبيِّنُ عدمَ اعترافِهِمْ برسالةِ المُصطفى ﷺ ، بِحُجَّةِ أنَّهُ بشرٌ وليسَ مَلَكاً . كما أنكروا البعثَ واليومَ الآخِرَ ، عِلْماً أنَّها مِنْ أركانِ الإيمانِ ، التي أكَّدَ عليها الوحيُ القُرآنيُّ في أكثرِ من موقعٍ فيهِ . تُشيرُ الآياتُ أيضاً إلى شُحِّهِم وبُخلِهِم كظاهرَةٍ مِنْ ظواهِرِ الاتجاهِ الماديِّ ، لكنَّ تشكيكَ هؤلاءِ الماديِّينَ المكِّيِّينَ ، وكذلكَ أصحابِ الاتجاهِ الماديِّ في أيِّ عصْرٍ وفي أيِّ مكانٍ ، ينبغي أنْ يعلمُوا أنَّ (القُرآنَ الكريمَ لا يتوقَّفُ على دليلٍ أوْ حُجَّةٍ ، فالحُجَّةُ قائمةٌ والدَّليلُ واضحٌ ، على صِحَّةِ القُرآنِ في نسبتِهِ إلى اللهِ تعالى . القُرآنُ ذاتُهُ أتى بتوضيحاتٍ عِدَّةٍ ، أصبحَتْ مَثَلاً في وضُوحِها ، في دَعْوةِ الناسِ إلى الإيمانِ بهِ . معَ ذلكَ فأكثريَّةُ النّاسِ لا يُؤمنونَ بهِ . لأنَّ لَهُم مصالحَ خاصةً في عَدَمِ الإيمانِ بهِ ، أو لأنَّهُم واقعُونَ تحتَ إغراءاتٍ ماديَّةٍ ، أوْ تهديداتٍ وألوانَ عديدةٍ مِنَ الإرهابِ والتَّعذيبِ . في الوقتِ الَّذي يتشكَّكُ فيهِ [أولئكَ] وهؤلاءِ الماديُّونَ في صِحَّةِ [كتابِ اللهِ تعالى ووحيهِ على رسولِهِ ﷺ] وفي إعجازِهِ كدليلٍ على [صِدْقِ رسالتِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ] .

ويطلُبُونَ [أيضاً] إليهِ بديلاً عَنهُ : ماديّاً يرونَهُ ويُشاهِدونَهُ ، وهذا الطَّلبُ

مألوفٌ منَ الماديِّ في كُلِّ وقتٍ ؛ لأنَّ إيمانَهُ قاصرٌ على المحسوسِ وحدَهُ ، وهذا ما طلَبَهُ الماديُّونَ بمكَّةَ ، مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ)[1].

طلبَ كُفَّارُ قُريشٍ منَ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، أنْ يُفَجِّرَ لَهُم ينبوعاً منَ الماءِ ، أو يُنشأَ جنّةً مِنْ نخيلٍ وعنبٍ ، تتخلّلُها الأنهارُ في صحراءِ شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ ، أو يدعوَ ربَّهُ بأن يُسقِطَ عليهم عذابَهُ جزاءَ كُفرِهِم ، أو يدعوَ اللهَ والملائكةَ معَهُ للنُّزولِ حتى يرونَهُم ، أو يكونَ لَهُ بيتٌ مُتميِّزٌ ، ليسَ على غِرارِ بيوتِهِمْ في مكّةَ ، أو يصْعَدَ إلى السّماءِ للقاءِ ربِّهِ ، على أن ينزلَ بعدَ ذلكَ إلى الأرضِ ومعَهُ كتابٌ يشهَدُ بذلكَ .

أمّا طلبُهُم هذا إلى الرّسولِ عليهِ السلامُ : أن يأتيَ لَهُم بآياتٍ ماديّةٍ ، تدُلُّ على صِدْقِهِ في الرّسالَةِ بدلاً مِنَ القُرآنِ ، لم يكُنْ إلاّ تحدّياً ، وليسَ صادراً عنِ افتقارِهِم إلى حُجّةٍ . أوحى اللهُ تعالى إلى رسولِهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ بأنْ يكونَ ردُّهُ عليهِم : أنَّهُ بشرٌ ويتميَّزُ بالرِّسالةِ فقط ، وتميُّزُهُ هذا لا يُعطيهِ طاقةً ، فوقَ طاقةِ الآخرينَ مِنْ بني الإنسانِ ، إلاّ بما يُوحَى إليهِ مِنْ ربِّهِ سُبحانَهُ وتعالى .

تدُلُّ طلباتُ المُشركينَ الماديَّةُ هُنا على العقليّةِ الماديَّةِ ، التي يُمكِنُ أنْ تكشِفَ عن عقليّةِ الطُّفولَةِ البشريَّةِ في الإدراكِ ، وهيَ عقليَّةٌ تقِفُ عِندَ الحسِّ والشّاهِدِ والمُشاهَدِ ، وتتأثّرُ في الحُكمِ على العقيدةِ وما يلحَقُ بها مِنْ مبادئِ الإيمانِ ، عندَ المحسوسِ الذي يُرى بالعينِ المُجرَّدَةِ فحسْبُ .

يُعتبَرُ هذا الطّرحُ الماديُّ خطأً في التّصوُّرِ والاعتقادِ ، أوْ هو (ظاهرةُ جُمودٍ في التطوُّرِ العقليِّ . بدليلِ : أنَّ الذي يقِفُ بتفكيرِهِ عندَ الحسِّ أو عِندَ الأمرِ الماديِّ ، قد يعتقِدُ في الوهْمِ والخِداعِ ، على أنَّ أيّاً منهُما : حقيقةٌ واقعةٌ . . . . [وهذا الاعتقادُ في حدِّ ذاتِهِ] ظاهرةٌ تُشيرُ إلى : التأخُرِ والتّخلّفِ أو إلى الجُمُودِ

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم «تفسير سورة الإسراء» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

في التّطوّرِ العقليّ ، وبالتّالي إلى وجودِ الطّفولةِ البشريّةِ في الإدراكِ . [وهيَ] مرَضٌ في تطوُّر الإنسان ، شأنُها شأنُ أيّ مرضٍ آخَرَ ، يُعجِزُ الإنسانَ عن حركَةِ البدَنِ أوِ اللّسانِ ، أو يُعْجِزُ أيَّ عُضوٍ مِنْ أعضاءِ الجسمِ ، ويمنعُ مُباشرَتَه لمُهمَّتِهِ الخاصّةِ .

الطُّفولةُ البشريّةُ في الإدراكِ تُوجَدُ أينما تُوجَدُ الأنانيّةُ ، والطِّفلُ الصَّغيرُ أنانيٌّ بِحُكْمِ مراحلِ تطوُّرِهِ . [أمّا] الإنسانُ البالِغُ صاحِبُ الطُّفولةِ البشريّةِ في الإدراكِ : هو أنانيٌّ أيضاً ، بِحُكْمِ وقوفِ تطوُّرِهِ عندَ مرحلَةِ الحِسّ وحْدَهُ . لذا فالمُجتمعُ الإنسانيُّ لا يخلُو مِنْ أنانيٍّ ماديٍّ في الإيمانِ ، ولا يخلُو مِنْ مُشركٍ أو وثنيٍّ)[1] .

الكُفرُ موجودٌ وسيظلُّ موجوداً ، والذي ينتظِرُ زوالَ الطُّفولةِ البشريّةِ في الإدراكِ مِنَ المُجتمَعِ الإنسانيِّ ، هُوَ أشبَهُ بِمَنْ ينتظِرُ زوالَ الفقرِ أو المَرضِ ، إلى غيرِ عَودةٍ للوجودِ ، أو زوالِ الأنانيّةِ والانتهازيّةِ والنِّفاقِ والجُبنِ ، إلى ما هُنالكَ مِنَ الصِّفاتِ التي يدُلُّ زوالُها على السّلامةِ التّامّةِ ، والكمالِ البشريِّ في الإنسانيّةِ كُلِّها . لا تخلُو الحياةُ الدُّنيا ـ والحالُ هكذا ـ مِنْ مؤمِنٍ وكافرٍ ، ومُوالٍ ومُعارِضٍ ، وموحِّدٍ ومُلْحِدٍ . يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (الحج:٥٥).

ويقولُ سُبحانَهُ وتعالى أيضاً :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:٩٩،١٠٠).

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

يعيشُ الكافرُ ـ بلا أدنى شَكٍّ ـ حياتَهُ تِجاهَ كتابِ اللهِ تعالى: في رِيبَةٍ وتردُّدٍ، فيتساءلُ: هلْ هُوَ حقٌّ؟ أفي اتّباعِهِ نفعٌ وفائدَةٌ؟ وتستمرُّ هذهِ المِريَةُ وهذا الشَّكُّ، بأولئكَ الأشقياءِ قُساةِ القُلوبِ، أصحابِ الشُّقاقِ البعيدِ، حتّى تأتيَهُمُ القيامةُ فَجأةً ولا ينفعُ عندها النّدمُ. لكنْ مِنْ مَظاهرِ رحمةِ اللهِ تعالى بالعبادِ، دعوتُهُ سُبحانَهُ إيّاهُم إلى الإيمانِ بهِ، وحضُّهُم على ذلكَ عن طريقِ رُسُلِهِ عليهمُ السلامُ. ثُمَّ يُعرَضُ لَهُمُ الإيمانُ عَرْضاً لا إجبارَ مَعَهُ، فَمَنْ آمَنَ نَجا، ومَنْ لمْ يؤمِنْ هَلَكَ؛ لأنّهُ لا يَعقِلُ، إذْ لو عَقِلَ لَما كذَّبَ ربَّهُ، وكَفَرَ بهِ وعَصاهُ وتَمرَّدَ عليهِ، وهوَ خالِقُهُ ومالِكُ أمْرِهِ.

تُوجِّهُ الآياتُ الكريمةُ أيضاً، إلى أنَّ مُحيطَ المشيئةِ الإلهيّةِ، أوسعُ مِنَ الواقعِ في حياةِ البشريّةِ، وكأنّها تُشيرُ إلى أنَّ الواقِعَ تَحكُمُهُ خصائصُ الطّبائعِ، ومِنْ بينِ هذهِ الخصائِصِ في المُجتمعاتِ الإنسانيّةِ، تفاوُتُ النّاسِ في درجاتِ الإدراكِ، وفي مُستوياتِ السُّلوكِ.

لذا لا يكونُ النّاسُ جميعاً مؤمنينَ باللهِ سُبحانَهُ وتعالى، كما لا يكونونَ جميعاً كافرينَ بهِ. ولا كُلُّهُم كذلكَ أصحابُ روحٍ جماعيّةٍ في سُلوكِهِم، ولا يكونونَ أيضاً أنانيِّينَ في السُّلوكِ عامّةً. لأجلِ ذلكَ لا بُدَّ مِنَ التأكيد على أنَّ (شُمولَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى برحمَتِهِ فريقاً مِنَ النّاسِ. لا يعني سَلْبَ إرادَتِهِم فيما يتصفُونَ بهِ مِنْ صفاتٍ مُميِّزَةٍ لَهُم، كصفةِ الإيمانِ هُنا. فَهُم في إيمانِهِم لَهُم إرادةٌ وعمَلٌ، كما [لأولئكَ] الذينَ ظلموا أنفُسَهُم بالكُفرِ، عَمَلٌ وإرادةٌ في كُفرِهِم.... [لهذا] فالرّسولُ الدّاعي إلى الحقِّ، عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ: لا يستطيعُ ـ وليسَ مِنْ حقِّهِ كذلكَ أنْ ينتظِرَ ـ أنْ يحمِلَ جميعَ النّاسِ على الإيمانِ باللهِ تعالى، ولا أنْ يراهُم يوماً ما مؤمنينَ، لم يتخلَّفْ مِنهُم أحدٌ)[1].

---

(١) محمد البهي: الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم»، ص ٤١، ٤٢.

يستحيلُ على أحدٍ مِنَ النّاسِ ، أنْ يجمعَ الخلائقَ كُلَّهُم في أُمّةٍ واحدةٍ : هيَ أُمّةُ الإيمانِ أو أُمّةُ الكُفرِ . يعودُ هذا إلى اختلافِ وتنوّعِ خصائصِ طبائعِ الأفراد ، بل قد تكونُ الطّبائعُ مُتنافرةً ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩).

الإيمانُ هو اختيارُ مَنْ وفّقَ إليهِ بمحْضِ إرادتِهِ ، كما أنَّ الشّركَ والمادّيّةَ باختيارِ أتْباعِهِما . لكنْ ترتبِطُ بظاهرةِ الشّرْكِ هذهِ في اتّجاهِ المادّيِّ في الحياةِ : ظاهرةُ النّفرةِ مِنْ سَماعِ دعْوةِ الوحْدَةِ في الأُلوهيّةِ . إذْ هيَ دعوةٌ تحُولُ دونَ التّقلُّبِ في العبادَةِ ؛ ذلكَ لأنَّ الشِّرْكَ باللهِ تعالى ، لَهُ خَطَرٌ عظيمٌ على النَّفسِ البشريّةِ ، وعلى علاقاتِ الأفرادِ في المُجتَمَعِ الإنسانيِّ ، (فالنَّفسُ الإنسانيّةُ المُشركَةُ ، مِنْ شأنِها أنْ تنتَقِلَ في عبادَتِها مِنْ موجودٍ إلى آخَرَ ، حَسَبَ حاجتِها إلى تحصيلِ المنفعَةِ ، أوْ دَفْعِ الضَّرَرِ ، وخُلُقُها عندئذٍ هُوَ خُلُقُ المنفعيّةِ [المنفعَةِ] ، وخُلُقُ التّردُدِ في التّبعيّةِ والنِّفاقِ .

والعلاقاتُ بينَ الأفرادِ المُشركينَ : هيَ علاقاتُ الانقسامِ والتّوزيعِ على معبوداتٍ عديدةٍ . لذلكَ فإنَّ المُجتمَعَ المُشرِكَ مُجتمَعٌ ضعيفٌ ، فوقَ أنّهُ لا يعرِفُ مَصلحَةً عامَّةً لجميعِ أفرادِهِ . إنّما يَعرِفُ مصالحَ فرديّةً عديدةً ، حَسَبَ طوائِفِهِ أو طبقاتِهِ . على أنَّ الشّركَ باللهِ سُبحانَهُ وتعالى فوقَ هذا وذاكَ : يجعلُ مِنْ غيرِ الكاملِ - وهُوَ ما يُدْعى أنّهُ نِدٌّ وشريكٌ - مُساوِقاً للكاملِ ، ومُماثِلاً لَهُ ، وهُوَ اللهُ جلَّ جلالُهُ . وهذا مُنتهى الكَذِبِ والافتراءِ في مَنْطِقِ الإنسانِ ، وفي واقِعِ الوجودِ أيضاً ، لذا كانَ الشّركُ إثماً عظيماً ومعصيَةً كبيرةً)[١].

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم «تفسير سورة النساء»: مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص٧٠ ، ٧١ .

بينما تدعُو وحْدانيّةُ اللهِ تعالى إلى القيَمِ المثاليّةِ ، التي تسمُو وترتفعُ فوقَ المُتَعِ الحسيّةِ والأنانيّةِ . لاسيما أنَّ أهمَّ عنصُرٍ مِنْ عناصِرِ العقيدةِ الإسلاميّةِ ، هو التّوحيدُ وعدمُ الشّرْكِ ، وأنَّ اللهَ تعالى ، لا يغفِرُ ولا يتسامَحُ في إثمِ الشّرْكِ العظيمِ . يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٨).

الشّرْكُ هُوَ انقطاعٌ بينَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى وبين العبادِ ، فلا يبقَى لَهم معَهُ أملٌ في مغفرةٍ ، إذا خرجُوا مِنْ هذهِ الدُّنيا وهُم مُشركونَ ، مقطوعو الصّلةِ بربِّ العالمينَ . النّفسُ التي تقعُ في الشّرْكِ باللهِ تعالى ، إنّما تفعلُهُ وقدْ فَسَدَتْ فساداً لا رَجْعَةَ فيهِ ، وخالَفتْ فِطْرَتَها التي برأها اللهُ تعالى عليها ، وارتدَّتْ أسفلَ سافلينَ ، وتهيأتْ بذاتِها لحياةِ الجحيمِ .

رُبَّ سائلٍ مِنَ النّاسِ يقولُ : ما وظيفةُ العقلِ البشريِّ؟ وما دَوْرُهُ في قضيّةِ الإيمانِ والهُدى؟ وفي موضوعِ منهجِ الحياةِ ونظامِها؟

الجوابُ : إنَّ العقلَ دَورُهُ هُوَ : (أنْ يتلقَى عنِ الرِّسالَةِ . ووظيفتُهُ أنْ يفهمَ ما يتلقّاهُ عنِ الرّسولِ ﷺ ، ومُهمّةُ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ : أنْ يُبلّغَ ويُبيِّنَ ، ويَسْتَنقِذَ الفِطْرَةَ الإنسانيّةَ مِمّا [رانَ] عليها مِنَ الرُّكامِ . ثُمَّ يُنَبِّهَ العقلَ الإنسانيَّ إلى تَدَبُّرِ دلائلِ الهُدى ، ومُوحياتِ الإيمانِ في الأنْفُسِ والآفاقِ ، فَيرسُمَ لَهُ مَنهَجَ التّلقّي الصّحيحِ ، ومنهجَ النّظَرِ الصّحيحِ ، وأنْ يُقيمَ لَهُ القاعِدَةَ التي يَنهضُ عليها منهجُ الحياةِ العمليّةِ ، المؤدّي إلى خيرِ الدُّنيا والآخرَةِ . وليسَ دورُ العقلِ أن يكونَ حاكماً على الدِّينِ ومُقَرَّراتِهِ ، مِنْ حيثُ الصّحّةِ والبُطْلانِ ، والقَبولِ أوِ الرّفضِ ، بعدَ أنْ يتأكّدَ مِنْ صِحّةِ صُدورِها عنِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، وبعدَ أنْ يفهمَ المقصودَ بها) [1].

---

(١) عبد الكريم الخطيب : التفسير القرآني للقرآن ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لا . ط ، لا . ت ، ٨١٢/٢

لا غُفرانَ لِذَنْبِ المُشركِ ـ مَنْ ماتَ صاحبُهُ على الشِّرْكِ ـ بينما بابُ المغفِرَةِ مفتوحٌ لِكُلِّ ذَنْبٍ سِواهُ ، عندَ ما يشاءُ اللهُ تعالى . مصداقاً لقولِهِ سُبحانَهُ وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١١٦) .

السَّبَبُ في تعظيمِ جريمَةِ الشِّركِ ، وخُروجِها مِنْ دائرَةِ المغفرَةِ ؛ لأنَّ الَّذي يُشركُ باللهِ تعالى ، يخرجُ عنْ حُدودِ الخيرِ والصَّلاحِ تماماً ، وتفسُدُ كُلُّ فِطرتِهِ ، حيثُ لا تصلُحُ أبداً . تكشِفُ الآيةُ الكريمةُ : أنَّ المُشرِكَ باللهِ تعالى ، يُعبِّرُ في ادّعائِهِ الشِّركَ عن بُلوغِهِ في الضَّلالِ مبلَغاً بعيداً ، كما يُعبِّرُ عن وقوعِهِ تحتَ تأثيرِ الهوى ، واتِّباعِهِ لشيطانِ نفسِهِ ؛ لذا فمصيرُهُ نارُ جهنَّمَ ، إذْ إنَّ الشِّركَ أعظَمُ الجرائمِ . فالجزاءُ مِنْ جِنسِ العملِ .

أمّا مؤلفاتُهُ في التَّفسيرِ : فهيَ هامَّةٌ ومفيدةٌ من حيثُ التجديدُ والأصالةُ[1] جنباً إلى جنبٍ ، حيثُ اتّجَهَ «البهيُّ» في السنواتِ الأخيرةِ من عُمُرِهِ ، إلى التفسيرِ الموضوعيِّ للقرآنِ الكريمِ ، الذي يهدِفُ إلى إظهارِ روعةِ القُرآنِ ، ويكشِفُ مراميَهُ الدقيقةَ ، وغاياتِهِ السّاميَةَ ، فَكُسيَ التَّفسيرُ ثوباً أدبيّاً اجتماعيّاً موضوعيّاً ، علماً أنَّهُ رجلٌ قُرآنيٌّ[2] ، يعتقدُ أنَّ الذي يتغيرُ هو ما حولَ القرآنِ ، من فَهمِ النّاسِ وآرائِهِم ونظَراتِهِمُ المُختلفةِ ، (وقد يقتربونَ منهُ ، ولهُم نوايا طيّبةٌ ،

---

(١) التّجديدُ والأصالَةُ : الجِدَّةُ : هيَ مصدرُ الجديد ، وأجَدَّهُ وجَدَّدَهُ واستَجَدَّهُ أي ، صَيَّرَهُ جديداً ، والجِدَّةُ : نقيضُ البِلى ؛ يُقالُ : شيءٌ جديدٌ . الأصالَةُ : أَصَلَ الشيءِ : قَتَلَهُ عِلماً فعَرَفَ أصْلَهُ ، ومجدٌ أصيلٌ اي : ذو أصالَةٍ ، وإنّهُ لأصيلُ الرأيِ والعقلِ . انظر ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور «٦٣٠-٧١١هـ» : لسان العرب ، ١، ١٥٥/٢ ، ٢٠١-٢٠٢ .

(٢) رجلٌ قرآنيٌّ : لأنَّ «البهيَّ» اعتنى بحفظ القرآن وفهمه وتفسيره ، والاستشهاد به في جميع ألوان كتابته المتنوعة ، ولهُ مؤلفات في علوم القرآن الكريم مثل : نحو القرآن ، القرآن والتفسير الموضوعي ، سلسلة التفسير الموضوعي للسور المكية ، «جزء عمَّ». انظر ، محمد البهي : مؤلفات البهي . ص ٢٠٢ .

وقد تكونُ لهم أغراضٌ لا إنسانيّةَ [منَ القرآنِ] ، أو لَهُم تصوّراتٌ مُنبثقةٌ عنْ حُسنِ تقدير ، ولكنّها تُخرجهُ عن دائرةِ رسالتِهِ ، أوْ لَهُم آراءٌ سيئةٌ مُبيّتةٌ)[1].

الحقيقةُ أنَّ العلماءَ الأوائلَ ، بذلوا جَهداً كبيراً في تفسيرِ كتابِ الله تعالى ، والكشفِ عن معانيهِ ومراميهِ ، إذ إنّهم نظروا إلى القرآنِ باعتبارهِ دستورهِم ، الذي جمعَ لهُم بينَ سعادتّي الدُّنيا والآخرةِ ، فتناولوهُ من أوّلِ نزولِهِ بدراستِهِمُ التّفسيريّةِ التّحليليّةِ ، دراسةً سارتْ معَ الزّمَنِ على تدرُّجٍ ملحوظٍ ، وتلوُّنٍ بألوانَ مُختلفةٍ .

فالباحِثُ المُدقّقُ في أعمالِ المُفسرينَ الأقدمينَ ، يجدُ اهتمامَهُم في البحثِ والتّحقيقِ ، والدّراسةِ والتدقيقِ ، لا سيما في النّواحي : اللُّغويّةِ ، والبلاغيّةِ ، والأدبيَّةِ ، والفقهيَّةِ ، والنَّحْويَّةِ ، والمذهبيَّةِ ، والنّاحيةِ الكونيَّةِ الفلسفيَّةِ ، (كلُّ هذهِ النّواحي وغيرِها ، تناولَها المُفسّرونَ الأولُ بتوسُّعٍ ملموسٍ ، لم يُتركْ لمنْ جاءَ بعدَهُم ـ إلى ما قبلَ العصرِ الحديثِ بقليلٍ ـ من عملٍ جديدٍ ، أو أثرٍ مُبتكَرٍ ، يقومونَ بهِ في تفاسيرِهِمُ التي ألفوها ، اللّهُمَّ إلاَّ عملاً ضئيلاً ، لا يعدو أنْ يكونَ جمعاً لأقوالِ المُتقدِّمينَ ، أو شرحاً [للغامِض فيها] ، أو نقداً وتفنيداً لما يَعتورهُ الضّعفُ منها ، أو ترجيحاً لرأيٍ على رأيٍ ، ممّا جعلَ التّفسيرَ يقفُ وقفةً مليئةً بالرُّكودِ ، خاليةً من التّجديدِ والابتكارِ)[2]. بقيَ التفسيرُ واقفاً عند مرحلةِ الرُّكودِ والجُمودِ ، لا يتعداها ولا يُحاولُ التّخلُّصَ منها ، حتّى جاءَ عصرُ النّهضةِ العلميّةِ الحديثةِ ، فاتّجهتْ أنظارُ العُلماءِ الّذينَ لهُم عنايةٌ بدراسةِ التفسيرِ ، إلى أن يتحرّروا من قيدِ هذا الرُّكودِ ، ويتخلّصوا من نِطاقِ هذا الجُمودِ ، فنظروا في كتابِ اللهِ نظرةً ، وإن كانت تعتمدُ على ما دوّنهُ الأوائلُ ، إلاّ أنّها أثّرتْ في الاتّجاهِ التّفسيريِّ للقرآنِ ، تأثيراً لا ينبغي إنكارهُ ، ويكمُنُ هذا في التّخلُّصِ من الاستطراداتِ العلميّةِ ، التي حُشِرتْ في التّفسيرِ حشراً

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٦م ، ص٣ .
(٢) محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٨م ، ٤٩٥/٢ .

(ومُزِجَتْ بِهِ على غيرِ ضرورةٍ لازمةٍ ، والعملِ على تنقيةِ التّفسيرِ من القَصَصِ الإسرائيليّ ، الّذي كانَ يذهبُ بجمالِ القرآنِ وجَلالِهِ ، وتَمحيصِ ما جاءَ فيهِ من الأحاديثِ الضّعيفةِ ، أو الموضوعةِ على رسول اللهِ ﷺ ، . . . وكانَ ذلكَ مِنْ أجلِ أن يعرفَ المسلمونَ وغيرُ المُسلمينَ ، أنَّ القرآنَ هو كتابُ اللهِ الخالدُ ، الذي يتمشّى معَ الزّمنِ في جميعِ أطوارِهِ ومراحلِهِ) [1]. ظهرتْ إذاً في هذا العصرِ الحديثِ ، أيْ في بدايةِ القرنِ التاسعَ عَشَرَ الميلاديِّ ، اتجاهاتٌ في التّفسيرِ ـ نشأتْ عن عواملَ مُختلفةٍ ، أهمُّها : التّوسُّعُ العلميُّ ، وانتشارُ الثّقافةِ ، وازدهارُ الحضارةِ ـ كان في مُقدمتها : التّفسيرُ العلميُّ [2]، التّفسيرُ الأدبيُّ الاجتماعيُّ [3]، والتّفسيرُ الموضوعيُّ [4].

---

(١) أحمد جمال العمري : دراسات في التفسير الموضوعي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ ، ص٥٤،٥٥ .

(٢) التفسير العلمي : ظهر هذا النّوع من التفسير في العصر الحديث ، ويهدفُ إلى التّوفيق بجدٍّ بالغ ، وجهدٍ ظاهر ، بين القرآن ، وما جدَّ من نظرياتٍ علميّةٍ صحيحةٍ ، ومن الأمثلة في ذلك : كتاب الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن ، إلى اللغات الأجنبية ، للشيخ «محمد فريد وجدي» انظر ، محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ، ص٢٣ . وانظر ، محمد مصطفى المراغي : بحث في ترجمة القرآن الكريم وأحكامها ، مطبعة الرغائب ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، ص٣٣ .

(٣) التفسير الأدبي الاجتماعي : أ : الجزء الأدبي من التفسير : هو ذلك التفسير الذي تظهر فيه ذاتيّة المفسّر ، وشخصيّته ، وملكته الأدبيّة ، وقدرته على بلورة الأفكار ، وتقديم التّصورات الممكنة ، والمحتملة ، والجائزة ، في غلاف شفاف من الأسلوب الأدبي المؤثر ، ومن الأمثلة على هذا اللون من التفسير : كتاب «في إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة» للكاتب «مصطفى صادق الرافعي» . ب : الجزء الاجتماعي من التفسير : ويرمي إلى النّهوض في المجتمع ، بتوثيق [عرى التعاون والتكافل] بين أفراده ، مع تقديم كل الأسباب كي يتحقق الكمال الفكري ، والرّوحي ، والاجتماعي ، الذي يطمح إليهِ الإنسان الممتاز ، ومن أمثلة ذلك تفسير جزء عمّ «للشيخ محمدِ عبده» حيث عرض فيه النهوض في المجتمع ، بأسلوب أدبي ناصع ، وبتحليلٍ علميٍّ دقيق ، في فهم معاني القرآن ، باستخدام الفكر الحرّ . انظر ، مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٣٥٩هـ ، ص٩٧ .

(٤) التفسيرُ الموضوعيُّ : هو لون من ألوان التفسير ، في العصر الحديث ، يعمدُ فيه الباحث والنّاظرُ في القرآن ، إلى الآيات التي تتصلُ بموضوعٍ واحدٍ ، فيجمعها--

بدأ هذا اللّونُ مِنَ التّفسيرِ الموضوعيِّ ، على وجهِ التّقريبِ في نهايةِ القرنِ التاسعَ عشرَ الميلاديِّ ، مُقترناً ومُمتزجاً بالتّفسير الأدبي ، بجهود عالِمٍ جليلٍ[1] ، الذي عرضَ تفسيراً دقيقاً للجزءِ الثّلاثينَ من القرآنِ الكريمِ « جزءِ عمَّ » . أخلاهُ من كلِّ الشوائبِ العقَديّةِ والإسرائيليّةِ ، واستخدمَ الفِكرَ الحُرَّ ، في فهمِ معاني القرآنِ ، بعيداً عن البدعِ والخُرافاتِ ، داعياً إلى الرُّقيِّ الرُّوحيِّ ، بتهذيبٍ خُلُقيٍّ قويمٍ . والنُّهوضِ بالمجتمعِ ، عن طريقِ التّعاونِ والتّكافُلِ ، في أُسلوبٍ أدبيٍّ ناصعٍ ، وبتحليلٍ علميٍّ دقيقٍ . (فكان هذا التفسيرُ نبراساً هادياً لكلِّ مَنْ تصدّى لتفسيرِ القرآنِ تفسيراً موضوعياً ، استناداً إلى القرآنِ جميعِهِ ، واعتماداً على الآياتِ القُرآنيّةِ ذاتِها ، والأحاديثِ النّبويّةِ الصّحيحةِ ، وأقوالِ صحابةِ رسولِ اللهِ عليه السّلامُ ، وتابعيهِم ، وما جاءَ في المصادرِ المختلفةِ مُتّصِلاً بمناسباتِ النُّزولِ ، وقدْ سارَ على هذا النّهجِ [في العصرِ الحديثِ] علماءُ[2] كثيرونَ)[3] .

لكنَّهُ عندما يقتربُ المؤمنُ مِنَ القُرآنِ الكريمِ ، يستلهِمُ أحكامَهُ وتعليماتِهِ وقوانينَهُ وإرشاداتِهِ ، طاعةً للهِ تعالى وعبادةً لَهُ ، فيكونُ بذلك مُستلهِماً الرأيَ منهُ ،

--ويجعلها نصب عينيه ، ويجيل الفكر في جوانبها ، وبهذا يستكشف القارئ للقرآن هدايتَه ، ويبرز للناس من مواضع القرآن ، ما جاء به لأداء مهمّته ورسالته . انظر ، أحمد السيد الكومي : التفسير الموضوعي ، دار الهدى ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٨٠م ، ص . ١٣ .

(١) العالمُ الجليلُ : هو الإمام الشيخ « محمد عبده» . انظر ، محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ، ص٤٩٥ .

(٢) من هؤلاءِ العلماءِ الذين أسهموا بالتفسير الموضوعيِّ : الشيخ «أمين الخولي» ، الدكتورة «عائشة عبد الرحمن» بنت الشاطئ ، الشيخ «محمود شلتوت» ، الدكتور «شوقي ضيف» ، الشيخ «سيد قطب» ، الدكتور «محمد خلف الله أحمد» ، الدكتور «محمد محمود حجازي» ، الدكتور «محمد البهي» ، الشيخ «محمد الغزالي» ، الشيخ «أبو بكر الجزائري» . انظر ، أحمد جمال العمري : دراسات في التفسير الموضوعي ، ص٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، نفسه .

طالباً الحُجيّةَ في ضوءِ إعجازِهِ ، فقد قيلَ الكثيرُ عن إعجازِ القرآن ، ولكنْ لم يُقلْ كثيراً عن إعجازهِ في موضوعيّةِ التّوجيهِ ، والرّبطِ بينها وبين الحضارةِ الإنسانيّةِ ، هذا ما كان يحرصُ عليهِ «البهيُّ» في تفسيرهِ ، إذ تراهُ يُخالِفُ التفاسيرَ التقليديّةَ ، التي تبدأُ بترتيب السُّورِ القُرآنيةِ كما وردتْ في المُصحفِ الشّريفِ ، لذلكَ بدأَ بالسُّورِ المكيّةِ ، من مُنطلقِ أنَّ القرآنَ المكيَّ يُمثِّلُ عقيدةَ المُسلمِ . والعقيدةُ هيَ الأساسُ في بناءِ أيِّ مُجتمعٍ ، فإذا كانَ الأساسُ راسخاً قويّاً ، ارتفعَ البناءُ شامخاً عالياً ، أمّا إذا كان واهناً ضعيفاً ، فإنَّ طبيعةَ الحياةِ تدعو إلى إزالةِ القديمِ المُتهاوي ، وإقامةِ الشّامخِ على أنقاضِهِ ، ولمّا كان التّوحيدُ هو أساسُ دعوةِ القرآنِ (فقد تصدّى لَهُ مجتمعُ الجاهليّةِ الماديُّ . . بعدَ أنْ أدركَ أنّ الدّعوةَ إلى توحيدِ الأُلوهيّةِ ، تعني الدّعوةَ إلى المُساواةِ التّامّةِ ، بينَ البشرِ جميعاً ، . . . لا تمايُزَ بينهم بسببِ أوضاعٍ طبقيّةٍ ، أو عُنصريّةٍ أو ماديّةٍ أو اجتماعيّةٍ) [1].

لِهَذا جَعَلَ «البهيُّ» عبارةَ : «القرآنُ في مواجهةِ الماديّةِ» عنواناً في تفسيرهِ للسُّورِ المكيّةِ ؛ لأنَّ المُجتمعَ الماديَّ يقومُ على تفاوتِ الطّبقاتِ فيهِ ، ويكتسبُ وجودَهُ من العصبيّةِ العائليّةِ ، فالمجتمعُ الجاهليُّ ، يقفُ دائماً في وجهِ وحدةِ الأُلوهيّةِ ، من مُنطلَقِ المصلحَةِ الماديّةِ . وكان يريدُ في ترتيبهِ للتفسيرِ أن يُقسِّمَ القرآنَ المدنيَّ إلى قسمينِ هما :

١- القرآنُ في بناءِ المُجتمَعِ .

٢- القرآنُ في تنظيمِ المُجتمَعِ .

لأنَّ المجتمعَ في المدينةِ المنوّرةِ بعد القضاءِ على المُجتمعِ الماديِّ الجاهليِّ، كانَ في أشدِّ الحاجةِ إلى أُسُسٍ جديدةٍ لبنائِهِ وتنظيمِهِ ، لذا جاء القرآنُ المدنيُّ مُنصبّاً على هاتينِ النّاحيتينِ . قدّمَ «البهيُّ» مِنَ التّفسيرِ الموضُوعيِّ للقرآنِ

---

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأُستاذ . ووزير ، ص١٠،١١ .

الكريمِ ، تفسيراً لثلاثٍ وعشرينَ سورةً مكيّةً ، بالإضافةِ إلى جُزءِ عمَّ ، اهتمَّ فيهِ على تقديمِ المعنى ، إلى ذهنِ القارئ ، من أقربِ الطُرُقِ وأيسرِها ، مُتحاشياً المتاهاتِ التي حَفلَت بها غالبيّةُ التفاسيرِ التّقليديّةِ الأُخرى ، نابذاً الإسرائيليّاتِ التي كانت مجالاً خصباً لتلكَ المتاهاتِ ، فإذا كان المُتقدّمونَ من عُلماءِ الإسلامِ (خدموا القرآنَ بتفسيرِ معاني كلماتِهِ وآياتِهِ ، وبيانِ موقعِها في فصاحةِ العربِ : في الأسلوبِ ، والتّراكيبِ ، والإعجازِ . . . واستخلاصِ الأحكامِ الفقهيّةِ منها . . . والاستدلالِ بها على بعضِ الآراءِ والاتجاهاتِ ، في العقيدةِ والمذاهبِ الكلاميّةِ[1]، للطّوائفِ المُختلفةِ . . . فإنَّ ذلكَ لم يكنِ الطريقُ الأفضلُ ، الذي يُشيرُ إلى القيمةِ الدِّينيّةِ الحقيقيّةِ للقُرآنِ ، كدليلٍ صادقٍ على رسالةِ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، فكانَ أشبهَ بتوضيحٍ مُفكّكٍ للهدايةِ الإلهيَّةِ . وربما كان التفسيرُ الموضوعيُّ ، أو استخلاصُ جوانبِ هذه الهدايةِ ، بحيثُ تُحدِّدُ أهدافَ الرِّسالةِ . إذ هيَ السبيلُ الأيسرُ للإيمانِ بمستواها الرّفيعِ ، الذي يعجزُ عنهُ البشرُ ، [ولكنّ أهميّةَ] التّفسيرِ الموضوعيِّ ، لم تحظَ [لدى المُفسرينَ السّابقينَ] بمثلِ ما حظيَ عندَهُم : وقوفُهُم [على معاني] الآياتِ . . . والعنايةِ بتراكيبِها ... وارتباطِ اللاحقِ منها بالسّابقِ .

---

(١) المذاهب الكلامية : المذهب : الطريقة والمعتقد الذي يُذهبُ إليهِ ، جمع : مذاهب ، وهي مجموعة مِن الآراء والنّظريات العلميّة والفلسفيّة ، ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحَدةً مُنسّقةً . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٢٤٧ . والمتكلمون : أي المعتزلة : يقدمون قضايا عقليّة ، قبل النّظرِ في الآيات القرآنيّة . انظر ، محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٩٦م ، ص ١٩١ . ومن أصحاب المذاهب الكلامية المتطرفة : مذاهب الشيعة والجهميّة والمعتزلة ، ولعلَّ التطرُّفَ الذي بلغته بعض المذاهب الكلامية ، [لاسيما القول] بخلق القرآن ، والمحكم والمتشابه ، وآيات الصفات وغيرها ، حتى رمى بعضهم بعضاً بالكفر والإلحاد والزندقة ، جعل التفسير الكلامي مرفوضاً ، من قبل الكثير من المسلمين عامّةً وخاصّةً . انظر ، كامل موسى وعلي دحروج : كيف نفهم القرآن ، دار بيروت المحروسة ، بيروت ، لا . ط ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، ص٢٣٥ .

التفسيرُ الموضوعيُّ ليس تفسيرَ جملةٍ من الآياتِ ، ولا استخلاصَ مضمونِها في وحدةٍ قرآنيّةٍ واحدةٍ ، وإنّما هو استخلاصُ مضمونِ الكتابِ ككُلٍّ ، من نظرةٍ موضوعيّةٍ شاملةٍ ، . . . أو استخلاصُ موضوعٍ مُحدّدٍ ، كمنهجِ القرآنِ في تطويرِ المجتمعِ . أو موقفُ القُرآنِ من الماديّةِ مرّةً أُخرى ، أو استخلاصُ هدفِ السُّورةِ الواحدةِ وما عُنِيَتْ بإبرازِهِ في إطارِ السُّورةِ كُلِّها ، مرّةً ثالثةً)[1].

يمتازُ القرآنُ العظيمُ بأنّهُ حينما يعرِضُ موضوعاتِهِ ، يعرِضُها بطريقةٍ لم يُسبَقْ إليها ، فلا يستطيعُ أنْ يسلُكَها سالكٌ ، أو أنْ ينتهجَها ناهجٌ ، فتراهُ يأتي بوجوهٍ مُتعدّدةٍ ، وأساليبَ متنوّعةٍ ، وأفانينَ مُتجدِّدةٍ ، فهو غايةٌ في البلاغةِ ليسَ لها نهايةٌ ، وإنْ تعجبْ فعجبٌ عَرْضُهُ للموضوعِ الواحدِ ، ذي المعنى المُتّحِدِ ، والهدفِ المُشترَكِ ، فإنّكَ تجدُهُ معَ تفرُّقِهِ في القرآنِ في أماكِنَ عدَّةٍ ، ومعَ تباعُدِ أوقاتِ نزولِهِ ، وتبايُنِ أزمانِ وصولِهِ ، ليسَ بينَ آياتِهِ مُفارَقةٌ ولا تلفيقٌ ، ولا تشويهٌ ولا تناقُضٌ ، بل هيَ وحدةٌ واحدةٌ ، مُترابطةٌ مُتناسقةٌ ، تُكوِّنُ صورةً واحدةً في أحسنِ تقويمٍ ، وتُعطي منظراً مُتآلِفاً مُتناسِقاً مُتآلِفاً ، في أبدعِ تنظيمٍ ، لا تناكُرَ في معانيهِ في العُقولِ والأفهامِ ، ولا تبايُنَ بينَ مبانيهِ في الأسماعِ والآذانِ ، ولكنْ يُكمِلُ بعضُهُ بعضاً ، وبالجُملةِ فإنَّ القرآنَ العظيمَ فريدٌ في بابِ عَرضِهِ لموضوعاتِهِ .

كانَ «سيد قُطب» مِنْ أوائلِ العُلماءِ ـ في العصرِ الحديثِ ـ الذينَ اهتمّوا بالتّفسيرِ الموضوعيِّ ، الذي يقترِنُ بالتّفسيرِ الأدبيِّ الفنيِّ ، خاصّةً وأنّهُ فسّرَ القرآنَ جميعَهُ ، بهذهِ الطّريقةِ الفنيّةِ ، الأدبيّةِ الموضوعيّةِ ، وأطلقَ عليهِ عبارةَ «في ظلالِ القُرآنِ». فها هو يتحدّثُ عن الحافزِ الذي أغراهُ بانتهاجِ هذا المَنهجِ ، وسلوكِ هذهِ الطريقةِ من التّفسيرِ ، فيقولُ : (لقد بدأتُ البحثَ ، ومَرْجِعي الأوّلُ هو المُصحفُ ، لأجمعَ الصُّورَ الفنيّةَ في القُرآنِ ، وأستعرضَها ، وأُبيِّنَ طريقةَ التّصويرِ فيها ، والتّناسُقِ الفنيِّ في إخراجِها ، فليسَ البحثُ عن صورٍ تُجمَعُ

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص٦ .

وتُرتَّبُ ، ولكنْ عن قاعدةٍ تُكشَفُ وتُبرَزُ ، وحينَ انتهيتُ مِنَ التّحضيرِ للبحثِ ، وجدتُني أشهدُ في نفسي مولِدَ القرآنِ من جديدٍ ، لقد وجدتُه كما لم أعهدْه من قبلُ أبداً ، لقد كانَ القُرآنُ جميلاً في نفسي ، نعم . . ! ، ولكنَّ جمالَه كانَ أجزاءَ وتفاريقَ ، أمّا اليومُ : فهو عندي جُملةٌ مُوحّدَةٌ ، تقومُ على قاعدةٍ خاصّةٍ . قاعدةٌ فيها مِنَ التّناسُقِ العجيبِ ، ما لم يكنْ [أكُنْ] أحلمُ من قبلُ بهِ ، وما لا أظُنُّ أحداً تصوّرَهُ» [١] .

وَيَمُنُّ اللهُ تعالى على «سيِّد قطب» بالتّوجُّهِ إلى القرآنِ الكريمِ ، يعيشُ في ظلالهِ : أُسلوباً وقِيَماً ، وحُكماً وتشريعاً ، فهو يتناولُ فيه المبادئَ العامّةَ للإسلامِ ، كما جاءَ بها القرآنُ المَجيدُ . بلا ريبٍ أنّـها محاولةٌ لشرح ذلكَ الدُّستورِ الإلهيِّ في الحياة والمُجتمع .

إنَّ تفسيرَ «سيِّد قطب»[٢] ، وإنْ كان قد اهتمَّ اهتماماً كبيراً بإبرازِ الصُّورِ الفنّيّةِ ، والقيَمِ الجماليّةِ ، إلاّ أنّـهُ اهتمَّ أيضاً بالموضوعاتِ القُرآنيّةِ ، فأبرزَها من

---

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٤م ، ص٨ .

(٢) سيد قطب : اسمه : سيد قطب إبراهيم ، المولود عام ١٩٠٦م في قرية «موشا» من محافظة أسيوط ، في الوجه القبلي من ريف مصر ، جاء جدُّهُ الخامسُ إلى ديار العرب ، من بلاد الهند وأواسط آسيا ، حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنوات ، في كُتّابِ القريةِ ، ثمّ مالَ إلى مدرسة القرية النّظاميّةِ ، ثم تخرّجَ من دارالعلوم ، وعمِلَ مُدرِّساً في المرحلة الابتدائيّة ، في دمياطَ ثم في حلوان ، وكتب في القصة والنّقد والشّعر والخاطرةِ ، أُرسل في بعثةٍ حكوميّةٍ إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة ، لدراسة نظم التربيّة ، ما بين عامي ١٩٤٨-١٩٥٠م ، انتظم في صفوف الإخوان المسلمين عام ١٩٥١م ، من مؤلفاته : «العدالة الاجتماعيّة في الإسلام» ، «معالم في الطريق» ، «التصوير الفني في القرآن» ، «مشاهد القيامة في القرآن» ، «جاهلية القرن العشرين» ، «في ظلال القرآن» ، وفي صبيحة يوم ٢٩ أغسطس «آب» عام١٩٦٦م سيق العالمُ الربّانيُّ ، والدّاعيةُ المؤمنُ إلى ساحة الاستشهادِ ، حيثُ أُعدِمَ في عهد جمال عبد الناصر ، رئيس مصر في تلك الحقبة . انظر ، يوسف العظم : الشهيد سيد قطب ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص٢٠-٤١ .

خلالَ تحليلِهِ وتناولِهِ للصُّورِ الفنّيّةِ ، فكانَ يربطُ بينَ الموضوعاتِ ، مُستغلاً في ذلكَ كلّ العناصرِ التّوضيحيّةِ ، من آياتِ القرآنِ الكريمِ ، ومناسباتِ نزولِهِ ، ومن الأحاديثِ النَّبويَّةِ ، وأقوالِ الصّحابةِ والتّابعينَ ، فكانَ الموضوعُ القُرآنيُّ بينَ ذهنِهِ وتفسيرِهِ ، وكأنّهُ بحثٌ مُتناسِقٌ مُتكامِلٌ ، يرتبطُ أوّلُهُ بآخرِهِ ، مُشتمِلاً على كلِّ ما يتّصِلُ بِهِ من جُزئيّاتٍ .

ومِنْ أبرزِ من قامَ بمثلِ هذا التّفسيرِ الموضُوعيِّ في إطارِ السُّورةِ الواحدةِ ، عالِمانِ كبيرانِ[1]، بذلا جَهداً كبيراً في إحياءِ الدِّراساتِ البيانيّةِ ، والتطبيقيّةِ الموضُوعيّةِ لبعضِ السُّورِ ، فأظهرا النّاحيةَ الجماليّةَ الفنيّةَ ، في سورتي « الرّعدِ والرَّحمنِ » ، من حيثُ : تحليلُ النُّصوصِ القُرآنيّةِ ، تحليلاً يكشِفُ عنِ ائتلافِ الألفاظِ معَ المعاني ، وفي تناسُبِ الألفاظِ والأصواتِ ، والتّعقيبِ بالإشارةِ الواضحةِ إلى التّوحيدِ وأُصولِ العقيدَةِ الإسلاميّةِ ، وإظهارِ شَرفِ الكتابِ المُنزّلِ ، وتَسفيهِ آراءِ المُعاندينَ في طلبِهِم قُرآناً غيرِ هذا .

نَشِطَتِ الدّراساتُ الموضوعيّةُ والأدبيّةُ ، لنُصوصِ الكتابِ الحكيمِ ، نَشاطاً حافِلاً ، والتي مِنْ شأنِها أنْ تخدِمَ الفردَ والمُجتمعَ ، وتدفعَ الجميعَ إلى معرفةٍ أقوى وأعلى لفهمِ القُرآنِ الكريمِ ، وفي هذا المجالِ يقولُ شوقي ضيف : عن الظروفِ التي دعتْهُ إلى تأليفِ هذهِ الدِّراسةِ المُمتعَةِ ، ومنهجِهِ فيها ، (وكانَ من حُسنِ حظّي ، أنْ دَعَتني صحيفةُ الأهرامِ ، لأُشارِكَ في شهرِ رمضانَ المُباركِ ، ببعضِ أحاديثَ دينيّةٍ ، ورأيتُ أنْ أعرِضَ فيها لبعضِ قِصارِ السُّورِ ، ووقعَ هذا

---

(١) العالمان الكبيران : هما : ١ : الأستاذ الدكتور « محمد خلف الله أحمد . وله تفسير سورة « الرّعد» . ٢ : الأستاذ الدكتور : شوقي ضيف . وله تفسير سورة « الرحمن وقصار السور» . كلاهما أستاذٌ جامعيٌّ ، وجّهَ طُلابَهُ إلى دراسة النصوص القرآنية ، في ظلّ ما تمخّضتْ عنه العلوم الحديثة ، من ثمار يانعةٍ في حقول النقد والبلاغة ، وعلوم النّفسِ والتّربيّةِ والاجتماع ، [كنماذجَ جيدةٍ] للتفسير الموضوعيّ . انظر ، صحيفة دار العلوم ، السنة السّابعة ، في ذي الحجّة ، سنة ١٣٥٨هـ ، ٣/٥ .

العَرْضُ موقعَ استحسانٍ مِنْ نُفوسٍ كثيرينَ ، . . . [وطُلِبَ] إليَّ أنْ أبدأَ بعَرضٍ ودراسةٍ لسورةِ «الرّحمن» ، سورةِ النِّعَمِ الدُّنيويّةِ والأُخرويّةِ ، وضممتُ إليها سورةَ «الفاتحةِ» . . . و«العصرِ» . وجميعُها تتناولُ العقيدةَ الإسلاميّةَ ، وبعضَ مبادئ الإسلامِ الخُلُقيّةِ والاجتماعيّةِ)[1].

لعلَّ الحاجةَ اليومَ ماسّةٌ إلى هذا النّوعِ مِنَ التّفسيرِ الموضُوعيِّ ، الذي يجمعُ فيه المُفسِّرُ الآياتِ ، ذاتِ الموضوعِ الواحدِ ، ثمّ يضعُها أمامَهُ كمادةٍ يُحلِّلُها ، ويفقَهُ معانيَها ، ويعرِفُ النّسبةَ بينَ بعضِها والبعضِ الآخرِ ، وبذلكَ يضعُ كلَّ شيءٍ موضعَهُ ، فلا يُكرِهُ آيةً على معنًى لا تحتمِلُهُ ، خُصوصاً في التّفسيرِ الذي يُرادُ إذاعتُهُ على النّاسِ ، بقصدِ إرشادِهِم إلى ما تضمّنَ القُرآنُ من أنواعِ الهدايةِ ؛ لأنَّ موضُوعاتِ القُرآنِ ليست نظرياتٍ بحتةً ، يعملُ بها الإنسانُ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لها مُثُلٌ واقعيّةٌ ، لا سيما ما يحدُثُ للأفرادِ والمجتمعاتِ مِنْ شئونٍ ، ويتّصلُ بحياتِهِم مِنْ قضايا .

إنَّ تفسيرَ سُورةِ الأعرافِ ، لهيَ أنصعُ الأمثلةِ ، على التّفسيراتِ الموضُوعيّةِ لسورةٍ واحدةٍ ، يستشِفُّ الإنسانُ خلالَها هَدْيَ القُرآنِ ، فيما يُصحِّحُ بِهِ المرءُ علاقاتِهِ بربِّهِ ، حيثُ تكونُ معرفتُهُ معرفةً يقينيّةً ، ثمَّ يكونُ منهجُهُ في حياتِهِ منهجاً قُرآنيًا ، وسُلوكُهُ سُلوكاً شرعيّاً ؛ لذا قدّمها «البهيُّ» على غيرِها ، عندَ العَزمِ على مُحاولةِ تفسيرِ القرآنِ المكيِّ ، قائلاً : (وقصدتُ مِنْ هذهِ المُحاولَةِ ، عَرْضَ القُرآنِ في حَلِّهِ لمشاكلِ المُجتمعِ الإنسانيِّ في حاضرِنا الرّاهنِ ، كما كانَ مَصدراً لِحلِّها بالأمسِ ، يومَ أنْ نزلَ الوحيُ بِهِ ، وكما يَحلُّها في غدِ الإنسانِ ؛ لأنّهُ [يُؤَصِّلُ] لطبيعةِ الإنسانِ ، وليسَ لمرحلةٍ من مراحلِ تطوّرِ الإنسانيّةِ في عهدٍ خاصٍ بها . . . [ولقدِ احتوتْ سُورةُ الأعرافِ جميعَ هذهِ المعاني ، وهيَ

---

(١) شوقي ضيف : تفسير سورة الرحمن وقصار السُّورِ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨٩هـ ، ص١١ .

بدورِها] تُقدِّمُ في إجمالٍ، صراعَ الماديّةِ مع الرُّوحيّةِ، كما تُقدِّمُ الحُلولَ والمواقِفَ لِتَحدي الماديِّ، وتخليصِ الطَّريقِ أمامَ الرُّوحيّةِ نحوَ السُّموِّ الإنسانيِّ، . . . والآياتُ المكيّةُ الأُخرى في القُرآنِ، هيَ بمثابةِ تفصيلٍ لجانبٍ أو أكثرَ من جوانبِ الماديّةِ والرُّوحيةِ)[1]. إنَّ النّاظرَ في سورةِ الأعرافِ، يُدرِكُ أنّها تشترِكُ مع السُّورِ المكيّةِ، في الدّعوةِ إلى إعلانِ التّوحيدِ في الألوهيّةِ، ورفضِ الشِّركِ في مَجالَي الولاءِ والعبادةِ، وخُتِمَتِ السُّورةُ بالتّعظيمِ والحَمْدِ، والذِّكرِ والثّناءِ على اللهِ تعالى بما هُوَ أهلُهُ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠٥).

فَلا يَنبغي للمَرْءِ المؤمنِ أنْ يغفَلَ عنْ ربهِ ؛ لأنَّ إغفالَهُ قدْ يكونُ بدايةً للابتعادِ عنهُ، والرُّكونِ إلى هَوى النَّفسِ وشَهواتها . وفي النهايةِ تلمَحُ بأنَّ السُّورةَ الكريمَةَ - مِنْ أوَّلِها إلى آخرِها - وَحْدَةٌ مُتماسكةٌ، تشدُّها خيوطٌ خفيّةٌ، تجعلُ أوَّلَها تَمهيداً لآخرِها، وآخرَها تصديقاً لأوّلِها، إذْ تدورُ كُلُّها على مِحْوَرِ التَّوحيدِ . يؤكِّدُ «البهيُّ» في إطارِ إعجازِ موضوعيَةِ التَّوجيهِ في القُرآنِ، على عَلاقةِ المُجتمعِ الإسلاميِّ مَعَ المُجتمعاتِ الأُخرَى، وهيَ مُجتمعاتُ الإلحادِ والوثنيّةِ، ومجتمعاتُ أهلِ الكتابِ، على الحَذَرِ والحَيْطَةِ في تقبُّلِ المَشُورةِ . . . وعلَى عدَمِ المُوالاةِ، وَفِي الوقتِ نفسِهِ: علَى عَدَمِ الاعتداءِ . (لأنَّ عداوةَ المُجتمعاتِ الأُخرَى للمُجتمعِ الإسلاميِّ عداوةٌ باقيةٌ، ولمْ تَزلْ تَتطَلَّعُ هذهِ المُجتمعاتُ إلى سُقوطِ المُجتمعِ الإسلاميِّ، أو إلى ضَعْفِهِ على الأقلِّ، [لذا] على مَنْ يَقْبَلُ مشورتَهُم مِنَ المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ، أنْ يتحمّلَ عاقبةَ أمرِها، وهيَ عاقبةُ المَذلّةِ، والانحدارِ إلى الفَناءِ، وساعةَ إذنْ ليسَ هُناكَ صديقٌ يُساعِدُ، ولا نصيرٌ يُعينُ على الخُروجِ مِنَ الشّدائدِ)[2].

---

(١) محمد البهي: التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم «تفسير سورة الأعراف»، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٥.

(٢) محمد البهي: نحو القرآن، ص٩٦.

هَذا هُوَ شَأنُ الكُفَّارِ مَعَ القُرآنِ كُلِّهِ ، فَهُمْ لا يزالونَ في رِيبةٍ وشكٍّ مِنهُ . وَمَنشأُ هذهِ الرِّيبَةِ أنَّ قلوبَهُم لم تُخالطْها بشاشتُهُ ، فتُدرِكَ ما فيهِ من حقيقةٍ وصِدق .

يظلُّ هذا حالُهُم مهما أتتهُمُ الأدلَّةُ ، وتَوالتْ عليهِمُ الحُجَجُ ، لا يَزالونَ في حيرَةٍ حتَّى تأتيَهُمُ الساعةُ فَجأةً ، أو يأتيَهُم عذابُ يومٍ عقيمٍ لا خيرَ فيهِ ، (ولا غرابةَ في هذا لأنَّ المُلْكَ يومَ الجزاءِ والثَّوابِ والعقابِ ، للهِ الواحدِ القهّارِ يحكُمُ بينَهُم ، وهو الحَكَمُ العَدْلُ جلَّ شأنُهُ . يحكُمُ بينَهُم فيما اختلفوا فيهِ ، فالذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ في جنّاتِ الخُلدِ ، خالدينَ فيها ، ولَهُم فيها نعيمٌ مُقيمٌ ، والذينَ كَفَرُوا وكذَّبُوا بآياتِنا فأُولئكَ أصحابُ الجَحيمِ ، ولَهُمْ عذابٌ [مُهينٌ] ، جزاءَ ما عَمِلُوا مِنْ سَيئِ الأعمالِ ، وما ارتكَبُوا مِنْ بَوائقِ السَّيِّئاتِ)(١) .

هَذا جَزاءُ الكافرينَ الذينَ يَكيدونَ لدينِ اللهِ ، ويُكذِّبونَ بآياتِهِ البيِّناتِ ، وكانُوا يستكبرونَ عنِ الطّاعةِ للهِ سبحانَهُ والتَّسليمِ لَهُ ، والدليلُ على استمراريَّةِ ما ذهبَ إليهِ البحثُ مِنْ عَداواتِ الكافرينَ لأُمّةِ الإسلامِ ، بسببِ إيمانهم بآياتِ القُرآنِ العَظيمِ ، قولُهُ تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (الحج:٥٥-٥٧) .

أمّا الحذَرُ والحيطَةُ في تقبُّلِ مَشُورةِ أهلِ الكتابِ ، فيدلُّ عليها قولُهُ سُبحانَهُ وتعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ

(١) محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، ٦٩/١٦ .

هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

يُوجِّهُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى الخِطابَ إلى سيِّدِنا مُحَمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولأُمَّتهِ المُؤمِنَةِ أيضاً مِنْ بعدهِ، مُبيناً ومُحذِّراً: بأنَّ الثَّمنَ الوحيدَ الذي يرتضيهِ كُلٌّ من اليهودِ والنَّصارى، هُوَ الرِّدَّةُ عنْ دينِ التَّوحيدِ، والخروجُ عنْ مِلَّةِ الإسلامِ والإيمانِ، وما سوى ذلكَ فهُوَمردودٌ عندهُم ومرفوضٌ، إنّها هذهِ هيَ حقيقةُ المعركةِ التي يشنُّها اليهودُ والنّصارى، في كلِّ وقتٍ وزمانٍ ومكانٍ، ضدَّ الإسلامِ وأهلِهِ، إنّها معركةُ العقيدةِ في صميمِها وحقيقتِها (إنّها معركةُ العقيدةِ، إنّها ليستْ معركةَ الأرضِ ولا الغَلَّةِ.. ومن ثمَّ استدارَ الأعداءُ العريقونَ فغيّروا أعلامَ المعركةِ، لم يُعلنُوها حَرباً باسمِ العقيدةِ على حقيقتِها، خوفاً من حماسةِ العقيدةِ وجَيَشانِها. إنّما أعلنوها باسمِ الأرضِ، والاقتصادِ، والسِّياسةِ، والمراكزِ العسكريّةِ وما إليها، وألقَوا في روعِ المخدوعينَ الغافلينَ مِنّا، أنَّ حكايةَ العقيدةِ قد صارتْ حكايةً قديمةً لا معنى لَها ولا يجوزُ رفعُ رايتها، وخوضُ المعركةِ باسمِها، فهذه سِمَةُ المُتخلّفينَ المُتعصّبينَ، ذلكَ لكيَ يأمنُوا جَيَشانَ العقيدةِ وحماستَها. بينما هُم في قَرارةِ نفوسِهِم: الصُّهيونيَّةُ العالميَّةُ، والصَّليبيَّةُ العالميَّةُ، بإضافةِ الشُّيوعيَّةِ [المقيتَةِ المُندحِرَةِ]، جميعاً يخوضونَ المعركةَ أولاً وقبلَ كُلِّ شيءٍ، لتحطيمِ هذهِ الصَّخرةِ العاتيَةِ، [ألا وهيَ عقيدةُ الإسلامِ] التي نطَحُوها طويلاً، [لكنّها استعصَتْ عليهم] فأدْمَتْهُم جميعاً).

وسيظَلُّ اليهودُ والنّصارى يُحاربُونَ الثُّلّةَ المُؤمِنَةَ، ويَكيدونَ لَها، ولا يُسالمُونَها ولا يَرْضَوْنَ عنها، إلاَّ أنْ تحيدَ عنْ هذا الأمرِ العقديِّ، وتترُكَ هذا الحقَّ، وتتخلّى عنْ يقينِها، إلى ما هُم فيهِ مِنْ ضَلالٍ وشِرْكٍ، ثمَّ يأتي بعدَ هذا التّوجيهِ الرّبّانيِّ، الحَذَرُ والحَيْطَةُ في تقبُّلِ مَشُورةِ المُلحدِينَ، حيثُ

يؤخذانِ من عداوتِهِمُ البغيضةِ ، لكتابِ اللهِ وقُرآنِهِ ، على نحوِ ما جاءَ في قولِهِ تعالى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٤).

هلاَّ فُصِّلتْ آياتُهُ : فَجُعِلَ بعضُها أعجمياً لإفهامِ العجَمِ ، وبعضُها عربياً لإفهامِ العربِ ـ كما اقترحَ بعضُ المُشركينَ ـ ولمّا عِلمَ اللهُ تعالى مِنْهُم ذلكَ التّعنُّتَ ، (أمرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لَهُمْ : قُلْ هُوَ أي القُرآنُ الكريمُ : هُدًى يُهتدَى بِهِ إلى سُبُلِ السّعادةِ والنّجاحِ والكمالِ ، وشِفاءٌ من أمراضِ الشّكِّ والشِّركِ والنِّفاقِ والعُجْبِ ، والرِّياءِ والحَسَدِ والكِبْرِ ، والذينَ لا يؤمنونَ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً . [يكونُ القُرآنُ حينَئذٍ] في آذانِهم وقْراً أي حِملاً ثقيلاً فلا يسمعونَهُ ، وهُوَ عليهِم عَمًى فلا يفهمونَهُ ، [وذلكَ لِتَصامِّهِم عنْ سَماعِ القُرآنِ وتعاميهِم عمّا يُريهِم منَ الآياتِ] فَهُم كالمُنادى منْ مكانٍ بعيدٍ ، لا يسمَعُ ولا يَفهَمُ ما يُنادَى بِهِ) (١).

لهذا جاءَ التّعبيرُ القُرآنيُّ صريحاً في عدمِ قَبولِ مَشورةِ الكافرينَ ، إذْ وجّهَ اللهُ تعالى الخِطابَ إلى رسولِهِ ﷺ ، ألاَّ يُطيعَ الكافرينَ المُعاندينَ للحقِّ ، تعنُّتاً وكِبْراً ، لأنّهُم : (واقعونَ تحتَ تأثيرِ الماديّةِ وتأثيرِ هواهُم ، كما يجبُ أنْ [يُجاهدَهُم] بالقُرآنِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى جِهاداً كَبيراً ، [فيصبِرَ ويستمِرَّ] فيما يَدْعُوَ إليهِ ، وألاّ يَثنيَهُ عنِ الاستمرارِ فيهِ استهزاءٌ بِهِ ، صادِرٌ عنهُم كُلّما رأوْهُ ، ولا تربُّصٌ بِهِ لإيقاعِ الأذى عليهِ ، فاللهُ واقيهِ وتكفّلَ بحمايتِهِ) (٢). ثُمَّ يُوجِّهُ اللهُ

---

(١) أبو بكر الجزائري : أيسر التفاسير ، ص١٦٠٩ ، ١٦١٠ .

(٢) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الفرقان» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، لا . ط ، لا . ت ، ص٣١ .

سُبحانَهُ وتَعالى رسولَهُ مَحَمَّداً ﷺ ، بدعوةِ قومِهِ مِنَ الكافرينَ إلى الإسلامِ ، عَنْ طريقِ المُحاجَّةِ بآياتِ القُرآنِ الكريمِ ؛ لأنَّهُم أهلُ اللُّغةِ العربيَّةِ وفصاحتِها ، فَحريٌّ بِهِم أنْ يفقهُوا بلاغتَها ، ويستجيبوا للدَّعْوةِ استجابَةَ طاعةٍ وإذْعانٍ . حيثُ يقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى ، مُخاطِباً الرَّسولَ ﷺ :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٢).

اشتملتِ الآيَةُ الكريمةُ على نَهيٍ وأمْرٍ مَعاً ، فقدْ نَهَى اللهُ عزَّ وجلَّ رسولَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، عنْ طاعةِ الكافرينَ ، وأمرَهُ أنْ يُجاهدَهُم بكلِّ سلاحٍ جِهاداً كَبيراً ، يتناسَبُ مَعَ كُلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وكذلكَ يكونُ أُمراءُ دينهِ مِنْ بعدِهِ ، وحُكَّامُ أُمَّتِهِ ، بل الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ كلُّها ، واجبٌ عليها ألاَّ تُطيعَ الكافرينَ ، وينبغي أنْ تُجاهدَهُم بكُلِّ سلاحٍ مُناسبٍ . ثمَّ يُطمئِنُ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بعدَ ذلكَ ، بأنَّهُ يحميَهُ من النَّاسِ بالدِّفاعِ عنهُ ، فلا يستطيعونَ النَّيلَ منهُ ، بقولِهِ سبحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾
(المائدة: ٦٧).

لقدْ نادى اللهُ سبحانَهُ وتَعالى ، الرَّسولَ ﷺ ، وكلَّفَهُ تبليغَ كلِّ ما أُنزلَ إليهِ مِن ربِّهِ ، لا يستبقي ولا يؤخِّرُ منهُ شيئاً ، مُراعاةً للظُّروفِ والمُلابساتِ ، أو تجنُّباً للاصطدامِ بأهواءِ النَّاسِ ، وواقعِ المُجتمعِ ، وإلاَّ فما بلَّغَ وما أدَّى وما قامَ بواجبِ الرِّسالةِ ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى وحدَهُ ، يتولَّى حِمايتَهُ وعِصْمَتَهُ مِنَ النَّاسِ ، ومن كانَ اللهُ عاصماً لَهُ ، فماذا يملكُ لَهُ العبيدُ الفقراءُ؟! . إنَّ تبليغَ الدَّعوةِ وإلقاءَ كلمةِ الحقِّ في العقيدةِ بقوَّةٍ وحَسْمٍ ، لا يعني الخشونةَ والفظاظةَ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمرَ رسولَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضاً ، أنْ يدعوَ إلى سبيلِ ربِّهِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، ولأنَّهُما لا تُجافيانِ الحَسْمَ والفَصْلَ في بيانِ كلمةِ الحقِّ ، فالوسيلةُ أو الطَّريقةُ إلى التَّبليغِ غيرُ مادةِ التَّبليغِ وموضوعِهِ .

يمضي السياقُ القرآنيُّ : في تقرير نوعِ العلاقةِ بين أهل الكتابِ مِنَ اليهودِ والنّصارى مِنْ طَرَفٍ ، وبينَ الرّسول ﷺ والأُمّةِ المُسلمةِ مِنْ طَرَفٍ آخرَ ، فلا يجوزُ اتخاذُهُم أولياءَ وأعواناً ، حيثُ يقولُ الله سبحانَهُ وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (المائدة: ٥١، ٥٢).

نداءٌ من اللهِ تعالى للمُؤمنينَ في كُلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ ، ألاَّ يعتمِدوا على اليهودِ والنّصارى في واقعِ حياتِهِم وألاَّ يُعاشروهُم (مُعاشَرَةَ الأحبابِ ، [وهُنا إيماءةٌ] إلى عِلّةِ [عدَمِ موالاةِ اليهودِ والنّصارى لأنّهُم] يوالي بعضُهُم بعضاً : لاتّحادِهِم في الدِّينِ ، واجتماعِهِم على مُضادَّتِكُم ، [وهُم أيضاً] مُتّفقونَ على خلافِكُم ، ومَنْ والاهُم مِنكُم [أيْ مِنْ جماعةِ المؤمنينَ لأيِّ سببٍ منَ الأسبابِ] فإنّهُ من جُملَتِهِم)[١].

وفي هذا إشارةٌ : إلى أنَّ ولاءَ المُسلمِ لغيرِ اللهِ تعالى ورسولِهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ والمُؤمنينَ ، نوعٌ من الارتدادِ عنِ الإيمانِ ، لِذا يُحذِّرُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى عبادَهُ المُؤمنينَ ، ويُخوِّفُهُم من الوقُوعِ في الرِّدةِ ، باتّخاذِهِم أهلَ الكتابِ أولياءَ ، فيكونونَ سواءً بسواءٍ في البدايةِ والنّهايةِ ، أيْ في الكُفرِ بالدُّنيا والعذابِ في الآخرةِ . والمُسلمُ يتعاملُ معَ أهلِ الكتابِ ، وهو مُطالَبٌ بإحسانِ مُعاملتِهِم ، ما لمْ يؤذُوهُ في الدِّينِ ، وما داموا غيرَ مُعتدِينَ ولا مُظاهرينَ لأعدائِهِ عليهِ ، في أرضِهِ وعِرْضِهِ ودمِهِ ومالِهِ ، ويُباحُ لَهُ الزواجُ من الكتابيّةِ المُحصَنةِ العفيفةِ .

---

(١) عبد الله بن عمر البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ٢٣٥/١.

ولكنَّ هذا ليسَ معناهُ : الولاءُ والتّناصُرُ في الدِّينِ ؛ لأنَّ الإسلامَ جاءَ أصلاً لِيُصحِّحَ اعتقاداتِ أهلِ الكتابِ والمُشركينَ والوثنيينَ جميعاً ، ودعاهُم إلى توحيدِ اللهِ تعالى في ذاتِهِ وأسمائهِ وصفاتِهِ وعبادتِهِ ، عن غيرِ إكراهٍ لأحدٍ في عقيدتِهِ . يُخبرُنا رسولُ اللهِ ﷺ ، على سبيلِ التّحذيرِ ، بما سيؤولُ إليهِ حالُ بعضِ المُسلمينَ ، مِنْ ضَعفِ تمسُّكِهِم بدينِهِم ، وهَوانِهِم على أنفُسِهِم واندفاعِهِم لتقليدِ اليهودِ والنّصارى وغيرِهِم ، فيما يُخالِفُ تعاليمَ الإسلامِ وأحكامَهُ ، تقليداً أعمَى من غيرِ تَدبُّرٍ ولا تَفكيرٍ ، إنّهُم سوفَ يتّبعونَ غيرَ المُسلمينَ في مناهجِهِم وطرائقِهِم ، وتشابُهِهِم في المعاصي والآثامِ .

عَنْ أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النّبيِّ ﷺ قالَ : «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً شِبْراً وذِراعاً بِذِراعٍ ، حتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ . قُلْنا : يا رسُولَ اللهِ اليَهُودَ والنَّصارَى؟ قالَ : فَمَنْ؟» [1] .

قولُهُ : «قالَ : فَمَنْ؟» يُفيدُ الاستفهامُ هُنا الإنكارَ ، والتقديرُ فمن هُم غيرُ أولئك؟ . وليس في إخبارِهِ ﷺ ، عن وقوعِ المُتابعةِ والمُشابهةِ للكُفّارِ ، إخبارٌ عن جميعِ الأُمّةِ ، وإنّما إخبارٌ عن فئةٍ من الأُمّةِ ، تقعُ في هذهِ الخطيئةِ ، والأُمّةُ المُسلمةُ جميعُها لا تجتمعُ على ضَلالةٍ أو خَطيئةٍ .

لكنّها مُطالبَةٌ أيضاً أنْ تأخُذَ العلومَ النّافعةَ ، التي عندَ الأُمَمِ الأُخرى ، كالطِّبِّ والهندسةِ وعلُومِ الأرضِ والفَلكِ وغيرِها ، ومطلوبٌ منها أن تُطوِّرَ ما وصلَ إليهِ الآخرونَ ، وتبنيَ عليهِ ما يُحقِّقُ المنفعَةَ ويزيدُها ، وأنْ تنتفعَ بما عندَهُم من نُظُمٍ إداريّةٍ تُساعِدُ في تنظيمِ الحياةِ ، كتنظيمِ العمَلِ والسَّيْرِ والمُرورِ ، وغيرِها مِنَ القوانينِ التي لا تُخالِفُ أحكامَ الشّريعةِ الإسلاميّةِ .

وفي بيانِ مُجملِ العلاقاتِ العامّةِ والخاصّةِ ، بينَ المُجتمعِ الإسلاميِّ

---

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، رقم الحديث «٧٣٢٠» ، ١٧/١٣٣،١٣٤ .

والمُجتمعاتِ الأُخرى ، «وزَعَ البهيُّ»ـ في ضَوْءِ التّفسيرِ الموضوعيِّ ـ أهدافَ الإطارِ المركزيِّ للقرآنِ الكريمِ ، إلى جوانبَ ثلاثةٍ هي :

١- مُقاومةُ الوثنيّةِ الماديّةِ .

٢- تصحيحُ التّحريفِ الّذي باشرَهُ أهلُ الكتابِ في رسالةِ اللهِ تعالى .

٣- بناءُ المُجتمعِ الإسلاميِّ : في أُصولِ حُكمِهِ ، وفي أخلاقياتِهِ في السُّلوكِ والمُعاملَةِ .

يدورُ التّفسيرُ الموضوعيُّ للقُرآنِ كَكُلٍّ ، بينَ الإجمالِ والتّفصيلِ في تحديدِ هدفِهِ ، عارضاً جانباً من هذه الجوانبِ السّابقةِ ، (مُستوفياً ومُلِمّاً بما جاءَ بِهِ القُرآنُ ، في آياتِهِ كُلِّها بحيثُ يَصِحُّ أنْ يكونَ دُستوراً ، ينطوي على مبادئِهِ في الجانبِ المقصودِ في يُسْرٍ ، وفي غيرِ تطويلٍ ، ... [وهُنا يعرِضُ بعضَ النّماذجِ من سورةِ «الأنعام» ، وما تُبيِّنُهُ أولاً وبالذّاتِ مِنْ هَدفٍ] ، يُضافُ إليهِ ما يستخدمُهُ القُرآنُ في السُّورةِ مِنْ تاريخِ البشريّةِ في مُجتمعاتِها . . أوْ ما يَعِدُ بِهِ اللهُ تعالى مِنْ نعيمٍ ، أو عِقابٍ : للمُطيعِ على طاعتِهِ ، وللعاصي على عِصيانِهِ وإثمِهِ أو جريمتِهِ . تَحرِصُ سُورةُ «الأنعام» في الدّرجةِ الأُولى ، على تحريمِ تدخُّلِ السُّلطةِ القائمةِ : دينيّةٍ . . أو سياسيّةٍ ، في الأموالِ الخاصّةِ باسمِ اللهِ ، أو بأيِّ اسمٍ آخرَ ، «كاسمِ الشّعبِ أو الأمّةِ» والاعتداءِ على حُرمتِها ، لمنفعةٍ شخصيّةٍ مِنْ وراءِ ذلكَ ، تعودُ على مُمثّلي تلكَ السُّلطةِ . والسُّلطةُ القائمةُ إذْ ذاكَ في مكّةَ : كانت سُلطةً دينيّةً سُلطةَ الكُهّانِ . . والكُهّانُ[1] بدورِهِم كانُوا يُمارسُونَ حِرْفَتَهُم ، بما يُدعى عِلمَ الغيبِ ، ويَنسبونَهُ كذِباً إلى اللهِ سبحانَهُ

---

(١) الكاهِنُ : هو الذي يتعاطى الخبرَ عن الكائناتِ في مُستقبلِ الزّمانِ ، ويدّعي معرفةَ الأسرارِ ، وقد كان في العربِ كَهَنَةٌ ، «كشِقٍّ وسطيحٍ» وغيرِهِما . والكَهانةُ بفتحِ الكافِ وكسرِها [لُغتانِ] ، ومن العربِ من كان يُسمّي المُنجِّمَ والطّبيبَ كاهِناً . انظر ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، ١٨١/١٢ .

وتعالى مِنْ : حِلِّ هذا ، وتحريمِ ذاكَ ، ممّا يجري في حياتِهم ، وبالأخصِّ فيما يتصلُ بثروتِهمُ الحيَوانيّةِ ، والزّراعيّةِ . وهيَ ثروةٌ تُمثّلُ الاقتصادَ القوميَّ لمُجتمعِهِم في ذلكَ الوقتِ . ونظيرُها : ـ يأخذُ حُكمَهَا ـ كُلُّ ثروةٍ أُخرى ، يعتمِدُ عليها المُجتمعُ البشريُّ في أيِّ وقتٍ وعهدٍ ، كالثّروةِ الصّناعيّةِ والتّجاريّةِ في المُجتمعاتِ المُتطورَةِ المُعاصِرَةِ)[1].

لقد واجهتْ سورةُ «الأنعام» هؤلاءِ الكُهّانِ بحقيقةِ احترافِهِمُ الكَهانَةَ ، وكانوا يَنسِبونَ أنفسَهُم إلى الدِّين ، لذا كانَ تدخُّلُهُم في أموالِ النّاسِ ، وسائرِ شُئونِ حياتِهِم باسمِ اللهِ ، وهذا افتراءٌ عليهِ منهُم ، إذْ كانوا هُم والتّابعونَ لَهُم لا يُنكرونَ اللهَ ، ولكنْ كانوا يُشركونَ مَعَهُ معبوداتٍ أُخرى ، على عادةِ الماديِّينَ ، لأنَّ المعبوداتِ الأُخرى في نظرِ الماديِّينَ ، تُمثِّلُ المنافعَ التي يَرتقِبُها المُشرِكُ ، مِنْ عبادَتِهِ إيّاها ، بينما عبادةُ اللهِ تعالى وحدَهُ ، تُمثِّلُ القيَمَ الرُّوحيَّةَ الإنسانيَّةَ ، وهيَ القيَمُ الدّافعةُ إلى التّرابُطِ بينَ النّاسِ ، على أساسٍ : مِنَ المحبَّةِ والتّعاونِ .

لذلكَ بيّنتِ السُّورةُ الكريمةُ خُطورةَ جريمةِ هؤلاءِ الكُهّانِ ، وما ينتظِرُهُم مِنْ جزاءٍ على افترائِهِمُ الكذِبَ على اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، وسوءِ فعالِهِم . فيقولُ اللهُ تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(الأنعام:٩٣).

تُصوِّرُ الآيةُ الكريمةُ حالَ الماديِّينَ المُشركينَ ، بأنَّهُم يُنكرونَ اليومَ الآخِرَ ، فيكونونَ بذلكَ أكثرَ النّاسِ اعتداءً وظُلماً على أنفسِهِم وعلى غيرِهِم ؛ (لأنَّ منهُم

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الأنعام»، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

مَنْ يجرُؤُ على الاختلاق والكذبِ على اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، في أيّةِ صورةٍ . ومنهم من يدّعي : أنـهُ أُوحيَ إليهِ مِنْ قِبَلِ اللهِ شيءٌ ، . . . خِداعاً للنّاسِ وإيهاماً لَهُم بالباطلِ أنـّهُ على صلةٍ باللهِ . . . ومنهُم مِنْ يَزعُمُ قُدرتَهُ على أنْ يأتيَ بكتابٍ يُساوِقُ القُرآنَ ، كتابَ اللهِ تعالى ، تبجُّحاً وتضليلاً .

هذهِ الأنواعُ الثلاثةُ مِنْ أصنافِ المُشركينَ الماديِّينَ ، ليستْ قاصرةً على الوثنيِّينَ بمكّةَ ، على عهدِ الرّسولِ ﷺ ، وإنّما هيَ تتكرّرُ طالما كانَ هُناكَ اتّجاهٌ ماديٌّ سائدٌ ، . . . وكانتْ هُناكَ جاهليةٌ في أيِّ وقتٍ ، . . . إنَّ أخوفَ ما يخافُهُ الماديُّ : هيَ تلكَ اللحظَةُ التي تقتربُ فيها نهايَةُ حياتِهِ . إذْ هوَ بحُكمِ اتّجاهِهِ الماديِّ وتشبُّثِهِ بالحياةِ الدُّنيويَّةِ ، يَحرِصُ كُلَّ الحِرْصِ على طُولِ الاستمتاعِ بها)[1].

فالآيةُ هُنا تُصوِّرُ قَسوةَ لحظةِ الموتِ على الإنسانِ الماديِّ ، بسببِ إلحادِهِ في الإيمانِ واعتقادِهِ الباطِلِ ، تصويراً حِسيّاً .

ثمَّ التَّصوُّرُ الفنيُّ الدّقيقُ للملائكةِ : وهُم يَحثُّونَ أيضاً على خُروجِ أرواحِ الماديِّينَ المُلحدينَ مِنْ أبدانِهم ، قائلينَ لَهُم : إنَّ ما أنتُم فيهِ مِنْ شدّةِ الخوفِ والحُزنِ ، لحظةَ انتهاءِ أجَلِكُم في هذهِ الحياةِ الدُّنيا ، هو جزاءُ الهَوانِ والسُّخريَةِ ، يُصيبُكُم بسببِ ما اختلقتُم على اللهِ كَذِباً في صفاتِهِ ، وبسببِ ترفُّعِكُم عن هدايةِ اللهِ ، وعدمِ الطّاعةِ لَهُ ، كلُّ هذا بسببِ ماديّتِكُم ووثَنيّتِكُم وشِرْكِكُم باللهِ تعالى .

وتُنهي سورةُ الأنعامِ آياتِها ، ببيانِ تداوُلِ المُجتمعاتِ البشريّةِ على الأرضِ ، وتفاضُلِ النّاسِ في الأرزاقِ ، ابتلاءً واختباراً للغنيِّ والفقيرِ معاً : هل أعطى الغنيُّ حقَّ الآخرينَ مِنْ ثروتِهِ؟ وهل أنفقَ فيما ينفعُ ، أمْ أنفقَ في الإيذاءِ والضّررِ؟ . ولابتلاءِ الفقيرِ في فقرِهِ : هل صبرَ وتحمّلَ ؟ هل وكّلَ أمرَهُ إلى اللهِ ، أمِ امتلأَ صدرُهُ حِقداً على الآخرين؟ . وبذلكَ يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ

(١) محمد البهي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الأنعام»، ص٧٦، ٧٧.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

تُشيرُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى ، جعلَ المُجتمعاتِ البشريّةَ يخلُفُ بعضُها بعضاً على هذهِ الأرضِ ، بعَمارتها وإصلاحِها ، ومُقاومَةِ المفاسدِ ، والرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى بالعَمَلِ الصّالحِ والتّصرُّفاتِ الشّرعيّةِ ، كما يُحِبُّ ويرْضَى .

أمّا تداوُلُ المُجتمعاتِ ليسَ هو تعاقُبُ الأجيالِ (وإنّما هو تغييرُ مُجتمَعٍ إنسانيٍّ ، بمُجتمَعٍ إنسانيٍّ آخرَ . . . هو قيامُ مُجتمعٍ صالحٍ على أنقاضِ مُجتمَعٍ فاسدٍ . . . هو القضاءُ على مُجتمَعٍ ماديٍّ طغى بماديّتِهِ ، ليحِلَّ محلَّهُ مُجتمَعٌ إنسانيٌّ : يؤمِنُ بالقيَمِ الإنسانيّةِ العُليا ، . . . وإذا عُرِفَ : أنَّ المُجتمعاتِ ليست خالدةً ، وإنّها تتغيّرُ ليخلُفَ بعضُها بعضاً ، فالزّعامةُ لا تبقى فيها إلاّ إذا عَمِلَتْ بدُستورِ الهدايةِ الإلهيّةِ ، واللهُ بعدَ ذلكَ : لا يترُكُ عقابَ مَنْ ينحرِفُ عن هدايتِهِ ، في الوقتِ الّذي يغفِرُ لَهُ خطأَهُ ، إنْ تابَ وعادَ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتعالى في : اعتقادِهِ وعَملِهِ وسلوكِهِ ، ويشمَلُهُ في رحمتِهِ)[1].

بتحديدِ المقياسِ الذي يُقيَّمُ بِهِ عملُ الإنسانِ في الحياةِ ، وبوضعِ دُستورِ الحرامِ والحلالِ ، وما يَنبغي وما لا يَنبغي ، في الاعتقادِ والمُعاملاتِ والسُّلوكِ : تكونُ سورةُ الأنعامِ قد أضافت في بناءِ هدايةِ اللهِ للإنسان ، بجانبِ ما أزالتْهُ من عقَباتٍ في طريقِ هذهِ الهدايةِ ، ممّا كانَ يَضَعُهُ وَيَزْعُمُهُ ، أصحابُ الماديّةِ والشّركِ ، أو يُثيرونَهُ تحدّياً للقُرآن ، أو صدّاً عن سبيلِ اللهِ .

يتّضِحُ للباحثِ الهدفُ المقصودُ ، الذي أُشيرَ إليهِ هُنا في سورةِ الأنعامِ ، وهو : (منعُ التّدخُّلِ في الأموالِ الخاصّةِ من السُّلطةِ القائمةِ . [إذ] إنّهُ كانَ ذلكَ من

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الأنعام» ، ص١٣٢، ١٣٣.

العُرفِ الشّائعِ في المُجتمَعِ المكيِّ [الجاهليِّ] . . . [وما] يحدُثُ [اليومَ أيضاً] : نظيرُهُ في كُلِّ مُجتمَعٍ ماديٍّ ، على نحوِ إلغاءِ الملكيّةِ الخاصّةِ في المُجتمعِ الماركسيِّ الاشتراكيِّ ، [فهو إذاً] مُجتمَعٌ وثنيٌّ ماديٌّ . فإنْ عُرِفَ هدَفُ كُلِّ سورةٍ . . . وعُرِفَ مَعَ ذلكَ الهدفُ العامُّ لرسالةِ القُرآنِ ، عن طريقِ التّفسيرِ الموضُوعيِّ للقُرآنِ : كانَ مِنَ اليسيرِ تخطيطُ حياةِ الإنسانِ ، على أُسُسٍ موضوعيّةٍ ، تُكوِّنُ الأُصولَ العامّةَ لسياسةِ الحُكمِ في الإسلامِ . . . وللأخلاقِ في السُّلوكِ . . . وللموقفِ في العلاقاتِ الدّوليّةِ) [١] .

وليسَ يعني استخلاصُ الهدفَ الرئيسَ مِنْ كُلِّ سُورةٍ ، عن طريقِ التّفسيرِ الموضُوعيِّ ، هو أنْ لا تُفسَّرَ الآياتُ القُرآنيّةُ تِباعاً ، أوْ ألاّ يُوضَّحَ غريبُ المُفرداتِ فيه . بل معناهُ : بجانبِ هذا النّوعِ مِنَ التّفسيرِ ، الّذي درجَ عليهِ المُفسِّرونَ : يُمكِنُ استنباطُ الهدفَ الموضُوعيِّ ، وبذلكَ لا يضيعُ القارئُ بينَ أسطُرِ التّفسيرِ المُجزأ ، وما يَصحبُهُ مِنْ جَولاتٍ في فُروعِ الثّقافةِ العربيّةِ المُتعدِّدَةِ .

كما يتّضِحُ جانبٌ هامٌّ آخرُ ، في التّفسيرِ الموضُوعيِّ هو : إعجازُ القُرآنِ في موضُوعيّتِهِ ، وفي موائمَتِهِ للطبيعةِ الإنسانيّةِ .

* * *

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص ١٠٨ .

المبحثُ الثّاني

مؤلفاتُهُ في الفلسفةِ وعلمِ النّفسِ

كان «البهيُّ» عالماً ، أديباً ، لهُ كتاباتُهُ القيِّمةُ في الفلسفةِ وعلمِ النّفسِ[1]. مِنْ أهمِّ مؤلّفاتِهِ بهذا الصّددِ ، كتابُهُ : «الجانبُ الإلهيُّ مِنَ التّفكيرِ الإسلاميِّ» وتقومُ فكرتُه على الفصلِ بين الفكر الفلسفي الدّخيلِ[2] ـ الذي وجَدَ رواجاً من جانبِ بعضِ عُلماءِ المُسلمينَ ، مثلُ : الفلاسفةِ[3] والمتصوّفةِ[4] والكلاميينَ ـ وبينَ

---

(١) كان من باكورة أعماله في الفلسفة وعلم النّفسِ : ١ : رسالة التّخصُّصِ بعنوان «أثر الفكر الإغريقي في الأدب العربيِّ . . . نثراً ونظماً . ٢ : أثر الرُّوحية في توجيه الشباب . ٣ : نحو القرآن «تحديات فكرية وفلسفية» . ٤ : الشباب بين التطرُّف والشّكّ . ٥ : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي . انظر ، محمد البهي : مؤلفاته في الفلسفة وعلم النّفسِ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، لا . ط ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

(٢) الفكر الفلسفي الدّخيل : يقصد به فلسفةُ الغربِ الإغريقي اليونانيّ الوثنيّ ، وشروحُ الدِّياناتِ الشرقيّةِ الهنديّةِ والفارسيّةِ ، وكلامُ اليهودِ والمسيحيينَ ، حولَ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ . انظر ، محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص٣ .

(٣) الفلاسفة : مفردها «الفيلسوف» بوجهٍ عامٍ : هو الباحث في فروع الفلسفة ، وبوجهٍ خاصٍ : من يُعنى بالبحثِ عن عِلَلِ الأشياء ، وأسبابها الأولى . والفلسفةُ هي : دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة تفسيراً عقليّاً ، وكانت تشملُ العلومَ جميعاً ، وأصبحت الفلسفةُ مقصورةً على المنطق والأخلاق ، وعلم الجمال وما وراء الطبيعة . انظر . إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٤٨٠ .

(٤) المتصوفة : التّصوّفُ : طريقةٌ سلوكيّةٌ قوامها التّقشّفُ والتّحلّي بالفضائل ، لتزكوَ النّفسُ وتسموَ الروح . وعلم التّصوف : مجموعة المبادئ التي يعتقدها المتصوفة ، والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم. انتشر التّصوف: على مدار الزمان ، وشملَ معظم العالم الإسلاميّ . انظر ، الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٣٥٢ .

فلسفةِ الفكرِ الإسلاميِّ الأصيلِ ، الّذي مِنْ شأنِهِ المُحافظةُ على قِيمَةِ الإيمان ، وقِيَمِ المبادئ التي جاءتْ بها رسالةُ الإسلامِ للإنسانِ ، في حياتِهِ الفرديّةِ ، أوْ في مُجتمَعِهِ مَعَ غيرِهِ مِنَ النّاسِ .

لقدْ عُولِجَ هذا الأمرُ أيضاً مِن جانبٍ فريقٍ آخرَ من العلماءِ السّابقينَ ، كانَ في مُقدِّمَتِهِم «الغزاليُّ»[1]، حيثُ تنبّهُوا إلى ما تسرّبَ للمؤلفاتِ الإسلاميةِ ، مِنْ فلسَفَةِ الفكرِ الدِّينيِّ الأجنبيِّ : كالبوذيّةِ[2]، والمانويّةِ المسيحيّةِ[3]، والفلسفةِ

---

(١) الغزاليّ : هو حجة الإسلام الإمام أبو حامدٍ «محمد بن محمد الغزالي» توفي (٥٠٥هـ / ١١١١م) : فيلسوفٌ متكلِّمٌ متصوِّفٌ ، من أهل «طوس» بخراسان ، لقب بحجّة الإسلام ، تلميذ إمام الحرمين «أبي المعالي الجويني»، علّمَ في [المدرسة النّظاميّة] ببغداد ، وكتب «تهافت الفلاسفة»، وفيه كفّرَ الفلاسفة ، ثمّ مرّ بحالةٍ من الشّكّ ، قادته إلى الصّوفيّة ، فتركَ التّدريسَ وانصرف إلى التّزهّدِ ، وزار دمشقَ والقاهرةَ ومكّةَ ، وعادَ إلى نيسابور ، توفي «بطوس»، من كتبه :«إحياء علوم الدِّين» و«المنقذ من الضلال»، و«الاقتصاد من الاعتقاد»، و«الأسماء الحسنى»، و«مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة» ، نقض فيه آراء فلاسفة اليونان و فلاسفة العرب [والمسلمين] الذين أخذوا عنهم «كالفارابي وابن سينا» ، وقد أرجع خطأهم إلى عشرين مسألة ، أهمها : قِدَمِ العالَم ، وحشر الأجساد ، ونظرية السببيّة . انظر ، كرم البستاني : المنجد في الأعلام ، ص١٨١ ، ٣٩١ .

(٢) البوذية : نسبة إلى بوذا واسمه : «سنهاتا بن سلودانا» المولود سنة «٥٦٣» قبل الميلاد ، وهو من قبيلة «ساكيا» الهندية ، ولقّب ب« غوتاما» أي الراهب أو أسير الفلسفة الهنديّة ، ولُقّبَ أيضاً «موني» : أي : المنفرد المنعزل عن النّاس ، لمْ يعنَ «بوذا» بالحديث عن الإله ، ولكنه اتجهَ إلى الإنكار ، أكثر من اتجاههِ إلى جانبِ الإثباتِ ، وذهب بعض البوذيين إلى القولِ ، بأنَّ بوذا كائن لاهوتي ، هبط إلى هذا العالم ، لينقذه مما هو فيه من شرور . وقد تسرّبت هذه العقيدة ، كذلك لبعض الطّوائفِ المسيحيّةِ . انظر ، أحمد شلبيّ : أديان الهند الكبرى ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة ، ، ط١١ ، ١٩٩٩م ، ٤/١٣١-١٣٤ .

(٣) المانويّة المسيحيّةِ : هم أصحابُ ماني بن فاتك الحكيم ، ظهرَ بعدِ عيسى ابن مريم عليهِ السّلام ، أحدثَ ديناً بينَ المجوسيّة والنّصرانيّةِ ، وكانَ يقولُ بنبوّةِ المسيح عليهِ السّلام ، ولا يقول بنبوّةِ موسى عليهِ السلام ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ، [الفارسيّ الأصل] . انظر ، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني «٤٧٩- ٥٤٨هـ» : الملل والنّحَل ، تحقيق ، محمد سيد كيلاني دار صعب ، بيروت ، لا . ط ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ، ١/٢٤٤ .

الإغريقيّةِ ، واليهوديّةِ ، والبرهميّةِ[1] ، وغيرِها . بأنّـهُ ضلالٌ يتعارضُ تماماً مع هدي الإسلامِ .

ولكنْ أنتجتْ هذهِ المناقشةُ بينَ علماءِ المُسلمينَ موقفاً يؤيِّدُ الفلسفةَ الغربيّةَ الإغريقيّةَ الوثنيّةَ ، وموقفاً آخرَ مُنكراً لما وردَ فيها مِنْ مبادئَ .

أمّا المُستشرقونَ من الغربيينَ ، اعتبروها مرآةً تنعكِسُ عليها ، إيجابيّةُ الفكرِ الإغريقيِّ في تأهيلِهِ ، وسلبيّةُ الفكرِ الإسلاميِّ في تبعيّتِهِ لها .

يعرِضُ «البهيُّ» الجانبَ الإلهيَّ مِنَ التّفكيرِ الإسلاميِّ ، باحثاً أيضاً في جانبٍ واحدٍ ممّا عالجَهُ القُدامى قبلَ المُسلمينَ ، من إغريقيين وشرقيينَ ، مُضافاً إليهِ ما يُمثِّلُ الفكرَ الإسلاميَّ ، كما يُصَوِّرُهُ علماءُ المُسلمينَ الذينَ اشتغلوا بالفلسفةِ ، وهو جانبُ الألوهيّةِ ، ويُميِّزُ فيما يَعرضُهُ بينَ ما للمُسلمينَ وما لغيرِهِم ، ثمّ يضعُ ما يُنسَبُ إلى المسلمينَ ، في مواجهةِ ما يدعو إليهِ القُرآنُ الكريمُ ، كما يوصِلُ ما لغيرِ المُسلمينَ ، بربطِهِ بتُراثِ الماضي الدّينيِّ في الغربِ والشرقِ على السّواءِ ، ويخلُصُ إلى النّتيجةِ الضّروريّةِ التّاليةِ :

(إنَّ كتابَ اللهِ فيهِ اكتفاءٌ ذاتيٌّ ، في مجالِ الحُجيَّةِ والبرهَنَةِ على ما ينطوي عليهِ ، مِنْ مبادئَ وقوانينَ اجتماعيّةٍ وإنسانيّةٍ . وإنَّ عَمَلَ عُلماءِ المُسلمينَ فيما وردَ إليهِم من فلسفةٍ إغريقيّةٍ وشرقيّةٍ ، سواءٌ بالتّأييدِ أوِ المُعارضَةِ لها ، لم يكنْ لهُ من أثرٍ في حياةِ المُسلمينَ إلاّ تعقيدَ أُصولِ العقيدةِ الإسلاميّةِ ، وفتحَ مجالِ التّلبيسِ والاحتمالِ الذّهنيِّ ، فيما لا مجالَ فيهِ ، وتفتيتَ الاتجاهِ الإسلاميِّ إلى اتّجاهاتٍ عديدةٍ من اتّجاهاتٍ : المُتكلمينَ ، والفلاسفةِ ، والمُتصوِّفةِ ، وتزويدَ الطّائفيةِ والمذهبيّةِ في الأُمّةِ الإسلاميّةِ ، بما يُعمّقُ الهُوّةَ بينها في الجدلِ واللّجاجِ

---

(١) البرهميّةُ : نسبة إلى الإله «براهما» ، إذ عندما ارتقت الهندوسيّة في الهند ، تجمّعَ البراهمة في القرن الثامن قبل الميلاد ، فأعادوا التّفكيرَ في دينهم ، ووضعوا مذهبَ «البرهميّة» ، وقالوا بعبادة «براهما». انظر ، أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص٩٣ ، ٩٤ .

في الخُصومةِ العقَديّةِ ، .... إنَّ مواجهةَ الفكرِ الدّخيلِ أيّاً كان نوعُهُ ومصدرُهُ ... هيَ ضرورةٌ حتميّةٌ ، لبقاءِ المُجتمعِ الإسلاميِّ ، مُستقلاً [بأفكارِهِ العقَديّةِ] ومحافظاً على وحْدَتِهِ وقوّتِهِ)[1].

يتمتَّعُ منهجُ البحثِ في الجانبِ الإلهيِّ مَنَ التَّفكيرِ الإسلاميِّ عند «البهيِّ» : بأنّهُ اعتمدَ على النّقدِ العلميِّ في تناولِهِ وطرحِهِ ، فتجدُ الجِدَّةَ في العرضِ والتّصويرِ والاختلافِ ، ممّا جعلَهُ يخرُجُ عن أُسلوبِ الرِّوايةِ ، إلى بيانِ قيمةِ العملِ العقليِّ ؛ لأنّ تاريخَ التّفكيرِ الإسلاميِّ كعِلْمٍ : مُهِمَّتُهُ العرضُ المُحايدُ ، والوقوفُ على العملِ الذّهنيِّ ، وقيمتُهُ للمُسلمينَ ، وما فيهِ من استقلالٍ أو تبعيّةٍ . عِلْماً بأنَّ صَنْعَةَ الإنسانِ العقليّةِ ـ للمُسلمينَ أم لغيرِهِم ـ مهما بلغتْ من الدِّقَةِ والإتْقانِ ، تقْصُرُ عن أنْ تزيدَ في قيمةِ الإسلامِ ، أو أنْ تُنمّيَ الاعتقادَ بِهِ ، ومن باب أولى فهي عاجزةٌ من أنْ تُنشئَهُ .

بالرّغمِ من ذلكَ : فإنَّ الباحثَ في الفلسفةِ الإسلاميّةِ الإلهيّةِ ، يكتشفُ بأنّها ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ العملِ العقليِّ ، وتتميّزُ بموضوعِها فقط ، فهيَ تشمَلُ كلَّ تفكيرٍ إسلاميٍّ في اللهِ تعالى ، سواءٌ في تحديدِ ذاتِهِ وصفاتِهِ ، أو في شرحِ علاقتِهِ بالكونِ ، لِذا فإنَّ (المُسلمينَ لم يعنَوا بجانبٍ من جوانِبِ تفكيرِهِم ، كما عَنَوا بهذا الجانبِ الإلهيِّ [من حيثُ] الإلهُ وصفاتُهُ ، على نحوِ ما وردَ بِهِ الإسلامُ ، [لأنّهُ] الأساسُ الأولُ في كيانِهِم ووجودِهِم ، كجماعةٍ إنسانيّةٍ مُعيّنةٍ ، تميّزتْ بأنّها إسلاميةٌ ، [وأُمّةُ توحيدٍ] ، لها غرضُها وهدفُها في الحياةِ ، فكفاحُها في دعمِ هذا الأساسِ ، [هو] كفاحٌ من أجلِ هدفِها ، أو كفاحٌ في سبيلِ حفظِ بقائِها ، وأيّةُ ناحيةٍ مِنْ نواحي الجماعةِ الإنسانيّةِ ، تَمسُّ حفظَ بقاءِ الجماعةِ نفسِها . تلقى العنايةَ الأولى مِنْ تفكيرِها ، والحِرصَ الشّديدَ منها على صيانتِها)[2].

---

(١) محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ص ٣-٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢١ .

ساعدَ إذاً الجانبُ الإلهيُّ مِنَ التّفكيرِ الإسلاميّ ، في يقظَةِ الإيمانِ الإسلاميِّ ؛ لأنّهُ يدعو إلى التّمييز بينَ ما للأُمّةِ الإسلاميّةِ خاصّاً بها ، وبينَ ما هو زاحفٌ عليها من وثنيّةِ الإغريقِ منذُ القرنِ التّاسعِ الميلاديّ، التي أخذت صِبغةَ الفلسفةِ، وطابَعَ التفكيرِ الإنسانيِّ ، فكان موقفُهُ منها موقفَ التّوضيحِ والمواجهةِ ، التي لا تقلُّ في أثرِها عن مواجهةِ الفكرِ العلمانيِّ الصّليبيِّ في القرنِ التّاسعَ عَشَرَ ، ولا تقِلُّ كذلكَ عن مواجهةِ الفكرِ الماركسيِّ الإلحاديِّ في القرنِ العشرين ؛ لأنَّ الفلسفةَ الماركسيّةَ ، أضفتْ على العِلْمِ هالةً من القداسةِ ، إذ جعلَتْ لهُ كيانَ المعبودِ ، ودعتْ أتْباعَها إلى الاعتقادِ ، (بتثليثٍ آخرَ [يتمثّلُ] : بالعِلْمِ ، والمُجتمعِ ، والدّولةِ ، فأصبحتِ الفلسفةُ الماركسيّةُ [لدى أتباعِها] ديناً وعقيدةً . وقد أنكرتِ اللهَ . . [وأخذتْ] تُحرِّضُ النّاسَ على الانقلابِ ، [تحتَ شعارِ] مبدأ النّقيضِ . [وتدعو إلى التطوُّرِ] بالتّنكُّرِ للقيمِ الإنسانيّةِ والمستوى الفاضلِ ، وتُبشِّرُ بنفسِ الوقتِ بفلسفةِ حياةٍ فُضلى ، ومُجتمعٍ أفضلَ ، [تناقُضٌ غريبٌ ، لا يتّفِقُ والفطرةَ السّويّةَ ، أوِ الجِبِلّةَ الحُرّةَ الجادّةَ ، المُناهضةَ للشريحةِ الشيطانيّةِ ، والعقيدةِ الوضعيّةِ الوضيعةِ لأنّها] تُحرِّضُ النّاسَ على إنكارِ [ذاتِ] اللهِ ، وإنكارِ الدِّينِ ، وتضَعُهُم أمامَ إلهٍ جاهلٍ بمصيرِ الإنسانيّةِ ، رغمَ إنّهُ العِلمُ)[1].

فلا ينبغي للمُسلمينَ في حاضرِهِم ، أن يُغلقُوا أبوابَهُم أمامَ الفكرِ الفلسفيِّ المُعاصِرِ ، سيما أنَّ مصادرَ المعلوماتِ ، غدَتْ سهلةً ميسورةً ؛ نظراً للتطوُّرِ التّقنّي الحديثِ ، والثّورةِ العلميّةِ الهائلةِ ، التي ساعدتْ في سُرعةِ وسائلِ الاتصالاتِ ، ووسائطِ التّعلُّمِ المُتنوّعةِ ، ولكنْ يجبُ أنْ يتريّثُوا في قَبولِهِ ، ولا يتوانَوا في ردِّهِ إنْ كانَ يحمِلُ خطراً ، يُهدِّدُ وجودَهُم الإنسانيَّ والعقائديَّ .

---

(١) محمد البهي : الإسلام في الواقع الإيديولوجي المعاصر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م ، ص١٠٢-١٠٤ .

فالعِلمُ (والتكنولوجيةُ شيءٌ، والاتجاهُ الماديُّ الإلحاديُّ أو العَلمانيُّ شيءٌ آخرُ، وتقدُّمُ المُسلمينَ كما يعتمِدُ على العِلمِ والتكنولوجيةِ . . يتطلّبُ [بقاؤُهُم] على إسلامِهِم، إنْ هُم أرادوا أنْ يكونَ لَهُمُ الوصفُ بالإسلامِ، وأنْ يستمرّوا في [بناءِ] تاريخِهِمُ المجيدِ) [1].

يوجّهُ البهيُّ رسالتَهُ الفلسفيّةَ إلى الأمةِ الإسلاميّةِ، داعياً إلى يَقَظةٍ إيمانيّةٍ، تقومُ على العِلمِ والإسلامِ، وتقصّي المعرفةِ؛ لمواكبةِ التطوُّرِ التّقنّي الحديثِ، في ضَوءِ القيَمِ العُليا، التي تصونُ مُجتمعاتِ هذهِ الأُمّةِ من التّبعيّةِ أوِ الضّيَاعِ.

فَها هُوَ يتصدّى للأفكارِ الفلسفيّةِ الفارسيّةِ، والهنديّةِ، والإغريقيّةِ، التي كانت نتيجةً حتميّةً؛ نظراً لاتصالِ المسلمينَ بغيرِهِم من الأُمَمِ الأُخرى، لا سيما بعدَ الفتوحاتِ الإسلاميّةِ، وانتشارِ الإسلامِ خارجَ الجزيرةِ العربيّةِ، وبذلكَ عرفَ المُسلمونَ (مذهبَ الثنويينَ: وهُمُ القائلونَ بإلهيْنِ في تعليلِ نظامِ الوجودِ للعالمِ: إلهٌ للنُّورِ .. وآخرُ للظُّلمةِ، والأنوارُ في العالَمِ: هي الموجوداتُ العُليا، وعلى رأسِها نورُ الأنوارِ، بينما الظُّلمةُ: للمادةِ والكائناتِ التي تَبعُدُ عن مُحيطِ الأنوارِ في الأرضِ. وعن اتصالِ المُسلمينَ بالفكرِ الفارسيِّ، ظهرَ ما يُسمّى «بالإشراق» وهو اتجاهٌ يُلائِمُ [أوْ يتواءَمُ] بينَ تصوُّرِ الوجودِ في نظامِ الإسلامِ، على أنَّ اللهَ هو: الأوّلُ والخالقُ وحدَهُ، وبينَ ذلكَ التّصوّرِ الآخرَ، الذي توحي بهِ المثنويّةُ من ترتيبِ الموجوداتِ في النُّورِ . . . والظُّلمةِ. فأُطلِقَ على اللهِ: نورُ الأنوارِ . . . كما أُطلِقَ على الملائكةِ أنّهم: أنوارٌ، ونورانيونَ، يتلونَهُ في مرتبةِ الوجودِ، في تسلسُلِهِ . . . إلى المادّةِ . . . وانفتحَ أيضاً طريقُ الفكرِ الهنديِّ أمامَ المُسلمينَ، وهو تفكيرٌ قائمٌ على الدّعوةِ، إلى الهُروبِ منَ الدُّنيا، ومن الاستمتاعِ بمُتعِها . . . وهو تفكيرٌ صوفيٌّ، يستهدِفُ فناءَ الجسمِ في الإنسانِ وأقبلَ بعضُ العلماءِ من المُسلمينَ على هذا الاتجاهِ الصُّوفيِّ،

---

(١) محمد البهي: الجانب الإلهي من التفكير الإسلاميّ، ص٦.

والرّبطِ بينَهُ وبينَ ما يُطلبُ في الإسلامِ من الزُّهدِ ـ بمعنى عدمُ الإسرافِ ـ في استخدامِ مُتَعِ الحياةِ . فظهرَ في الفكرِ الإسلاميِّ الصُّوفيِّ : ما يُسمّى «بوحدةِ الوجودِ» وهو مفهومٌ يُعطي تصوّرَ اتصالِ روحِ الإنسانِ باللهِ تعالى . . ثمَّ اتحادُهُ بِهِ)[1].

لا ريبَ أنَّ فلاسفةَ الإسلامِ ، الذّينَ أرادوا أن يُعادِلوا ويجمعوا بينَ الفكرِ الفارسيِّ ، وما يدعو إليهِ في قضيّةِ ترتيبِ الموجوداتِ ، وما يعتقدُهُ المثنويونَ في موضوعِ التّوحيدِ ، قد جانبوا الصّوابَ ، بل وقعوا في الشركِ الأكبرِ ، لأنّهم خالفوا صريحَ القرآنِ الكريمِ في آياتِهِ قطعيّةِ الثُّبوتِ قطعيّةِ الدّلالةِ ، كقولهِ تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الحشر:٢٢-٢٤).

فهذا النّصُّ القُرآنيُّ : تبدأُ آياتُهُ الثّلاثةُ ببعضِ أسماءِ اللهِ الحُسنى ، وفيها صفاتُ التّوحيدِ والتّمجيدِ ، في قولهِ تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أو هوَ اللهُ .

ولكُلِّ اسمٍ من هذهِ الأسماءِ الإلهيّةِ الحُسنى ، أثرٌ في هذا الكونِ ملحوظٌ ، وأثرٌ في حياةِ البشرِ ملموسٌ ، فهيَ توحي إلى القلبِ بفاعليّةِ هذهِ الأسماءِ والصِّفاتِ . فاعليّةٌ ذاتُ أثرٍ وعلاقةٍ بالنّاسِ والأحياءِ . وليست هيَ صفاتٌ سلبيّةٌ أو مُنعزِلَةٌ عنْ كيانِ هذا الوجودِ ، وأحوالِهِ وظواهرِهِ المُصاحبةِ لوجودِهِ . فهيَ تُقرِّرُ في النّفسِ البشريّةِ السّويّةِ وحدانيّةَ الاعتقادِ ، ووحدانيّةَ الاتجاهِ ، ووحدانيّةَ العِبادةِ ، ووحدانيّةَ الفاعليّةِ من بدايةِ الخَلقِ إلى نهايتِهِ ، ويقومُ على هذهِ

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص١١٥ ، ١١٦ .

الوحْدانيّةِ : منهجٌ كاملٌ في التّفكيرِ والشُّعورِ والسُّلوكِ ، وارتباطاتِ النّاسِ في الكونِ وبسائرِ الأحياءِ ، وعلاقاتِ النّاسِ وارتباطِهِم ببعضٍ على أساسِ وحْدانيّةِ اللهِ .

على هذهِ الأعمدَةِ الرّاسخةِ تقومُ فلسفةُ الإسلامِ في مبدأ التّوحيدِ ، وهي تلتقي معَ الفِطرَةِ الصّوابِ المُستقيمةِ ، التي لا اعوجاجَ فيها ولا انحرافَ ، فأينَ هذا الطّرحُ من تعدُّدِ الآلهةِ في الفكرِ الفلسفيِّ الفارسيِّ ومذهبِهِ «الثنوي» ، وما يُدعى زوراً «بالإشراق»؟! وإنّهُ في واقعِ الحالِ ظلامٌ دامسٌ . ثمّ كيفَ يزعُمُ أدعياءُ التوفيقِ - من أصحابِ هذا الاتجاهِ الإشراقيِّ في التفكيرِ الإسلاميِّ - أنّهم يستطيعونَ أنْ يجمعُوا بينَ الفلسفةِ «الثنويّةِ» التي تزعُمُ أنَّ للكونِ إلهينِ هُما : إلهُ النُّورِ ، وإلهُ الظُّلمةِ ، وبينَ فلسفةِ الشُّعورِ لدى المُسلمينَ : بعلمِ اللهِ للظّاهرِ والمستورِ ، وصفاتِهِ التي توحي بالقهْرِ والغَلَبةِ والجبروتِ والاستعلاءِ ، فلا عـزيـزَ بحقٍّ إلاّ هـو ، ولا مُتكبّرَ بعدلٍ إلاّ هـو ، ولا جبّارَ برحمةٍ إلاّ هـو ، وما يُشاركُهُ أحدٌ في صفاتِهِ ، وما يتّصفُ بها سِواهُ ، فهو المُتفرِّدُ بلا شريكٍ ؟! .

وأمّا الردُّ على الفكرِ الفلسفيِّ الهنديِّ ، الذي يدعو للهروبِ من واقعِ الحياةِ الدُّنيا ، ومقتِها وعدمِ الاستمتاعِ في ملذّاتِها الطّيّبةِ المُباحةِ حلالاً ، وما شايعَهُ من فلسفةِ التفكيرِ الإسلاميِّ الصُّوفيِّ موافَقةً لَهُ ، بالإقرارِ والتّنفيذِ والمُتابعَةِ ، تحتَ سِتارِ الزُّهدِ ، والزُّهدُ منهُ براءُ ، كبراءةِ الذئبِ من دمِ يوسُفَ عليهِ السلامُ ، فهو أمرٌ مَردودٌ على أتْباعِهِ ، بقولِهِ تعالى :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧).

وإنْ كانت المناسبةُ في هذهِ الآيةِ الكريمةِ موجّهةً ، إلى قارونَ : الذي كانَ منَ الّذينَ آمنُوا برسالةِ موسى عليهِ السّلامُ ، وأصبحَ مِنْ قومِهِ وجماعتِهِ المُخلِصةِ لَهُ ، ولكنّهُ انحرفَ عن رسالةِ اللهِ تعالى ، وطغى بالمالِ واستكبرَ ، وجعلَ المالَ والدُّنيا كلَّ شيءٍ في حياتِهِ ، فلم يضَعِ الشيءَ المُناسِبَ في مكانِهِ

المُناسبِ ، فأصبحَ مُفرِّطاً : حالُهُ كحالِ من أخذَ النقيضَ الآخرَ من الدُّنيا ، فأهملَها ولم يكترثْ بمهامِّ ووظائفِ وجودِهِ في الكونِ . والعبرةُ هُنا بعُمومِ اللّفظِ وليسَ بخُصوصِ المُناسبةِ .

من النصائحِ الموجَّهةِ إلى « قارونَ » ومنْ هُم على شاكلتِهِ ، كالذينَ انغمسُوا بالفلسفةِ الهنديّةِ ـ ومن نهجَ منهجَهُم من بعضِ المُتصوِّفةِ ـ الدّاعيةِ إلى الهُروبِ من الحياةِ الدُّنيا . أنْ لا ينسَوا نصيبَهُم في الدُّنيا ، والاستمتاعَ بما فيها من منافعَ ماديّةٍ ، ولكنْ دونَ أنْ يُسرفُوا في الاستمتاعِ ، فاللهُ لا يُحبُّ المُسرفينَ . إذْ ليسَ معنى أنْ يبتغِيَ المُسلمُ الدّارَ الآخرةَ ، أنْ يزهدَ بالمالِ ويتجنّبَ الاستمتاعَ فيهِ ، كما فعلَ بعضُ فلاسفةِ المُسلمينَ من أصحابِ الاتجاهِ الصُّوفيِّ ، لاسيّما الذين أرادوا أن يوفّقوا بينَ الزُّهدِ في الإسلامِ ، وبين الفلسفةِ الهنديّةِ : (التي تستهدِفُ : فَناءَ الجسمِ في الإنسانِ ، واتّحادَ روحِهِ معَ «براهما» الإلهِ الأكبر [وفقَ المُعتقداتِ الهنديّةِ في الفلسفيّةِ القديمةِ] ، فظهرَ في الفكرِ الإسلاميِّ الصُّوفيِّ : ما يُسمّى «بوحدةِ الوجودِ» وهو مفهومٌ يُعطي تصُّورَ اتصالِ روحِ الإنسانِ باللهِ تعالى . . . ثمَّ اتّحادهِ بهِ ، وعندئذٍ يحِلُّ اللهُ في الإنسانِ ، أو تتّحِدُ روحُهُ بذاتِهِ جلَّ جلالُهُ)[1].

هذا الادّعاءُ كُفرٌ صُراحُ وشِركٌ أكبرُ ؛ لأنّهُ يتعارَضُ معَ قولِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١).

اللهُ تعالى هو ذو الكمالِ المُطلَقِ في كُلِّ شيءٍ ، فلم يَعُدْ بحاجةٍ إلى شريكٍ ، لا في الخَلْقِ والإيجادِ ، ولا في الأمرِ والنّهيِ ، لذا شتّانَ شتّانَ : بينَ مفهوم الإلَهِ لدى فلاسفةِ الهندِ ، من أتباعِ «براهما» ، وبينَ المفهومِ الإسلاميِّ ، نحوَ اللهِ تعالى . فلا مجالَ للتوفيقِ بين المفهومينِ ، كما حاولَ : الفلاسفةُ المُتصوِّفةُ بما يدْعونَهُ «وحدةَ الوجودِ» ، فوقعوا في خَطأ بيّنٍ ، وشِركٍ أكبرَ ؛ لأنَّ ادعاءَهُم :

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص١١٨ .

باطِلٌ شرعاً وعقلاً . فإنّهُ ليسَ للهِ سبحانَهُ وتعالى مثيلٌ ولا نظيرٌ في ذاتِهِ أو صفاتِهِ أو أفعالِهِ (فهوَ الواحِدُ الأحدُ ، الفردُ الصّمدُ ، والغرَضُ [هُنا في الآيةِ الكريمةِ] تنزيهُ اللهِ تعالى عن مُشابهةِ المخلوقينَ ، والكافُ [في قولِهِ تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ لتأكيدِ النّفيِ أي : ليس مِثْلَهُ شيءٌ . [فهو] ليسَ كذاتِهِ ذاتٌ ، ولا كاسْمِهِ اسمٌ ، ولا كفِعْلِهِ فِعْلٌ ، وهذا مذهَبُ أهلِ الحقِّ . أهلُ السُّنّةِ والجماعةِ ، وهو تعالى السميعُ لأقوالِ العبادِ ، البصيرُ بأفعالِهِمْ)[1].

يستطيعُ الباحثُ أنْ يؤكّدَ : أنَّ عمليّةَ التوفيقِ التي تبنّاها بعضُ فلاسفةِ الإسلامِ ، لتقريبِ وجهاتِ النّظرِ معَ الفلسفةِ المشار إليها سابقاً ، هي دعوةٌ خاسرةٌ ؛ لأنّها تركت أثراً سلبيّاً كبيراً ، على تعقيدِ الفهمِ لما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ ، إذْ وضعتِ المُسلمينَ في تلكَ الآونةِ ، في متاهاتٍ جدليّةٍ عقيمةٍ ، لا تنتهي إلاّ إلى المراءِ والخِلافاتِ والخُصوماتِ ، وعدمِ الخُروجِ بحلٍّ واضحٍ لأيِّ مُشكلٍ ، وليسَ أدلَّ على ذلكَ ، مِنْ تحدّياتِ فلسفةِ الفكرِ الوثنيِّ الإغريقيِّ ، حيثُ خَلقَتْ عدّةَ مشاكلَ في التُّراثِ الفكريِّ الإسلاميِّ ، كانَ مِنْ أهمِّها : مُشكلةُ الصّلاحِ والإصلاحِ ، أو مُشكلةُ العدلِ الإلهيِّ (وهيّ تتّجِهُ إلى أنَّ العقلَ البشريَّ ، يَصِلُ بمنطِقِهِ إلى وجوبِ الأصلحِ على اللهِ . إذْ في تحقيقِ الأصلَحِ للإنسانِ يتحقّقُ العدلُ الإلهيُّ . « وتُسمّى « المُعتزِلَةُ »[2] ـ من أجلِ احتضانِها

---

(١) محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، ١٣٤/٣ ، ١٣٥ .

(٢) المُعتزِلَةُ : أُولى المدارس الكلاميّةِ الكُبرى ، تؤمنُ بالعقلِ وتُحاولُ التّوفيقَ بينهُ وبينَ النّقلِ ، وتلجأُ إلى التّأويلِ ما وسِعَهَا ، وفي هذا ما باعدَ بينها وبينَ السّلَفِ وأهلِ السُّنّةِ . أسّسَهَا « واصِلُ بن عطاء » وهو رئيسُها الأول من سنة « ٨٠-١٣١هـ » ، ومن أكبر رجالها : « أبو هُذيل » و« إبراهيم النّظّام » . وتقول المعتزلةُ : بنفي صفات الباري [عزَّ وجلَّ] ، من العلمِ ، والقدرة ، والإرادةِ ، كما قالوا بنفي القَدَرِ ، ومن الذينَ قالوا بذلك « معبد الجهني » و« غيلان الدمشقي » ، فأمرَ « هشام بن عبد الملك » بصلبِ « غيلان » على باب دمشق . انظر ، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني : الملل والنِّحَل ، ص٤٦ ، ٤٧ .

لفكرةِ العدلِ ـ باسمِ أهلِ العدلِ . لأنّهُم يُحكّمونَ العقلَ في تحديدِ الأصلحِ ، ولكنّهُم يتجاهلونَ أنَّ . . . التّجربةَ معَ آدمَ [عليهِ السّلامُ] في الجنّةِ أتت بعدم استطاعةِ العقلِ : كشفِ الأصلحِ لَهُ)[1].

وقد بيّنَ القُرآنُ الكريمُ ، اعترافَ آدمَ وحواءَ بالخطأ والمعصيةِ ، ولم يكُنِ العقلُ واقياً لَهُما إذْ ذاكَ ، من الوقوعِ في الخطأ ، فضلاً عن عدمِ قُدرتهِ هدايتِهما إلى الأصلحِ لهُما . ثمَّ عبّرا عن ندمِهما في انكسارٍ وتضرُّعٍ ، إلى اللهِ تعالى جلَّ جلالُهُ ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف:٢٣-٢٥).

هذهِ التّجربةُ التي مرَّ بها آدمُ وزوجُهُ حوّاءُ ، هي تجربةٌ أُختُبِرَ فيها العقلُ البشريُّ ، في قُوّتهِ في الجذبِ نحوَ المُتَعِ الماديّةِ ، وذلكَ عندما وُضِعَ أمامَ الإغراءِ الماديِّ وجهاً لوجهٍ ، وهوَ المَنْعُ من مُتعةٍ مُعيّنةٍ . وفي هذهِ المواجهةِ كشفَ العقلُ عن ضَعفِهِ ، وأصبحَ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى زيادةٍ قويّةٍ ، تُعينُهُ في الصُّعودِ بالإنسانِ نحو السُّموِّ في الإنسانيّةِ ، والتّرفُّعِ عن الدّنايا والمُتَعِ الماديّةِ ، والخُضوعِ إليها وحدَها ، بل والاستسلامِ إلى ما هوَ ماديٌّ فقط .

طالما أثبتَ العقلُ الإنسانيُّ فَشَلَهُ وعَجزَهُ ، في تحقُّقِ الأصلحِ للإنسانِ نفسِهِ ، بصفةٍ دائمةٍ وحالاتٍ مُستمرّةِ الإطلاقِ ، فمِنْ بابِ أولى أنْ لا يستطيعَ بمنطقِهِ أن يصِلَ إلى وجوبِ الأصلحِ على اللهِ تعالى ، كما يزعُمُ أصحابُ الفكرِ الفلسفيِّ الوثنيِّ الإغريقيِّ ، ومَنْ تَبِعَهُم مِنْ أمثالِ فلاسفةِ فِكْرِ المُعتزِلَةِ الضّالَّ

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص١١٩ .

المتكلمين المسلمين[1]، لدفع خطر الشرك عن المجتمع (بإبعاد الصنعة العقلية عن مجال الألوهية، ووضع الإيمان وتركيزه في القلب، بدلاً من تركه في مركز المناقشة العقلية، حيث إن العقل البشري [محدود، ويقع تحت مجال الظن والتخمين] ولذلك كان علم الكلام في نظرهم علماً لا ينشئ عقيدة، ولا ينمي اعتقاداً)[2].

لكن عندما يكون مصدر الأوامر في المجتمع واحداً، وهو الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك يقود المجتمع إلى التراحم والانسجام، ولهذا حرّم الله تعالى الشرك به، وأوجب إفراده في العبادة والطاعة؛ لكي يحفظ المجتمع الإنساني، من الولوج في مواجهات ومهاترات ثم صراعات، لذا فقد اعتبر الرسول ﷺ، الشرك بالله هو أكبر الكبائر، لما له من خطورة على الفرد والمجتمع، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ

(١) ونذكر منهم: أبو بكر الباقلاني، الإمام أبو حامد الغزالي، والجويني: وهو إمام الحرمين الشريفين في مكة والمدينة. الباقلاني: ويسمى أبو بكر محمد بن الطيب ابن محمد بن جعفر الباقلاني «٣٣٨-٤٠٣هـ/٩٥٠-١٠١٣م». كان قاضٍ، من كبار علماء الكلام، ولد في البصرة وسكن بغداد وحصل من العلم ما حصل ثم بلغ الأستاذية. كان أبوه يبيع الباقلاء، تولى منصب القضاء وكان سنيًا في عقيدته. وله ما يقرب من خمسين كتاباً في مختلف الفروع الثقافية المعروفة. انظر، عبد الرؤوف مخلوف: الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليليه نقدية، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لا. ط، ١٩٧٨م، ص٧٢-٨٢. أما الإمام الجويني: يسمى أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني «٤١٩-٤٧٨هـ». اشتغل إمام الحرمين تسعاً وخمسين سنة، ينسب إلى جوين التي يسميها أهل خراسان «كويان» فعربت فقيل جوين. لكنه ولد في «بشتنقان» وتبعد فرسخ من نيسابور. عاش في بيئة علم نشط وفكر متوثب وآراء متدافقه متنافسة. كان والده إمام عصره في نيسابور. وأصله من قبيلة سنبس الطائية العربية، انظر المرجع السابق نفسه.

(٢) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص٢٣٨.

فقالَ : «ألا أُنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائرِ ـ ثلاثاً ـ : الإشراكُ باللهِ ، وعُقوقُ الوالِدَيْنِ ، وشِهادَةُ الزُّورِ . أوْ : قولُ الزُّورِ»[1]. وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ ، فما زالَ يُكَرِّرُها حتّى قُلْنا ليتَهُ سَكَتَ .

فهذِهِ الكبائرُ التي حذَّرَ مِنْها الرَّسُولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . كما نهى الشَّرعُ الحنيفُ عنها أيضاً ؛ نظراً لِكِبَرِ قُبحِها وعظيمِ خَطَرِها ، فإنَّ مَنْ يرتَكِبُها تنقطعُ حِبالُ اتصالهِ معَ اللهِ تعالى ثمَّ يخسرُ أقربَ النّاسِ إليهِ .

ولمّا كانَ الإنسانُ اجتماعيّاً بطبعِهِ ، فلا بُدَّ لَهُ مِنَ الاشتراكِ معَ غيرِهِ مِنَ البَشَرِ ، في تحقيقِ المصالحِ المُتَبادَلَةِ ، التي ينبغي أنْ ينسجمَ فيها السُّلوكُ السَّويُّ للإنسان ، بما يُحيطُ بِهِ من الكون ، انسجاماً إيمانيّاً مُتوازناً ، يلتقي بفلسفةِ الفطْرَةِ أو الجِبِلَّةِ التَّوحيديّةِ التي خُلِقَ عليها البشرُ ، ويشيرُ اللهُ تعالى إلى هذا بقولِهِ سُبحانَهُ :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

(الروم: ٣٠-٣٢).

لماذا هذا التّوجيهُ الإلهيُّ لإقامةِ الوجْهِ للدّينِ اتجاهاً مُستقيماً؟ ؛ لأنَّ هذا الدِّينَ هو العاصِمُ مِنَ الأهواءِ المُتفرِّقَةِ ، الّتي لا تستنِدُ على حقٍّ ، ولا تُستمَدُّ من علْمٍ ، إنّما تتبَعُ الشّهَواتِ والنَّزَواتِ بغيرِ ضابطٍ ولا دليلٍ . .

أمّا الأمرُ في الآيةِ الكريمةِ وإنْ كانَ موجَّهاً إلى الرّسول ﷺ ، إلاّ أنَّ المقصودَ بِهِ جميعُ المؤمنينَ ، لذلكَ يستمرُّ التّوجيهُ لَهُم مُفصَّلاً معنى إقامَةِ

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(٢٠٤-٢٦١) : مختصر صحيح مسلم ، اختصره عبد العظيم عبد القوي المنذري ، اليمامة للطباعة والنشر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ، رقم الحديث(٤٦) ، ص٢٥ .

الوجهِ للدّينِ : بالإنابةِ إلى اللهِ تعالى في كُلِّ أمرٍ ، وبالتّوحيدِ الخالِصِ الّذي يُميِّزُ المؤمنينَ مِنَ المُشركينَ . فدينُ اللهِ سبحانَهُ وتعالى الإسلامُ : (هو الطريقُ الذي يَتمشّى معَ الطّبائعِ البشريّةِ في خصائِصِها النّفسيّةِ ، والاجتماعيّةِ ، على نحوِ ما أعدَّها اللهُ تعالى وهيأها . . . . فهو يتلاءمُ [يتواءَمُ مَعَها] ولا يتبدّلُ ؛ [لأنَّ صلاحيّتَهُ] لتوجيهِ الإنسانِ ، فوقَ الزّمانِ والمكانِ ، أي لا تُحَدُّ بمكانٍ مُعيَّنٍ ولا بوقتٍ مُعيَّنٍ .

لأجْلِ أنّهُ دينُ الفطرةِ ، دِيْنُ الخصائِصِ النّفسيّةِ والاجتماعيّةِ للإنسانِ : فيجبُ على المؤمنينَ بهِ منْ أتباعِ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، [بأنْ] يرجِعُوا إلى اللهِ مُخلِصيْنَ خالِصاً ، وأنْ يتحوّلوا تحوُّلاً تامّاً عمّا كانَ لَهُم مِنْ اعتقادٍ ، وعاداتٍ وتقاليدَ في المُجتمَعِ الجاهليِّ ، ويتجنّبُوا كلَّ ما يقعُ مِنهُم مِنْ مُنكرٍ وفاحشةٍ ، ويُقيمُوا الصّلاةَ : [عبادةً] تربطُ بينَ قلوبِهم [مَعَ اللهِ] جلَّ جلالُهُ ، بحيثُ يكونُ هُناكَ فَرقٌ واضحٌ ، بينَ مُجتمعِهِم الجديدِ ، والمُجتَمَعِ السّابقِ ، وهو مُجتمَعُ الشّركِ) [1].

بهذهِ المفاهيمِ أصبحَ المُجتمعُ الجديدُ ، الّذي تحوّلَ إليهِ المؤمنونَ برسالةِ الرّسولِ محمدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، هو مُجتَمَعُ الوحدةِ في الألوهيّةِ . فهو مُجتمَعٌ غيرُ مُمزّقٍ إلى شِيَعٍ وأحزابٍ ، وبالتّالي هو مُجتمَعٌ واحدٌ مُتماسِكٌ . وبفلسفةِ الوحدةِ والتّماسُكِ والتّكامُلِ والتّعاونِ ، يتمايزُ المُجتمعُ الإيمانيُّ ، عن مُجتَمعِ الشّركِ والطّوائفِ والأوثانِ والأحزابِ ، لأنَّ هذهِ الشّيَعَ والأحزابَ يتعدّدُ هواها وتتمسّكُ بكُلِّ فرحٍ وسرورٍ ، بعاداتِها وتقاليدِها ، بالرّغمِ أنّهُ لا يوجدُ حزبٌ من الأحزابِ ولا شيعةٌ مِن الشّيَعِ ـ القائمةِ على الشّركِ ـ تستطيعُ أنْ تدّعيَ بأنّها تُمثّلُ الحقَّ بذاتِهِ ولذاتِهِ .

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الروم»، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ، ص٢٩ ، ٣٠ .

لأنَّ الحقَّ واضحٌ بيِّنٌ في اتِّباعِ آياتِ اللهِ تعالى القُرآنيَّةِ ، وإنَّ الحُجَّةَ في هذا الدِّينِ الإسلاميِّ لواضحَةٌ ، فما يتخلَّفُ أحدٌ عنهما يعلمُهما إلاَّ أنْ يكونَ الهوى هو الذي يصُدُّهُ . وإنَّهما طريقانِ لا ثالثَ لَهُما : إمَّا : إخلاصٌ للحقِّ وخُلوصٌ مِنَ الهوى ، وعندئذٍ لا بُدَّ مِنَ الإيمانِ والتّسليمِ ، وإمّا : مُماراةٌ في الحقِّ واتِّباعٌ للهوى فهو التكذيبُ والشِّقاقُ ، فلا حُجَّةَ مِنْ غُموضٍ في العقيدةِ ، أوْ نقصٍ في الدَّليلِ ، كما يدّعي المُعرضونَ ، المُقلِعونَ عن سُنَنِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى ، وقد أخبرَ القُرآنُ الكريمُ مُصوِّراً عدمَ استجابتِهم ، حيثُ يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص:٥٠) .

فالّذينَ لا يستجيبونَ لهذا الدِّينِ : مُعرِضُونَ غيرُ معذورينَ ، مُتجَنُّونَ لا حُجَّةَ لَهُم ولا معذِرَةَ حقيقيَّةً عندَهُم ، فهُم في جدلِهم ومُعارَضتِهم ورفضِهم لرسالةِ اللهِ تعالى ، ينطلقُونَ مِنَ الفلسفةِ المادِّيَّةِ المبنيَّةِ على الأهواءِ ، وليسَ هُناكَ بينَ البشرِ مَنْ هُوَ أكثرُ ضلالاً وحَيْرةً ، مِنَ الذي يترُكُ هِدايةَ اللهِ تعالى عمداً وقصداً .

لذلكَ فإنَّهُ بلا شكٍّ سيكونُ مُنغمِساً بأنانيَّةِ ذاتِهِ ومُتطلَّباتِها التي لا تنتهي ، وكثيراً ما تكونُ مُتناقِضَةً ، فلا يستقيمُ لَهُ أمرٌ ، وعندها يستعذِبُ الأخطاءَ والآثامَ .

ومن أبرزِ مؤلفاتِهِ في علمِ النَّفسِ : أثرُ الرّوحيّةِ[1] في توجيهِ الشّبابِ[2]:

---

(١) الروحيّةُ : الرُّوحُ بالضّمِّ ، يُذكّر ويؤنّث ، والجمعُ «الأرواح» ما بِهِ حياةُ الأنفُسِ ، والرُّوحانيُّ : بالضّمِّ ، ما فيهِ الرُّوح ، ومكانٌ روحانيٌّ : بمعنى طيِّب . ويسمى القرآن وعيسى وجبريل عليهما السلامُ روحاً ، وبالنسبة إلى الملائكةِ والجنِّ «روحانيٌّ» ، بضمِّ الرّاء ، والجمع : روحانيُّونَ ، وكلُّ شيءٍ فيه رُوحٌ ، فهو رُوحانيٌّ بالضّم . انظر ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، ص٢٦١.

(٢) الشّباب : الفتاء ، كالشَّبيبةِ ، وقد شَبَّ يَشِبُّ ، مفردُها : شابٌّ ، وامرأةٌ : شبّةٌ وشابّةٌ . انظر ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، رتّبه ووثّقه ، خليل مأمون شيحا : م . س ، ص٦٦٢ .

الشَّبابُ هو مرحلةٌ بينَ الطُّفولةِ السَّابقةِ لَهُ والرُّشدِ المُنتظَرِ ، وللطُّفولةِ في حياةِ الإنسانِ مظاهرُ نفسيّةٌ واضحةٌ مثلُ : الميلُ الشّديدُ إلى التّملُّكِ ، وعدمُ الشُّعور بتحمُّلِ المسؤوليّةِ ، في مواجهةِ الأمرِ الواقعِ والاعترافِ بهِ ، فتتّسِمُ تصرُّفاتُهُ بالعُدوانِ أو الاعتداءِ . وسيلتُهُ في تحصيلِ رغَباتِهِ البُكاءُ غالباً ، يميلُ إلى تحريكِ والديهِ في تحقيقِ المنفعةِ ، ولا يتحرّكُ هو إلاّ بمقدارِ ما يُثيرُهُما ، يعتمِدُ على وساطتِهما ، ولا يُباشِرُ السّعيَ الموصِلَ إلى هدفِهِ بنفسِهِ .

وللرُّشدِ الإنسانيِّ مظاهرُهُ النّفسيّةُ الخاصّةُ بهِ أيضاً ، فالرّشيدُ : هو صاحبُ المُستوى الإنسانيِّ النّاضجِ ، فإنّهُ على الضّدِّ من خصائصِ الطِّفلِ السابقةِ ، فهو يعرفُ حقَّ نفسِهِ وحقَّ غيرِهِ ، وواجبَ نفسِهِ نحو المُجتمعِ الذي يعيشُ فيهِ ، يُفرِّقُ بينَ الحُرُماتِ التي لَهُ والتي لا يصحُّ الاعتداءُ عليها .

إنّ الرُّشدَ الإنسانيَّ هوَ : (الفصلُ بينَ القِيَمِ وعدمُ الخلطِ فيها ، . . . [لذا فالمرءُ الرّشيدُ] حرٌّ ، ولكنَّ حُريّتَهُ محدودةٌ بمُجتمَعِهِ ، فلَهُ أنْ يُمارِسَ نشاطَهُ في كلِّ ما يعودُ عليهِ بالنّفعِ ، ولكنْ [حيثُ] لا يضُرُّ مُجتمَعَهُ ، . . . فالرّشيدُ هو الإنسانُ المُميِّزُ لوجودِهِ ووجودِ غيرِهِ ، ووجودِ مُجتمَعِهِ . هو الإنسانُ المسئولُ ، صاحبُ الشّجاعةِ الأدبيّةِ ، . . . الذي يواجِهُ الأحداثَ والأزماتِ بالصّبرِ [والثّباتِ] والتّحمُّلِ . . . يعتَرِفُ بالخطأ . . . لا يكذِبُ ، ولا يواري ، ولا يُجادلُ ، ولا يلتوي في دفعِ المسئوليّةِ الشّخصيّةِ ، . . . يُشارِكُ غيرَهُ في تبادُلِ العواطفِ السّارّةِ وغيرِ السّارّةِ ، . . . ولَهُ آدابُهُ العامّةُ مِمّا يُسمّى [بالعاداتِ والتّقاليد] . . . ويُنفِّذُ ما يعرِفُ في سلوكِهِ ، هو الإنسانُ الذي يُباشِرُ بنفسهِ السّعيَ في الحياة ، لتحصيلِ أهدافِهِ دونَ وساطةٍ ، أو اعتمادٍ على غيرِهِ)[1].

الرّشيدُ مِنَ النّاسِ ، هو الذي يُفرِّقُ بينَ مُلْكِهِ وبينَ ما يملِكُ غيرُهُ ، فلا يطغى بأنانيّتِهِ على الوجودِ والحياةِ التي يعيشُ فيها ؛ لأنّهُ يسيرُ على طريقِ

---

(١) محمد البهي : أثر الروحية في توجيه الشباب ، ص٤٣٠ ، ٤٣١ .

مُستقيمٍ ، لا اعوجاجَ فيهِ ، بعدَ أنْ تحرّرَ من فتنةِ غرائزِهِ ، وإغراءِ شَهَواتِهِ المادّيّةِ ، فهو يختارُ ما يريدُ ويشاءُ ، لا ضغطَ عليهِ مِنْ داخلِ ذاتِهِ أو خارجِها ، فَهُوَ يعيشُ متوائماً معَ نَفسهِ مِنْ جِهَةٍ ، ومعَ مُحيطِهِ مِنْ جهةٍ أُخرى ، ثمّ يحرِصُ على قيمةِ العدلِ في قولِهِ ، وحُكْمِهِ وتصرُّفاتِهِ .

علماً أنّ (العدلَ يُصوِّرُ مرحلةً في حياةِ الإنسانِ ، لم يصلْ إليها إلاّ بعدَ تجاربَ شاقةٍ في صراعهِ معَ ذاتِهِ . إنّ هذهِ المرحلةَ تُمثِّلُ : التّنازُلَ عنْ حِدَّةِ الأنانيةِ ، إلى الاعتدالِ فيها ، حيثُ لمْ تعُدْ تَطغى على القولِ ، أو الحُكمِ ، أو التّصرُّفِ للإنسانِ العادلِ ، . وليست مُباشرةُ الإنسانِ للعدلِ ، واستقامتُهُ في السُّلوكِ العمليِّ ، شيئاً سهلاً هيّناً ، . . إنّ الاستقامةَ في السُّلوكِ تُصوِّرُ مِنْ جانبِها عَزلَ الإغراءِ الماديِّ عَزْلاً كافياً ، عنْ أنْ يكونَ ذا شأنٍ في علاقةِ الإنسانِ بالآخرينَ معَهُ . وهذا معناهُ تهيؤُ الإنسانِ ، [للتّعاوُنِ] وللتّوادِّ معَ غيرِهِ في المُجتمعِ)[1].

لا غَرْوَ أنّ الماديّةَ البحتةَ بألوانِها المُتعددَةِ ، مِنْ أخطرِ سلبياتِ فلسفتِها هو : إنكارُ الذّاتِ الإلهيّةِ ، فالمادّيّونَ الغربيُّونَ والشّرقيونَ ، ينفرونَ كلُّهُم من التّوحيدِ ، لسببٍ بسيطٍ ألا وهو إنّ الشركَ باللهِ ، هو طريقهُم الذي يُحقِّقُ لَهُم ـ كما يزعُمُونَ ـ المُتَعَ الحسيّةَ البهيميّةَ ، التي وراءَها يسعَوْنَ ، ومِنْ أجلِها يعيشونَ ويلهثونَ .

ذلكَ لأنّ الشّركَ لا يُطالِبُ أتباعَهُ بالرُّوحيَّةِ ولا المثاليّةِ ولا الإنسانيّةِ ، فهم يعتزُّونَ بالقُوّةِ الماديّةِ فحَسْبُ ، ويجرُونَ وراءَ السّيطَرةِ على الشُّعوبِ ، التي لا تملِكُ حُريّةَ الدِّفاعِ عن نفسها . لذا كانَ الشِّركُ في عُبوديّةِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى أبغضَ شيءٍ في التّعاليمِ الإسلاميّةِ . يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١١٦).

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن» ، ص ١٩ .

فالإيمانُ بوحدانيَّةِ اللهِ هو الإيمانُ بالكمالِ المطْلَقِ في الذّاتِ الإلهيَّةِ ، وأسمائِهِ وصفاتِهِ .

الإيمانُ بالكمالِ وحدَهُ يدفعُ إلى التّقرُّبِ منهُ ، والسّعيِ نحوَهُ ، وليس إلى التّردُّدِ بينَهُ وبينَ نقيضِهِ ، وهو النّقصُ المُتمثِّلُ بالشّرْكِ .

التّقرُّبُ من الكمالِ يدفعُ إلى التّرفُّعِ عن الدّنايا ، والانحطاطِ ، والحيوانيّةِ ، وهو أيضاً (يدفعُ إلى الخُروجِ عنْ خصائصِ الطُّفولةِ ، إلى خصائصِ الرُّشدِ في الإنسانيّةِ ، فخصائصُ الرُّشدِ الإنسانيُّ هيَ : خصائصُ الكمالِ في البشريّةِ ، ولأنَّ الإيمانَ بوحْدانيَّةِ اللهِ تعالى،لَهُ في الإسلامِ هذا الأثرُ الإيجابيُّ في توجيهِ الإنسان، وهو التّوجيهُ نحو الكمالِ وحدَهُ ، دونَ تردُّدٍ بينَهُ وبينَ نقيضِهِ ، لذا كانتِ الوحدَةُ في عبادةِ اللهِ ، هي رسالةُ السّماءِ في كلِّ عهدٍ)[1] .

تدعو وَحْدَةُ الأُلوهيّةِ إذاً إلى القيَمِ المثاليّةِ ، ولا يتّجِهُ إليها إلاَّ مَنْ تخلّصَ مِنْ سيطرَةِ الأنانيّةِ ، وارتفعَ إلى مُستوى المُثُلِ العُليا ، والتي من شأنِها تهذيبُ الأرواحِ والنفوسِ البشريّةِ ، حيثُ يغدُو الإنسانُ إنساناً رساليّاً ، يعمُرُ الكونَ حُبّاً ، وإخلاصاً ، وتعاوناً ، وِفقَ منهجِ الله تعالى ، إذْ يقول اللهُ سُبحانَهُ وتعالى :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:٢٨-٣٢).

---

(١) محمد البهي : أثر الروحية في توجيه الشباب ، ص ٦ ، ٤٣٣

النِّعمةُ التي يمتَنُّ اللهُ تعالى بها على النّاسِ في النّسقِ القُرآنيِّ هُنا ـ وهو يستنكِرُ كُفرَهُم بهِ ـ ليست مُجرّدَ الإنعامِ عليهِم بما في الأرضِ كُلّها ، ولكنّها ـ فوقَ ذلكَ ـ سيادتُهُم على ما في الأرضِ جميعاً ، ومنحُهُم قيمةً أعلى من قيَمِ الماديّاتِ التي تحويها . ألا وهيَ نِعمةُ الاستخلافِ والتّكريمِ فوقَ نعمةِ المُلكِ والانتفاعِ العظيمِ ، منْ هذا الكونِ بأرضِهِ وسمائِهِ ، في مَعْرِضِ (استنكارِ كُفرِ النّاسِ [الماديّين] بالخالقِ المُهيمنِ المُسيطِرِ ، الذي سخّرَ لَهُمُ الأرضَ بما فيها ، ونسّقَ السماواتِ بما يجعلُ الحياةَ على الأرضِ مُمكنةً مُريحةً ؛ فاللهُ تعالى خالقٌ وعالِمٌ ومُدبِّرٌ كُلَّ شيءٍ . وشُمولُ العِلْمِ في هذا المَقامِ كَشُمُولِ التّدبيرِ ، حافزٌ مِنْ حوافزِ الإيمانِ بالخالقِ الواحدِ ، والتّوجُّهِ بالعبادةِ للمُدبِّرِ الواحدِ . وإفرادُ الرّازقِ المُنعمِ بالعبادةِ ، [يُعتَبَرُ] اعترافاً بالجميلِ)[1] .

إنَّ الذي يتتبّعُ عقْدَ استخلافِ آدمَ عليهِ السّلامُ ، وذُريّتَهُ من بعدِهِ في الأرضِ ، يوقِنُ بأنَّ التّناسُقَ الفنيَّ والنّفسيَّ ، في التّصوُرِ القُرآنيِّ للاستخلافِ ، قائمٌ على تلقّي الهُدى مِنَ اللهِ سُبحانَهُ ، والتّقيُّدِ بمنهجِهِ في الحياةِ ، وإيضاحِ القيَمِ الإنسانيّةِ المُثلى ، التي تليقُ بعالَمٍ صادرٍ عَنِ اللهِ تعالَى ، مُتّجِهٍ وصائرٍ إليهِ في نهايةِ المطافِ (ومن ثمَّ فإنَّ الجانبَ الرُّوحيَّ في الإنسانِ ، يجدُ مُتعَتَهُ في الالتزامِ الإيمانيِّ ، النّابعِ من رُوحيّةِ التّوجيهِ التي تقومُ على دعاماتٍ ثلاثٍ هيَ :

١- الإيمانُ بوحدانيةِ اللهِ .

٢- الخُلُقيّةُ الدّينيّةُ .

٣- الاعتقادُ بالبعثِ والجزاءِ في اليومِ الآخرِ .

إنَّ دورَ الرُّوحيّةِ في توجيهِ الشّبابِ ، [تكمُنُ في مُساعدَتِهم] على أنْ يدخُلُوا مرحلةَ النُّضوجِ والرُّشدِ ، [لكيلا] ينحسروا إلى الوراءِ في حركةِ الجَزْرِ إلى الطُّفولةِ ، ومعاونَتِهم على التطوُّرِ الطّبيعيِّ للإنسانِ كإنسانٍ ، بمنعِهِم من التّذبذُبِ

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ص٦٢-٧٤ .

والتّردُّدِ وعدمِ التّحديدِ ، ويتمُّ ذلكَ بالثّباتِ على الإيمان [بوحدانيّةِ اللهِ تعالى عقيدةً وعبادةً] ، ... وأمّا الخُلُقيّةُ الدِّينيّةُ في الإسلامِ ، فمظهرُها العملُ الصّالحُ ، الذي يرتقي بصاحبِهِ [سُلوكاً وتصرُّفاً] ، نحوَ التّوازُنِ والاعتدال ، . . . فأمّا العباداتُ : مِنْ صلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، وحجٍّ ، التي أتى بها الإسلامُ ، [فإنّها تشحَنُ] النُّفوسَ نحوَ هذا العملِ الصّالحِ ، [ثمّ تأتي أهميّةُ] الاعتقادِ بالجزاءِ الأُخرويِّ ، فهو الموقظُ للخُلُقيّةِ الدِّينيّةِ ، والمُحرِّكُ لها بصمتٍ .

هُنا يندفعُ الإنسانُ المؤمِنُ إلى العملِ المُثمرِ ، إلى العملِ الرّشيدِ ، دونَ حاجةٍ إلى رقابةٍ خارجيّةٍ عنهُ ، كتلكَ السُّلطةِ التي كوّنها المُجتمعُ الحديثُ ، لحمايةِ القانونِ الذي يصنعهُ المُجتمَعُ ، وإذا أدّى أفرادُ المُجتمعِ [واجباتِهم] بدافعٍ من ذواتِهِم ، فكُل فردٍ عنْ طريقِ أداءِ هذا الواجبِ ، سيأخُذُ حقّهُ ، [وستُرعى] حُرمَتُهُ)[1].

يُستنجُ مِنْ هذا كُلِّهِ ، إلى أنَّ رسالةَ الرُّوحيّةِ كما يرسُمُها الإسلامُ ، هي في عونِ الشّبابِ عندَ انتقالِهِم مِنْ مرحلةِ الطُّفولةِ الإنسانيّةِ ، إلى مرحلةِ النُّضجِ الإنسانيِّ ، وقد أقرَّ الإسلامُ أيضاً ، أنّ الإنسانَ لهُ طبيعةٌ تعيشُ في هذا الوجودِ الأرضي ، وأنَّ لَهُ الحقَّ في تحصيلِ ما في الحياةِ الدُّنيا من مُتَعٍ حلالٍ ، كما وجّهَهُ إلى عدمِ العَبَثِ والإفسادِ ، ومُراقبةِ اللهِ تعالى بالسَّيرِ وِفقَ تعاليمِ دينهِ ، حيثُ يقولُ سبحانهُ :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧).

لا ينبغي للإنسانِ المؤمنِ ، أنْ يَقْصِرَ نظرتَهُ في وجودِهِ الخاصِّ ، على الأرضِ التي يعيشُ فوقَها فقط ، بلْ عليهِ أنْ يُراقِبَ صاحِبَ الأمرِ في الدّارِ

---

(١) محمد البهي : أثر الروحية في توجيه الشباب ، ص٤٣٢-٤٣٥ .

الآخرةِ ، وهو الله سبحانَهُ وتعالى . ورسالتُهُ هي رسالةُ الإقرارِ بالمُشاركَةِ في الحياةِ ، والإنسانيّةِ ، والتعامُلِ طِبقاً لهذا الإقرارِ ، حيثُ يكونُ هناكَ توازنٌ واعتدالٌ . هذا التّصوُّرُ الإيمانيُّ لا يصدُرُ إلاّ من رشيدٍ ناضجٍ في الإنسانيّةِ .

لكنْ عند ما تنحسِرُ الرّوحُ الإيمانيّةُ عن الوجودِ العمليِّ في دُنيا النّاس ، وتسودُ الماديّةُ في المعاملاتِ البشريّةِ ، وتصُبُّ الأنانيّةُ المقيتةُ غضبَها ، عندئذٍ يتنكرُ صفوُ النُّفوسِ ، ويلحَقُ الضّررُ والأذى والعبثُ بأرواحِ الضّعفاءِ ، فيُعانونَ المَقتَ والتّنكيلَ من أدعياءِ المدنيّةِ الماديّةِ ، القائمةِ على اقتناصِ المتَعِ الحسيّةِ ، والنُّفوسِ المريضَةِ المُترعَةِ بالرّياءِ والمُمالأةِ والنّفاقِ العقديِّ والاجتماعيِّ ، والتّقلُّبِ نحوَ مصادرِ النُّفعيّةِ الماديّةِ ، دونَ اعتبارٍ لحياءٍ أو خُلُقٍ كريمٍ . كما فعلَ الماديّونَ المكيّونَ في بدايةِ نزولِ الوحيِ منَ السماءِ ، إذْ تلقّوْهُ باتّهاماتٍ فجّةٍ ، ثمّ تلقّفَ المُستشرقونَ فيما بعدُ ، تلكَ الاتّهاماتِ بالنسبةِ للقرآنِ المجيدِ ، أو بالنّسبةِ للرسولِ ﷺ ، وحاولوا استنتاجَ ما يَبْعُدُ استنتاجُهُ مِنْ ظاهرِ بعضِ الآياتِ القُرآنيّةِ ، فهُم يتلقفونَ (مسألةَ النّسخِ في القُرآنِ مثلاً ، ويدّعونَ أنَّ القُرآنَ مُضطَربٌ فيما يقولُهُ ، لأنَّ مُحمداً [عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ كما يزعُمُونَ] يقعُ تحتَ تأثيراتٍ مُختلفَةٍ ومُتضاربَةٍ . . . ولو عرفَ المُستشرقونَ [ومَنْ هُم على شاكلَتِهِم مِنَ الماديّينَ والنُّفعيّينَ المبتورينَ] أنَّ تكوينَ المُجتمَعِ لا يتمُّ نقلُهُ مِنْ وضعٍ إلى آخرَ . . . على النّقيضِ مِنْهُ : دفعةً واحدةً . . . وأنَّ التّطوُّرَ النّفسيَّ لا يقبلُ الفَجأةَ ... ولا يلتئِمُ معَ التّحديّاتِ النّهائيّةِ ، في أوّلِ طريقِ التّكوينِ)[1] .

لو أنَّ المُستشرقينَ والماديّينَ : أدركُوا أنَّ التطوُّرَ النّفسيَّ ، عاملٌ رئيسٌ في تماسُكِ المُجتمعاتِ ، وفي بقاءِ أفرادِهِم في نطاقِ أهدافِهِمُ المُعيّنَةِ ، لما وقعُوا في اتّهامِ كتابِ اللهِ في الاضطرابِ ، ثمَّ لو أنّهُم فَهِموا الحكمةَ ، من نزولِ القُرآنِ الكريمِ مُنجّماً ، لَما اتهموهُ بالاختلافِ والتّضاربِ حَسَبَ فهْمِهِمُ السّقيمِ ، لذا جاءَ التّعبيرُ عن نزولِ القُرآنِ مُنجّماً في قولِهِ تعالى :

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص١٢٨ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٣٢-٣٤).

وتردُّ الآياتُ الكريمةُ على مُشركي مكّةَ والماديّينَ من ورائِهم، بأنَّ نزولَ القُرآنِ في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً، كانَ لحكمةٍ اقتضَتْها إرادةُ اللهِ تعالى، التي تتمثّلُ في قانونِ اجتماعيٍّ لا يتخلّفُ، أو في ظاهرةٍ نفسيّةٍ واجتماعيّةٍ تُلازمُ الطّبيعةَ البشريّةَ، (والنَّفسُ البشريّةُ لا تتحوّلُ تحوُّلاً كاملاً شاملاً، بينَ يومٍ وليلةٍ بقراءةِ كتابٍ شاملٍ للمنهجِ الجديدِ. إنّما تتأثّرُ يوماً بعدَ يومٍ بطرفٍ مِنْ هذا المَنهجِ؛ وتتدرّجُ في مراقيهِ رويداً رويداً، وتعتادُ على حَمْلِ تكاليفِهِ ... ولقدْ جاءَ القُرآنُ بمنهاجٍ كاملٍ شاملٍ للحياةِ كُلِّها، وجاءَ في الوقتِ ذاتِهِ بمنهاجٍ للتّربيةِ، يُوافِقُ الفِطْرَةَ البشريّةَ عن عِلْمٍ بها مِنْ خالقِها، فجاءَ لذلكَ مُنجَّماً، وفْقَ الحاجاتِ الحيّةِ للجماعةِ المُسلمةِ. وهيَ في طريقِ نشأتِها ونُموِّها، وفْقَ استعدادِها الّذي ينمو يوماً بعدَ يومٍ، في ظلِّ المنهجِ التّربويِّ الدّقيقِ. مِنْ أجلِ هذا كُلِّهِ: نزلَ القُرآنُ مُفصّلاً. يُبيِّنُ أوّلَ ما يُبيِّنُ عن مَنهجِهِ، لقلبِ الرّسولِ ﷺ، يُثَبِّتُهُ على طريقِهِ... وتطمينهِ على إمدادِهِ بالحُجّةِ البالغةِ، كُلّما [فتحَ لَهُ المُشركونَ والماديّونَ] باباً مِنَ الجدَلِ، وكُلّما اقترحُوا عليهِ اقتراحاً، أو اعترضُوا عليها اعتراضاً. فإنّهُم ليُجادِلونَ بالباطلِ، واللهُ يَرُدُّ عليهِم باطِلَهُم بالحقِّ الذي يدْمَغُهُ. والحقُّ هو الغايةُ التي يُريدُ القُرآنُ تقريرَها ..... [ويومَ القيامةِ] يُحشرونَ على وجوهِهِم، جزاءَ تأبّيهِم على الحقِّ، وانقلابِ مقاييسِهِم ومنطقِهِم في جَدَلِهِمُ العقيمِ)[1].

إنَّ دعوةَ القُرآنِ الكريمِ: هيَ دعوةٌ للتّحوُّلِ من الجاهليّةِ أوِ الماديّةِ، إلى مُستوى الرِّسالةِ الإسلاميّةِ، التي تُحقّقُ المُستوى الإنسانيَّ الرَّفيعَ.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٦/١٦٠، ١٦١.

ولكي ينجحَ هذا التّحوُّلُ فلا بُدَّ مِنَ التّدرُّجِ في نَقْلِ النُّفوسِ مِنْ وضعٍ إلى آخرَ أرقى وأشملَ . ثمَّ أوضاعُ المُجتمَعِ المطلوبِ ـ وهو المُجتمَعُ الإسلاميُّ الإنسانيُّ الجديدُ ـ لا تنتقِلُ النُّفوسُ إليها إلاَّ بعدَ إعدادٍ داخليٍّ واقتناعٍ ، لذا فإنَّ الوضعَ يحتاجُ إلى زمنٍ أو وقتٍ ، ليتمَّ فيهِ التّرغيبُ والتّرهيبُ والأمرُ والنّهيُ . والقُرآنُ في نُزولِ الوحيِ بهِ تباعاً ، كان يُراعي المدى الذي وصَلَ إليهِ تَحَوُّلُ النُّفوسِ (وهكذا كانَ خطُّ سيرِ الدّعوةِ : ترغيبٌ في التّركِ . . . ثُمَّ نهيٌ عن فعلِ المتروكِ . . . فَترغيبٌ في الفعلِ للشيءِ المُضادِّ . . . فأمرٌ بفعلِ المرغوبِ فيهِ . والتّنجيمُ إذن [إذاً] في نزولِ القُرآنِ هو الأنسبُ لهذهِ المراحلِ ، أو لهذا التّدرُّجِ النّفسيِّ والاجتماعيِّ . وإنَّ تقدُّمَ المُجتمَعِ وانتقالِهِ من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ أُخرى تاليةٍ ، من شأنِهِ أن يُطمئِنَ الرّسولَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، ويُثَبِّتَ فؤادَهُ على دعوتِهِ ؛ لأنّهُ يرى ثمرتَها بالتّدريجِ ، إلى أنِ اكتملَتْ)[1] .

حقّقَ القُرآنُ الكريمُ إذاً بمنهجِهِ التدريجيِّ في النُّزولِ ، خوارِقَ في تكييفِ تلكَ النُّفوسِ التي تلقَّتْهُ مُتتابِعاً ، فتأثرتْ وانطبَعَتْ بهِ عملاً وسُلوكاً ونظامَ حياةٍ . لو نزلَ القُرآنُ جُملةً واحدةً ، لَما تركَ نزولُهُ إلاَّ فُرصةً ضئيلةً لانتقالِ المُجتمَعِ من حياةِ الجاهليّةِ إلى حِمى الإسلامِ وحياتِهِ ، كذلكَ لا يترُكُ للرّسولِ ﷺ فرصةً ، يرى منها شُعاعَ الأملِ شيئاً فشيئاً في نجاحِ دعوتِهِ .

فلمّا غَفَلَ المُسلمونَ عنْ هذا المنهجِ ، واتّخذوا القُرآنَ كتابَ متاعٍ للثّقافةِ ، وكتابَ تعبُّدٍ للتّلاوةِ ، فحسْبُ ، لا منهجَ تربيةٍ للانطباعِ والتّكيُّفِ ، ولا منهجَ حياةٍ للعملِ والتّنفيذِ ، لم ينتفعُوا من القُرآنِ بشيءٍ ؛ لأنّهم خرجُوا عنْ منهجِهِ ، منهجِ الصِّراطِ المُستقيمِ للسُّلوكِ البشَريِّ ، الّذي أنزلَهُ العليمُ الخبيرُ ؛ لإصلاحِ الحياةِ والنُّفوسِ البشريّةِ معاً ، جَنْباً إلى جَنْبٍ .

• • •

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الفرقان» ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

المبحثُ الثالثُ

مؤلفاتُهُ في الاقتصادِ والسِّياسَةِ

ركّزَ «البهيُّ» على إعادةِ التّوازنِ بينَ الاقتصادِ[1] والإنسانِ من منظور إسلاميٍ ورؤيةٍ علميّةٍ عالميّةٍ ، هدفُهُ الرئيسُ في ذلكَ عالميّةُ الدّعوةِ الإسلاميّةِ مِنْ طَرَفٍ ، لأنّ رسالةَ الإسلامِ أصلاً هيَ رسالةُ الإنسانيّةِ في مواجهةِ المادّيّةِ ، مِنْ طَرَفٍ آخرَ .

لهُ مؤلّفاتٌ قيِّمَةٌ[2] في النُّظُمِ الاقتصاديّةِ المُعاصِرَةِ ، وما يرتبِطُ بها مِنْ عَلاقاتٍ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ . ثمَّ ينطلِقُ في توضيحهِ معنى الاقتصادِ الإسلاميِّ بأنّهُ : (جميعُ الثّرَواتِ الأرضيّةِ ، التي وُهِبَتْ للإنسانِ ، حيثُ يستخدِمُ [في حُصولِهِ عليها جميعَ] طاقاتِهِ العقليّةِ والبدنيّةِ ، . . . [لكي يتمكّنَ مِنْ إعدادِها صالحةً في مَنحِ الإنسانيّةِ] بالحيويّةِ ، والقوّةِ ، والوقايةِ . [هذهِ هي نظرةُ الإسلامِ

---

(١) يُعرّفُ العلماءُ الاقتصادَ بأنّهُ : العِلمُ الذي يدرُسُ كيفيّةَ استعمالِ الموارِدِ المحدودةِ ، لإشباعِ الحاجاتِ البديلةِ ، كما يدرس سلوكَ الفردِ والجماعة في إنتاجِها ، وتبادلِها واستهلاكِها للسِّلَعِ والخدماتِ . هو علمٌ يبحثُ في الظّواهر الخاصّة بالإنتاجِ ، والتّوزيعِ والاستهلاكِ ، ويكشِفُ عن القوانين التي تخضعُ لها . انظر ، عبد العزيز فهمي هيكل : نظم اقتصاديّة ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ، لا . ط ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م ، ص١ . وانظر ، إبراهيم مذكور : المعجم الوجيز ، ص٥٠٣ .

(٢) من مؤلفاته القيمةِ في مجال الاقتصاد : «الإسلام والاقتصاد» ، «الإسلام في حلِّ مشاكلِ المجتمعات الإسلاميّةِ المُعاصرةِ» ، «خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر» . انظر ، محمد البهي : مؤلفات البهي في الاقتصاد ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠١-١٤١٣هـ/ ١٩٨١-١٩٩٢م .

للاقتصادِ ، فهي تختلفُ تماماً عنِ النّظرةِ] الماديّةِ التي تُقدِّسُ الاقتصادَ ، وقد تُبالِغُ في تقييمِهِ ، فترفعُهُ إلى مُستوى الألوهيّةِ والخالقيّةِ)[1].

فالمجُتمعاتُ التي تعيشُ تحتَ تِيهِ وضَلالِ الطُّغيانِ الاقتصاديِّ الماديِّ ، سُرعانَ ما يندثِرُ الجانبُ الخُلُقيُّ أسفلَ وطأتِها ، فيتبخَّرُ العُنصُرُ الإنسانيُّ أثناءَ زحمتِها ، وتضيعُ القِيَمُ المُشتركَةُ في التّفكيرِ ، وتسوءُ المُعاملَةُ بينَ النّاسِ ، ثمَّ تُفقَدُ الثِّقةُ وينحرِفُ السُّلوكُ عنْ مسارِهِ السّويِّ .

إنَّ الإنسانَ وفقاً لهذِهِ النّظرياتِ الاقتصاديّةِ الماديّةِ ، يبدو مخلوقاً يُقرِّرُ حاجاتِهِ بحريّةٍ تامّةٍ ، تحقيقاً لأنانيّتِهِ وحُبّاً في الظُّهورِ ، بالصُّورةِ التي ترسُمُها حمَلاتُ الدِّعايةِ ، التي تَبثُّها مُختلَفُ أجهزَةِ الإعلامِ (وذلكَ دونَ أيِّ اهتمامٍ بقِيَمٍ دينيّةٍ أو أخلاقيّةٍ أو اجتماعيّةٍ . كما أنّهُ يُحاوِلُ تضخيمَ ثرائِهِ ، بكلِّ الوسائلِ المُتاحَةِ لَهُ ، سواءٌ بحبْسِ مالِهِ في أرضٍ تُترَكُ دونَ أيِّ استغلالٍ ، حتّى يرتفعَ ثمنُها نتيجةَ ضغطِ النُّموِّ السُّكانيِّ ، أوْ بتوظيفِهِ في مُضاربَاتٍ تعودُ بالضّررِ البالغِ على المُجتمعِ في مجموعِهِ ، أو باحتكارِ موادَّ ضروريّةٍ كي يتحكَّمَ في إنتاجِها ، وبالتّالي في أسعارِها وبذلكَ [تزدادُ] أرباحُهُ ، أوْ بفرضِ سيطرتِهِ ونفوذِهِ على هذهِ المؤسّسةِ أو تلكَ ، حتّى يقودَ السُّوقَ بما يُحقِّقُ مصالحهُ الخاصّةَ)[2].

رُبّما يبدو الإنسانُ في ظلِّ تحليلِ هذهِ النظّرياتِ الاقتصاديّةِ الماديّةِ ، مخلوقاً يعيشُ حياتَهُ فراغاً ، حيثُ لا روابطَ اجتماعيّةَ حقيقيّةَ ، توثِّقُ صِلتَهُ بمُحيطِهِ الدّاخليِّ ، ولا قِيَمَ دينيّةَ تُحِدُّ أطماعَهُ ، وتُهذِّبُ نزوعَهُ من الاحتكارِ والاعتداءِ على أقواتِ الآمنينَ الأبرياء ، وتَلجِمُ أنانيتَهُ المُتأصّلةَ في نفسهِ .

---

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص٧ .

(٢) عبد العزيز فهمي هيكل : مدخل إلى الاقتصاد الإسلاميّ ، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر ، بيروت ، لا . ط ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص٣٨ .

فالماديّونَ يجمعُونَ المالَ لذاتهِ شهوةً ، ويشِحُّونَ بهِ عنِ الإنفاقِ إلاَّ في نزواتِهم وملذّاتِهِمُ الآثمةِ عنوةً ، فلا يُعطونَ بلا مُقابِلَ أو عِوَضٍ .

أمّا العَطاءُ بالمنظُورِ الاقتصاديِّ الإسلاميِّ ، فإنّ (صاحبَ الفائضِ مِنَ المالِ لا يُعطي في مُقابلٍ ، ولا يكونُ بديلاً أو عِوضاً عن أمرٍ ما : عن خدمةٍ أو شيءٍ آخرَ ، يُظَنُّ أنّهُ مُقابِلُ يُعطي فقط [للتّعبيرِ] عَنْ واجبٍ [إيمانيٍّ] عن واجبِ الأداءِ لذاتهِ ، [لأنَّ] المؤمنَ المالكَ في الإسلامِ ، مُطالَبٌ بأنْ يُشارِكَ غيرَهُ في مَنفعةِ مالِهِ ، بلا مَنٍّ ولا ﴿ أذًى ﴾[1]).

فَقَبُولُ العطاءِ مِنْ جانبٍ ، والجزاءُ عليهِ من جانبٍ آخرَ ، مَرْهُونٌ إذاً بالإخلاصِ فيهِ وابتغاءِ وجهِ الله وحدَهُ ، وعندما يتحدّثُ الإسلامُ عنْ وجهِ اللهِ تعالى ، فإنّهُ في الواقعِ يتحدّثُ عن الإنسانيّةِ ، والمصلحةِ العامّةِ في الأُمّةِ ، فلا يبتغي غرضاً شخصيّاً ، أو تحقيقاً لأهدافَ ومآربَ خاصّةٍ ، كالجاهِ والنُّفوذِ أو تغطيَةِ الانحرافِ في استثمارِ المال . إنّما هو عبادةٌ وطاعةٌ ، لقول الله سبحانَهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٦٢-٢٦٤).

يُلمَحُ صراحةً في هذهِ الآياتِ الحثُّ على الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى ، معَ الإخلاصِ في البَذلِ والعطاءِ لوجهِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى فحسْبُ ، لا رياءَ ولا سُمعةَ ، طلباً لثوابِهِ وخوفاً من عقابِهِ .

---

(١) محمد البهي : خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر ، ص١٢٣ ، ١٢٤.

فالنّظرةُ الأساسيّةُ لرسالةِ الإسلامِ ، تقومُ أساساً على إعادةِ تقييمِ الإسلامِ للاقتصادِ والإنسانِ معاً . فدعوةُ الإسلامِ لم تقُمْ من فراغٍ (وإنّما قامتْ في مُواجهةِ الماديّةِ ، ومعنى الماديّةِ [هُنا] : طُغيانُ الاقتصادِ ، [ويُقصَدُ في ذلكَ] الاستخفافُ بقيَمِ الإنسانِ ، . . فكانتْ السيادةُ للجَشعِ وطُغيانِ المالِ على [حسابِ] قيمَةِ الرَّحمةِ بالضُّعفاءِ ، [بل تُرِكَتِ الرّحمةُ مُنعزلَةً] عَنِ التَّطبيقِ في الحياة ، والذي عمِلَ على عزلِها ، وقُوعُها تحتَ تأثيرِ الطُّغيانِ الاقتصاديِّ) [1].

لذلكَ جعلَ الإسلامُ القيَمَ الإنسانيّةَ ، أرفعَ مُستوًى من القيمةِ الاقتصاديّةِ ، إذْ أعلنَ أنَّ الاقتصادَ في خدمةِ الإنسانِ ، وليسَ زعيمَهُ وقائدَهُ . .

فالمعاني الإسلاميّةُ لمُختلَفِ المفاهيمِ الاقتصاديةِ ، كالرُّشدِ الاقتصاديِّ ، والرفاهةِ الاقتصاديّةِ ، والحاجاتِ البشريّةِ ، لا يُمكنُ أنْ تتضحَ تماماً إلاّ من خلالِ ارتباطِها وتشابُكِها سويّاً ، ضمنَ الإطارِ الإسلاميِّ العامِّ ، حيثُ يُعالجُ الإنسانَ من جميعِ جوانبِهِ وتوجُّهاتِهِ ، مُعالجةً واقعيةً صادقةً ، للوصولِ به إلى تحقيقِ الهدفِ الكبيرِ ، وهو الفلاحُ في الدُّنيا والآخرةِ .

إنَّ الأساسَ الاقتصاديَّ في الإسلامِ ، يكمُنُ في نظرتِهِ إلى المال ومُلكيّتِهِ ، فهو لا يرى المُلكيّةَ أصلاً للفردِ ، ولا للدّولةِ ، إنّما المالكُ الحقيقيُّ للمالِ هو اللهُ تعالى ، ودَوْرُ الإنسانِ هو الاستخلافُ بالمال ، ليس إلاّ .

ويُشيرُ القرآنُ إلى هذا بقولِهِ تعالى :

﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الحديد:٧).

إنّـهُ مع تَفاوُتِ النّاسِ في الأرزاقِ ، والغنى والفقرِ ، إلاّ أنَّ الإسلامَ جعلَ منفعةَ المالِ ، الذي هو بأيدِ المالكينَ لَهُ ، منفعةً عامّةً للجميعِ . وحينَ يَطلُبُ

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، ص٤ .

القرآنُ مِنَ المُسلمينَ كافّةً ، أنْ ينزعوا أموالَ السّفيهِ مِنْ يدِهِ ، يُعلّلُ هذا الإجراءَ بأنَّ أموالَهُ التي يتصرّفُ فيها بسَفَهٍ ، هيَ في واقعِ الأمرِ أموالُهُم ، فيقولُ اللهُ تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٥، ٦).

لذا فإنَّ المُلكيّةَ الخاصّةَ للمالِ في الإسلامِ ، لا تحولُ دونَ وجوبِ المنفعةِ العامّةِ . [فَمِنْ] هذهِ النّظرةِ الإسلاميّةِ للمالِ في مُلكيّتِهِ ومنفعتِهِ (يتجنَّبُ الاقتصادُ الإسلاميُّ استغلالَ أصحابِ رُؤوسِ الأموالِ ، في نظامِ الحُكمِ الدّيمُقراطيِّ الغربيِّ ، كما يَتجنّبُ التّواكُلَ واللامُبالاةَ ، وعدمَ المسؤوليّةِ في نظامِ القطاعِ العامِّ ، أو في مُلكيّةِ الدّولةِ ، وهيَ النِّظامُ البلشفيُّ)[1]. تأصّلتْ بناءً على هذهِ النّظرةِ الإسلاميّةِ للمالِ في مُلكيّتِهِ ومنفعتِهِ ، عبادةُ اللهِ في المالِ ، وهي الزّكاةُ على الأموالِ الثّابتةِ والمنقولةِ : في الصّناعةِ والزّراعةِ والتّجارةِ والمُدّخَراتِ ، وفيما ظهرَ على وجهِ الأرضِ ، وما خرجَ من باطنها ، كما تأصّلَ مبدأُ الإحسانِ : وهو إنفاقُ ما فاضَ عن حاجةِ مالكِهِ في المصلحةِ العامّةِ . كما جاءَ في حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ : عَنْ أبي سَعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قال : بينما نحنُ في سفرٍ معَ النّبيِّ ﷺ ، إذْ جاءَ رجُلٌ على راحلةٍ لَهُ ، قالَ : فجعلَ يصرِفُ بصرَهُ يميناً وشِمالاً ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «منْ كانَ معَهُ فضْلُ ظهرٍ فليعُدْ بهِ على مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ، ومَنْ كانَ لَهُ فضلٌ مِنْ زادٍ ، فَلْيَعُدْ بهِ على مَنْ لا زادَ

---

(١) محمد البهي : الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلاميّة المُعاصرةِ ، ص١٣٥.

لَهُ»[1]. قال : فذكَرَ من أصنافِ المالِ ما ذَكَرَ ، حتّى رأيْنا أنّهُ لا حقّ لأحَدٍ مِنّا في فضْلٍ .

لذلكَ طلبَ الإسلامُ الإحسانَ كمبدأ عامٍّ في المالِ ، وفي أيِّ مجالٍ آخرَ مِنْ مجالاتِ النّشاطِ الإنسانيِّ : في العملِ ، والسُّلوكِ ، والقولِ ، والعطاءِ ، والحُكمِ ، والرِّعايةِ ، وفي كُلِّ ما يتفوّقُ فيهِ بعضُ الأفرادِ عن بعضٍ ، ويتفاضلُونَ فيهِ ؛ لأنّهُ يوفِّرُ لَهُم معنى التّعاطُفِ ، ويُشعِرُهُم الإحساسَ بالتّرابُطِ الإنسانيِّ ، ويُصفِّي نفوسَهُم من رواسبِ الحِقْدِ .

أمّا النّظريةُ الاقتصاديّةُ في النّظامِ الاشتراكيِّ الماركسيِّ الشُّيوعيِّ ، فإنّ الدّولةَ تتعهّدُ بتقديمِ الخَدماتِ : التّعليميّةِ ، الصّحيّةِ ، الغذائيّةِ ، والتّرفيهيّةِ ، للأفرادِ جميعاً ، ومن ثمَّ يقومُ الفردُ بالعملِ واجباً لا تطوُّعاً ، يؤدّيهِ للدّولةِ بدونِ مُقابلٍ ماديٍّ أو أجرٍ ، كما أنَّ الدّولةَ أيضاً ، تُقدّمُ جميعَ الخَدَماتِ للأفرادِ بلا مُقابلٍ ماديٍّ (فلا تخضعُ إذاً الأجورُ والدُّخولُ في النّظامِ الاشتراكيِّ ، في تحديدِها إلى كميّةِ الإنتاجِ كثرةً وقِلّةً . . . إنَّ تحديدَ الأُجورِ والدُّخول للأفرادِ ، بحدٍّ أدنى وحدٍّ أعلى ، في النّظامِ الاشتراكيِّ يتبعُ القيمةَ ، كما يُعرِّفُها «كارل ماركس» بأنّها : ليستْ هيَ ثمنُ السّلعةِ في مادتِها الخامِّ [ولا الأُجرةُ] على ساعاتِ العملِ لصُنعِها ، إنّما هيَ مُدّةُ النّشاطِ الإنسانيِّ ، التي يجِبُ أنْ تتعهدَها الدّولةُ منذُ طُفولةِ الفردِ . وترعاهُ [حتى] يخلِقَ القُدرةَ على الإنتاجِ ... إلى الوفاةِ ... ويومَ لا يستطيعُ [الفردُ] بإمكانيّاتِهِ البشريّةِ الخاصّةِ ، ونشاطِهِ الخلّاقِ في أن يَزيدَ مِنْ دَخلِهِ ، فهوَ يواجِهُ زيادةَ الأسعارِ ـ التي فرضَتها الدّولةُ ـ بكثيرٍ من القلَقِ والتّعقيدِ في حياتِهِ اليوميّةِ وحياةِ أُسرتِهِ ، ويقِفُ حِيالَهَا عاجزاً إلاَّ إذا

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : مختصر صحيح مسلم ، اختصره عبد العظيم ابن عبد القوي المُنذِريّ ، حقّقه وعلّقَ عليهِ وخرّجَ أحاديثَهُ ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث «١٠٦٦» ص٣١٤ .

سلكَ طريقَ الانحرافِ [وعندئذٍ] تكثُرُ السَّرقةُ والرّشوةُ ، وينهارُ النِّظامُ الاقتصاديُّ الاشتراكيُّ ، بسببِ انهيارِ خُلُقِ الأمانةِ في الأُمورِ العامّةِ)[1].

إنَ المُتتبِّعَ لاقتِصادِ فيما يُسمّى «بالاتحادِ السوفيتي» سابقاً ، يكتشفُ أنّهُ كانَ مِنْ أهمِّ الأسبابِ المُباشِرَةِ التي أدّت إلى انهيارِ النّظامِ الاشتراكيِّ ، مِنْ رأسِ هَرَمِهِ إلى أسْفَلِ قاعِهِ ، ثمَّ تفكيكِ الاتحادِ إلى دويلاتٍ مُتنازعةٍ ، فأصبحَ جُلُّ النّاسِ هُناكَ يبحثونَ عن طعامِهِم في أماكنِ طرْحِ القُمامةِ ، ثمّ غابَ الأمنُ ، فشاعتِ السَّرقةُ والاعتداءاتُ ، وأسرعَ الكثيرُ مِنَ الاشتراكيينَ ، إلى العودةِ لما يُدعى بالنّظامِ الرأسماليِّ ، بالرَّغمِ مِنْ أنّهُ يُتيحُ الفُرصةَ لاستغلالِ الأفرادِ بعضِهِمُ للبعضِ الآخرِ ، وذلكَ عَنْ طريقِ ربطِ الأجرِ بالإنتاجِ ، بمعنى أنَّ صلةَ صاحبِ العملِ بالعاملِ ، هيَ صِلةٌ مؤقّتةٌ تتمثّلُ في إنجازِ العملِ ، مُقابلَ أجرٍ مُعيّنٍ على هذا الإنجازِ ، بينما الإسلامُ ليسَ نظامَ المُلكيّةِ اللامحدودة ، ولا نظامَ الاشتراكيّةِ المُقيّدَةِ ، ولكنْ كما تنطوي المبادئُ فيهِ على حُريّةِ التّملُّكِ والاقتناءِ ، تُبنى أيضاً على عَدمِ طُغيانِ المالِ ، أوِ الانحرافِ فيهِ بغيرِ وجوهِهِ الشرعيّةِ ، تلكَ هيَ رُوحُ النّظامِ الاقتصاديِّ في الإسلام . وبذلكَ يقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

تُبيّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ كلَّ ما في الكونِ سخّرهُ اللهُ تعالى لأبناءِ آدمَ ، فالنّاسُ سواسيةٌ في الانتفاعِ بما خلقَ اللهُ تعالى في السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّ المالَ في الإسلامِ وسيلةٌ وليسَ غايةً (وهو إحدى وسائلِ الخيرِ في الحياةِ . بهِ يتعامَلُ النّاسُ ، ويتبادلونَ السِّلَعَ ، وينفعُ بعضُهُمْ بعضاً ، فالمالُ خيرٌ إنِ استُعمِلَ وسيلةً للخيرِ ، وإلاَّ كان شرّاً يؤدّي إلى ضررِ النّاسِ ، . . فهو خيرٌ حينَ يكونُ وسيلةً

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلاميّ والمجتمع المعاصر «مشكلات الحكم والتّوجيه» ، ص٢٤٥ ، ٢٤٦ .

إلى التّراحُمِ ، وسدِّ حاجةِ البائسينَ ، وإقامةِ المُجتمعِ على أُسُسٍ متينةٍ مِنَ التّعاوُنِ والتّسانُدِ) [1].

لقد وفّرَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى المواردَ للناسِ ، في مُختَلَفِ أنحاءِ العالَمِ ، إلاَّ أنّ بعضَ الآدميينَ يُبالِغُ في تصوُّرِهِ لحاجاتِهِ ، مُتأثّراً بالقيَمِ الماديّةِ والمفاهيمِ اللاأخلاقيّةِ ، التي تنشُرها المدنيّةُ الغربيّةُ بكُلِّ وسائلِ الدِّعايةِ والتّرغيبِ . لهذا أصبحَ المرءُ أحياناً يشعُرُ بالظُّلمِ والحِرمانِ ، عندما يجدُ أنّ دَخْلَهُ المحدودَ غيرُ كافٍ في إشباعِ حاجاتِهِ كما يتصوّرُها .

يعتمِدُ حقيقةً علاجُ هذهِ المُشكلةِ اليوميّةِ في حياتِنا ، على السُّلوكِ الدِّينيِّ للفردِ والمُجتمَعِ معاً ، وهو سلوكٌ ينبُعُ أساساً من التّوحيدِ باللهِ ، والسيرِ في الحياةِ وِفْقَ تعاليمِ الإسلامِ ، بأنْ يجعلَ المؤمنُ نشاطَهُ الاقتصاديَّ هدفاً لاستئصالِ الفقرِ والمرضِ والجهلِ في مُجتمَعِهِ ، هذا من ناحيةٍ . ثمَّ إذا أمعنتَ النّظرَ في نظامِ الزّكاةِ في الإسلامِ ، لوجدْتَهُ كافياً لتصويبِ أكثرِ المشاكلِ الاقتصاديّةِ ، لدى النّاسِ من النّاحيةِ الأُخرى ؛ لأنَّ الزكاةَ سدٌّ منيعٌ لمنعِ تمركُزِ الثّروةِ أو اكتنازِها ، حيثُ لا تتكدس بيدِ عِدّةِ أشخاصٍ ، وقد أشارَ القرآنُ المجيدُ إلى ذلكَ ، فيقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الحشر:٦،٧).

سمّى القُرآنُ الكريمُ المالَ الواصلَ إلى المُسلمينَ من الكُفّار ، سواءٌ أكانَ بقتالٍ أو بغيرِ قتالٍ باسمينِ هُما : الغنيمةُ والفيءُ ، ثمَّ وضّحتِ الآياتُ الكريمةُ :

---

(١) عز الدين بليق : منهاج الصالحين من أحاديث وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ﷺ ، دار الفتح للطباعةِ والنّشرِ ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

إنَّ أمرَ هذه الأموالِ مُفوَّضٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ورسولِهِ ﷺ ، في قسمتِها ، فاللهُ تعالى وحدَهُ هو الذي يحكُمُ بما شاءَ ، والرّسولُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ يوزعُها حَسَبَ حُكمِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى .

أمّا الفيءُ فيُقسَّمُ خمسةُ أقسامٍ ، خُمُسٌ منها يُقسَّمُ خمسةَ أخماسٍ كما يلي :

(ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ من أهلِ القُرى ، فللهِ وللرسول سَهْمٌ ، كان لَهُ في حياتِهِ ، ثمَّ يُصرَفُ على مصالحِ المُسلمينَ بعدَ وفاتِهِ ، وسَهْمٌ لذوي القُربى مِنْ أقاربِ الرَّسولِ ﷺ ، وهُم بنو هاشمٍ وبنو عبدِ المُطّلبِ ، وسهمٌ لليتامى ، وسهمٌ للمساكينِ ، وسهمٌ لابنِ السبيلِ ، وأمّا الأربعةُ أخماسِ الباقيةُ ، فهيَ للنبيِّ ﷺ خاصةً ، وقدْ وزّعها في حياتِهِ على [الفقراءِ] المُهاجرينَ ، ولم يُعطِ مِنَ الأنصارِ إلاّ رجُلينِ أظهرا الفقرَ ، وبعدَ وفاتِهِ عليـهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، تُـصـرَفُ للجيشِ ما لم يوجَدْ لَهُم تبرُّعٌ أو مُرتّبٌ خاصٌ .

وأمّا الغنيمةُ فتُقسَّمُ خمسةً أيضاً : خُمُسٌ لأولئكَ الخمسةِ [المذكورينَ أعلاهُ] ، والأربعةُ الأخماسِ الباقيةُ للمُقاتلينَ الذين حضَرُوا المعركةَ ، وإنّما كانَ هذا التقسيمُ [للفيءِ وللغنيمةِ] كي لا يكونَ دُولةً بينَ الأغنياءِ [من الأُمّةِ الإسلاميّةِ] أي يتداولونَهُ بينَهُم)[1] .

مِمّا ينبغي ذكرُهُ : أنَّ إنفاقَ الأثرياءِ من المؤمنينَ ، إنفاقاً حُرّاً لا إكراهَ فيه ، لم يكُنْ مصدراً لِسَدِّ حاجةِ المحرومينَ ، في المجتمعِ الإسلاميِّ أو الإنسانيِّ فقط . بل حوّلَ القُرآنُ العظيمُ ما كان يُتَداوَلُ عادةً بينَ الأغنياءِ في المُجتمعِ الجاهليِّ ، ويوزَّعُ عليهم من أموالِ الأعداءِ التي تقعُ في أيديهم ، إلى الإسهامِ في قَضاءِ حاجاتِ المُعوَزِيْنَ في المُجتمعِ . إنَّ التعليلَ وراءَ هذا التوزيعِ للمالِ ؛ لكي لا يُحْرَمَ الفقراءُ والمساكينُ وأصحابُ الحاجةِ منهُ ، وألاّ يبقى مُتَدَاولاً بينَ طبقةِ الأغنياءِ فَحَسْبُ .

---

(١) محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، ١٨/٢٧ .

أمّا الزكاةُ أو الصدقةُ المفروضةُ : فقد نظّمتِ الشّريعةُ الإسلاميّةُ طُرُقَ جمعِها ، وأبوابَ صَرفِها ، فهيَ تُودَعُ في بيتِ المال أو في الخزينةِ المركزيّة ، لما يُسمى بوزارةِ الماليّةِ اليومَ ، والتي ينبغي أن تتولّى كفالةَ جميعِ المُحتاجينَ والفقراءِ والمساكينِ ، يقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠).

النّظامُ الاقتصاديُّ الإسلاميُّ عندما فرضَ الزكاةَ ، ثمَّ حثَّ على الإنفاقِ أيضاً في سبيل اللهِ . فإنّهُ توزيعٌ عادلٌ للثروةِ ؛ حيثُ كانَ هذا النّظامُ يؤمِّنُ حاجاتِ المُجتمعِ كُلِّهِ ، بأحسنِ طريقةٍ وأجملِ صُورةٍ ، معَ قَمْعِ جميعِ المفاسدِ التي تنشأُ عنْ غيابِ أخلاقِ التّعاونِ والتّناصرِ ، في المُجتمعاتِ الماديّةِ الرأسماليّةِ والاشتراكيّةِ الشيوعيّةِ .

كما أنَّ الزكاةَ عبادةٌ ، يتقرَّبُ بها المؤمنُ إلى اللهِ تعالى (لتضعَ المُزكي في وضعٍ عمليٍّ ، يتصرّفُ فيهِ على أنَّ الاقتصادَ ليس سيدَ الإنسان ، وإنّما ليؤكِّدَ أنّهُ في خدمتِهِ ، فإذا يتنازلُ عنْ جُزءٍ ممّا دخلَ في مُلكِهِ كُلَّ عامٍ ، دونَ مُقابلٍ لَهُ سوى القُربى إلى الله تعالى ، فإنَّ موقفَهُ ليسَ موقفَ الشّحيحِ ... ولا البخيلِ ... ولا الأنانيِّ ، كما هي عادةُ الماديِّ ، وإنّما هو موقفُ الإنسانِ في تعاطُفِهِ معَ الآخرينَ . . . إنّهُ موقفُ الّذي يتحكّمُ في الاقتصادِ ، وليسَ موقفَ الّذليلِ الخاضعِ لَهُ . فالمؤمنُ المُزكّي لا يرى الاقتصادَ في حَجْمِهِ الطّبيعيِّ فَحَسْبُ ، وإنّما يُمارِسُ التّصرُّفَ فيهِ عن رِضاءٍ نفسيٍّ ، وبحُريّةٍ وإرادةٍ داخليّةٍ ، كمملوكٍ لَهُ . وستظلُّ هذهِ المُمارسَةُ للاقتصادِ ، طالَما الإيمانُ قائمٌ ، وطالما الزّكاةُ تؤدّى عبادةً)[1].

---

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، ص٣٩ .

فَرضُ الزّكاةِ ، أو الصَّدقاتِ ، في المُجتَمعِ الإنسانيِّ أو الإسلاميِّ : هو الوضعُ المُقابِلُ تماماً للشُّحِ في المُجتمعِ الجاهليِّ ، أو الماديِّ الوثنيِّ ، في تصويرِ التّقابُلِ بينَ المُجتمَعَيْنِ ؛ وذلكَ بذِكْرِ الرِّبا بدلاً من الشُّحِ ، ولأنَّ الرِّبا في المُعاملاتِ الماليّةِ أحدُ مظاهرِ الشُّحِ في نفوسِ المُتعامِلينَ بهِ ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (التغابن: ١٦-١٨).

ويقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى ، أيضاً :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

(البقرة: ٢٧٦).

الإنفاقُ مِنَ الأموالِ في سبيلِ حاجةِ الآخرينَ مِنَ المُجتمعِ ، جعلَهُ اللهُ تعالى وقايةً لنفوسِ المُؤمنينَ المُنفقينَ ، مِنْ مساوئِ الشُّحِّ وأضرارِهِ ، وسبيلاً لفلاحِهِم ونجاحِهِم في الدُّنيا والآخرةِ . يُخاطِبُ اللهُ تعالى المُؤمنينَ ، بأنَّ ما (تُنفقونَهُ هُنا في سبيلِ اللهِ تعالى ، ليسَ ضائعاً وغيرَ محسوبٍ لكُم ، بلْ هو في حقيقةِ أمرِهِ قَرْضٌ حَسنٌ ، أقرضتُمُوهُ للهِ سُبحانَهُ وتعالى . وهو جلَّ جلالُهُ : كفيلٌ بأنْ يُضاعفَهُ لَكُم ، بالإضافةِ إلى أن يغفِرَ لكُم : شحَّ أنفُسِكُم فيما مضى .

فاللهُ شكورٌ يَجزي على الخيرِ خيراً مثلَهُ . . وحليمٌ يُمهِلُ المُخطئَ [لكي يتوبَ ويرجِعَ عن خطئِهِ] وتأتي آخِرُ سورةٍ في الوحي المدنيِّ - وهي سورة التّوبةِ - تفرِضُ الإنفاقَ العامَّ ، وتُحدِّدُ مصارفَهُ . وبذلكَ تكمُلُ مراحِلُ التطوّرِ في تحوُّلِ المُجتمعِ : من مُجتمعٍ جاهليٍّ إلى مُجتمعٍ إنسانيٍّ ، أو إسلاميٍّ ، وعلى عهدِ منهجِ القُرآنِ في تطويرِ المُجتمعِ : ابتدأَ القُرآنُ هُنا بالتّنديدِ بالشُّحِّ ،

وهو مصدرُ زيادةِ الحِرمانِ للمحرومينَ في المُجتمعِ ، ثمَّ جاءَ الأمرُ بطلبِ فعلِ الضدِّ من الشُّحِ ، أي بفعلِ الإنفاقِ لوجه اللهِ تعالى) [1].

سوفَ لا يكونُ هُناكَ إذاً مَجالٌ لأحدٍ أنْ يمتصَّ دماءَ الفقراءِ ، تحتَ النِّظام الاقتصاديِّ الإسلاميِّ ؛ لأنَّ الإسلامَ يعني نظاماً اقتصادياً ، لا تُلغى فيهِ المِلكيَّةُ الفرديَّةُ ، ولا تترعرعُ في ظلِّهِ الرأسماليَّةُ الكريهةُ ، إنَّهُ ليَجمَعُ في ناحيتهِ الاقتصاديَّةِ بينَ حسناتِ الفرديَّةِ والاجتماعيَّةِ ، بدلالةِ أنَّهُ حرَّمَ الاكتنازَ ، قبلَ مبدأَ كونِ الأشخاصِ مُتفاوتينَ ، في صلاحياتِهم للعملِ واختلافِ حُظوظِهم ، وبالتالي في إنتاجِهم وثمراتِ أعمالِهم ، بخلافِ الاشتراكيَّةِ التي تُريدُ أن تقضيَ على المِلكيَّةِ الفرديَّةِ ، وترمي إلى توزيعِ الثروةِ بينَ النَّاسِ بالتساوي بيدٍ من حديدٍ (فهيَ تُريدُ [أن تضعَ يدَهَا] وتفرضَ سيطرتَها الكاملةَ على العُمَّالِ ، بعدَ الاستيلاءِ على جميعِ مواردِ الإنتاجِ ،فلا لعاملٍ عندهَا حُريَّةٌ ولا لَهُ أيُّ شخصيَّةٍ . فهيَ ـ سواءٌ ظهرَت باسمها أوْ باسمِ الدكتاتوريَّةِ أوِ الفاشيَّةِ ـ لعنةٌ للإنسانيَّةِ كُلِّها ولِمَن شَمَلَتْهُ .

إنّ الإسلامَ ليَقْبَلُ مبدأ حُريّةِ الأفرادِ وتفاوتِهم في المعيشةِ والاقتصادِ ، كما أنّهُ لا يُقيِّدُ المُزارعينَ ولا العُمّالَ بقيودٍ جبّارةٍ لا تَليقُ بالإنسانيّةِ ولا تَروقُها . إنّهُ لا يَقصِدُ التّساوي بينَ النّاسِ في مراتبِ المعيشةِ ، ولكنّهُ لا شكَّ يَقصِدُ التّساوي بينَهُم في حقِّ المعيشةِ ، حيثُ تُتاحُ لكُلِّ فردٍ الفُرَصُ الكافيةُ لطلَبِ الرِّزقِ والاكتسابِ ، وإنْ لم يَبلُغْ مِنَ الثّراءِ والغِنى ما بَلَغَهُ مِنَ المُجدّينَ والمُجتهدينَ في العملِ . إنَّ الإسلامَ يُحدِثُ ـ فيما لو طُبِّقَتْ تعاليمُهُ حرفياً ـ نظاماً اجتماعيًا ، لا يوجَدُ فيهِ المليونيرُ والمُتفلِّسُ [أوِ المُفلِس] في آنٍ واحدٍ .

[بل] يُسمَحُ فيهِ للفردِ الواحدِ أن يكتسبَ مِنَ الأموالِ ما شاءَ بجُهدِهِ المُتواصِلِ وعملِهِ المُتلاحقِ ، إلاَّ أنّهُ مُضطَرٌّ إلى إنفاقِ الأموالِ أكثرَ فأكثرَ ،

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص١٧٦ ، ١٧٧ .

فكانَ الفردُ في هذا النّظامِ لا يكتسِبُ لنفسِهِ فحسْبُ ، إنّما يكتسِبُ للجماعةِ كُلّها ، ولا يجلِبُ الخيرَ لنفسِهِ فقط ، [لكنّهُ] يغمُرُ المُجتمعَ كُلّهُ بخيراتِهِ وحسناتِهِ . لا كالنِّظامِ الرأسماليِّ الذي يموتُ فيهِ الفردُ ليعيشَ [الآخرونَ] ، ويكتسِبُ فيهِ الرّجُلُ لتعطيلِ صاحبِهِ(1)

هذا هو الإسلامُ : الطّريقُ الوسطُ القويمُ ، الذي يتناسَبُ معَ الفطرةِ البشريّةِ السّويّةِ ، فإذا كانَ الإسلامُ سالكاً الطّريقَ الوسطَ دائماً في كلِّ شأنٍ من شؤونِ الحياةِ ، فلِمَ لا يَسلُكُ نفسَ الطّريقِ بخصوصِ الاقتصادِ أيضاً؟! فمَنْ أرادَ أنْ يُحاولَ القضاءَ على التّفاوتِ الموجودِ في المعيشةِ تكابُراً وعِناداً ، فقد خالَفَ الفِطْرَةَ وتعدَّ الصّوابَ .

الإسلامُ لا يَقِفُ عندَ حدِّ نظرتِهِ إلى القِيَمِ الإنسانيّةِ ، ونظرتِهِ الأُخرى إلى الاقتصادِ ، إنّما يسلُكُ مَنهجاً في تعاليمِهِ : يُحقّقُ إعادةَ التّوازُنِ بينَ الطّرفَيْنِ : وبعبارةٍ أُخرى يعمَلُ على خفضِ غَلواءِ الاقتصادِ وطُغيانِهِ ، كما يُسهِمُ في رفعِ مَنزِلَةِ القِيَمِ الإنسانيّةِ . وكخَطْوةٍ أُولى يتّخِذُها في هذا المنهجِ : تحريمُ الوسائلِ التي تُبقي على قيمةِ الاقتصادِ في طُغيانِهِ على النُّفوسِ ، في مواجهةِ القِيَمِ الإنسانيّةِ ، مثلُ : الرِّبا ، الرّشوةِ ، استضعافِ الضّعيفِ كاليتيمِ مثلاً ، وأكلِ أموالِ النّاسِ بالباطلِ ، مثلُ : الغصبِ ، السرقةِ ، والاحتكارِ .

قدْ نفّرَ اللهُ تعالى مِنْ تلكَ الصفاتِ الرّذيلةِ ، تحذيراً وتحريماً ، توعُّداً وتهديداً ، لِمَنْ يقتَحِمُ سُلطانَ اللهِ تعالى في المالِ ، فيأكُلُ الحرامَ والرِّبا ، ويضُرُّ بالاقتصادِ العامِّ ، بانتشارِ البطالةِ ، فقالَ سُبحانَهُ وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ

---

(1) مسعود الندوي ، تعريب صهيب حسن عبد الغفار : الاشتراكية والإسلام ، ص٧٤ ، ٧٥ .

وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٥-٢٧٧) .

يُصوِّرُ اللهُ تعالى الّذينَ يتعامَلُونَ بالرِّبا[1] في شتّى أنواعِهِ ، بأنّهم لا يقُومونَ في الحياةِ الدُّنيا ، ولا يتحرّكونَ إلاّ كحركَةِ الممسوسِ المُضطَرِبِ القَلِقِ المُتخَبِّطِ ، الّذي لا ينالُ استقراراً ولا طُمأنينةً ولا راحةً ، ويُبعثونَ يوم القيامةِ على هذهِ الحال من الجُنونِ والصّرَعِ ؛ لأنَّ التّعامُلَ الرِّبويَّ يُنشئُ في النِّهايةِ ، فوضى اقتصاديّةً تسحقُ البشريّةَ سَحْقاً ، وتُشقيها في حياتِها أفراداً وجماعاتٍ وشُعوباً ودُولاً ، لمصلحةِ حَفْنَةٍ مِنَ المُرابينَ ، ثُمَّ يحطُّها أخلاقيّاً ونفسيّاً واجتماعيّاً ، ويُحدِثُ الخَلَلَ في دَوْرَةِ المالِ والاقتصادِ البشريِّ ؛ نظراً لتحكُّمِ المؤسساتِ الرِّبويَّةِ العالميّةِ اليومَ في جَرَيانِ الاقتصادِ العالَميِّ ، وِفْقَ مصالِحِهِم المحدودةِ ، مّما أدّى إلى انحرافِ الإنتاجِ الصّناعيِّ والتِّجاريِّ والزراعيِّ - بلْ والاقتصادِ بشكلٍ عامٍّ - عمّا فيهِ مصلحةُ المجموعةِ البشريّةِ ، إلى مَصلحَةِ المُرابينَ الّذينَ تَجَمَّعَتْ في أيديهم خُيوطُ الثّروةِ العالميّةِ .

تصطدِمُ عمليّةُ الرِّبا أساساً معَ قواعدِ التّصوُّرِ الإيمانيِّ ؛ لذا لا يقومُ آكِلو الرِّبا - مِنْ أصحابِ العقيدَةِ الفاسِدَةِ - يومَ القيامةِ من قبورِهِم إلاّ (كما يقومُ المصروعُ حالَ صَرَعِهِ ، وتَخَبُّطِ الشّيطانِ لَهُ . [أيْ إنّهُ] يقومُ قياماً مُنكَراً .

---

(١) الرِّبا : في اللُّغةِ : الزيادةُ ، وفي الشّرعِ : هو كُلُّ قرضٍ جرَّ نفعاً مشروطاً ، أو الزيادةُ في أشياءَ مخصوصةٍ ، وهو محرّمٌ في الكتاب والسُّنّةِ والإجماع . وهو نوعان : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، وكلاهما حرامٌ . انظر ، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة ، «المُتوفى سنة ٦٣٠هـ» : المُغني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لا . ط ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ١٢٢/٤ ، ١٢٣ .

[ذلكَ بسببِ] اعتراضِ آكلي الرِّبا على أحكام اللهِ في شرعِهِ ، وقولِهم : إنّ البيعَ مثلُ الرِّبا ، فَلِمَ حُرِّمَ هذا وأُبيحَ هذا ؟ مَعَ علمهم بتفريقِ اللهِ بينَ [البيعِ والرِّبا] حُكْماً . وهو العليمُ الحكيمُ ، الّذي لا مُعقِّبَ لحُكمِهِ ، ولا يُسألُ عمّا يفعلُ وهُم يُسألونَ . فمن بلَغَهُ نهيُ اللهِ تعالى عنِ الرِّبا فانتهى ، حالَ وصولِ الشّرعِ إليهِ ، فلهُ ما سَلَفَ من المُعاملَةِ قبلَ [التّنزيلِ] والتّحريمِ ، ومَنْ فَعَلَ الرِّبا بعدَ ذلكَ ، فقد استوجَبَ العُقوبةَ ، وقامتِ الحُجّةُ عليهِ .

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنّهُ يمحَقُ الرِّبا ، بأنْ يُذهِبَهُ من يدِ صاحبِهِ بالكُلّيّةِ ، أو يُحرِمَهُ بركَةَ مالِهِ ، فلا ينتفعُ بِهِ ، بل يُعدِمُهُ بِهِ في الدُّنيا ويُعاقبُهُ عليهِ يومَ القيامةِ ، . . . [وإنّه سبحانهُ وتعالى] يُربي الصّدقاتِ : أي يُنميها ويُكثِّرُها [إمّا بنَماءِ المالِ وزيادتِهِ بركَةً في الدُّنيا ، وإمّا بمُضاعفةِ الثوابِ عليها في الآخرةِ] واللهُ لا يُحبُّ كَفُورَ القلبِ ، أثيمَ القولِ والفعلِ ، [ثمَّ مدحَ اللهُ تعالى] المؤمنينَ بربِّهم ، المُطيعينَ أمرَهُ ، المُحسنينَ إلى خَلقِهِ في إقامةِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاةِ ، مُخبِراً عمّا أعدَّ لَهُم مِنَ الكرامةِ ، وأنّهم يومَ القيامةِ مِنَ التّبِعاتِ آمنونَ) (1).

الرِّبا أمرٌ مَعيبٌ مِنَ الوجهةِ الاقتصاديّةِ ؛ لأنّهُ يجعلُ العلاقةَ بينَ أصحابِ الأموالِ وبينَ العاملينَ في التِّجارةِ والصِّناعةِ ، علاقَةَ مُقامَرةٍ ومُشاكَسَةٍ مُستمرّةٍ . فإنَّ المُرابي يجتهدُ في الحُصولِ على أكبرِ فائدةٍ ، ومِنْ ثَمَّ يُمسِكُ المالَ حتّى يزدادَ اضطرارُ التِّجارةِ والصِّناعةِ إليهِ ، فيرتفعَ سعرُ الفائدةِ ، ويبقى يرفعُ السِّعْرَ حتّى يجِدَ العاملونَ في التِّجارةِ والصِّناعةِ ، أنّهُ لا فائدةَ لَهُم من استخدامِ هذا المالِ ؛ لأنّهُ لا يُدِرُّ عليهِم ما يوفونَ بِهِ الفائدةَ .

بهذا يتّضِحُ أنّ النِّظامَ الرِّبَويَّ بلاءٌ على الإنسانيّةِ - لا في إيمانِها وأخلاقِها وتصوُّرِها للحياةِ فَحَسْبُ - بل كذلكَ في صميمِ حياتِها الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ والعمليّةِ ، وإنّهُ أبشعُ نظامٍ يَمْحَقُ سعادةَ البشريّةِ مَحقاً ، ويُعطِّلُ نظامَها الإنسانيَّ المُتوازِنَ .

---

(1) إسماعيل بن عمر بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، 1/313 ، 317.

الرِّبا لا أخلاقَ ولا مُثُلَ عُليا فيهِ ، عِلماً أنَّ النِّظامَ الأخلاقيَّ والعمليَّ في الإسلامِ مُترابطان مُتلازمان تماماً ، فليسَ هُناكَ نظامٌ أخلاقيٌّ وَحْدَهُ ، ونظامٌ عمليٌّ وحدَهُ ، وإنّما هُما معاً يؤلِّفانِ نشاطَ الإنسانِ ، وإنَّ الاقتصادَ الإسلاميَّ النّاجحَ لا يقومُ بغيرِ أخلاقٍ نبيلةٍ . والأخلاقُ في الإسلامِ ليستْ نافلةً ، يُمكِنُ الاستغناءُ عنها ، ثُمَّ تنجَحُ الحياةُ العمليّةُ بينَ النّاسِ . لا بُدَّ إذاً منَ القِيَمِ الإنسانيّةِ ، لا سيما إنَّ عهدَ الرّسالةِ الإسلاميّةِ (كانَ يُمثّلُ حضارةً إنسانيّةً ، وإنْ كانَ مُجتمَعُهُ من الناحيّةِ الاقتصاديّةِ ، ليسَ مُجتمعاً صناعيّاً ، ولا تكنولوجيّاً . بل كانَ مُجتمعاً زراعيّاً بدائيّاً . . . . [لكنَّ الرّوابطَ بينَ أفرادِهِ] كانت روابطَ إنسانيّةً ، قبلَ أنْ تكونَ اقتصاديّةً ، والروابطُ الإنسانيَّةُ فيهِ ، هيَ التي حقّقتْ معنى الإحسانِ في ترابُطِ أفرادِهِ ، بعدَ العدلِ الّذي يُعَدُّ مُقدِمةً لَهُ . . . فالإحسانُ هو عطاءٌ من إنسانيّةِ الإنسانِ : مُمثّلاً : في مالٍ . . أو في عِلْمٍ . . أو في مهنةٍ . . أو في قوّةٍ . . أو في جاهٍ أو سُلطةٍ ، دونَ مُقابِلٍ ماديٍّ أو معنويٍّ . . . وكذلكَ ما يُقالُ : مِنْ أنَّ ارتقاءَ الإنسانِ ماديّاً وروحيّاً ، رهْنٌ بحالتِهِ الاقتصاديّةِ ، تُكذِّبُهُ حضارةُ الإسلامِ من جانبٍ ، وحضارةُ الفُرسِ والرُّومِ من جانبٍ آخرَ ، فالحضارةُ الأخيرةُ كانَ يُساندُها الاقتصادُ . ومعَ ذلكَ لم يكنْ خُلُقُها رفيعاً ، ولا أُسلوبُها في السُّلوكِ والمُعاملَةِ طيّباً .

بينما الحضارةُ الأولى كانَ يسندُها الإيمانُ دونَ الاقتصادِ . ومعَ ذلكَ هيَ الّتي وقَتِ البشريّةَ وأنقذتْها ، من شُرورِ الحضارةِ الماديّةِ ، وفسادِ مُجتمعاتِها)[1] .

كذلكَ حديثُ القُرآنِ الكريمِ ، حَولَ عدَمِ احتجابِ الاقتصادِ في الدُّنيا ، عن غيرِ المؤمنينَ بالقيَمِ الإنسانيّةِ ؛ وذلكَ لأنّهُ متاعٌ زهيدٌ زائلٌ ، يليقُ بالحياةِ الدُّنيا

---

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، ص ٢٩-٣١ .

ولا يتجاوزُ حُدودَها ، عِلْماً أنَّ المَيْلَ إلى الدُّنيا وَطَلَبَ متاعِها فِطْريٌّ في الإنسانِ . لو أُعْطِيَها الكافرُ بسببِ كُفْرِهِ ؛ لمالَ إليها كُلُّ النّاسِ ، وطلبوها بالكُفْرِ ، ولا يعني هذا أنّ الإسلامَ لا يحُثُّ على اقتناءِ المالِ ، بأنواعِهِ المنقولَةِ وغيرِ المنقولةِ ، أو هو ضدُّ الدُّنيا والثّراءِ ، ويُشجّعُ البؤسَ والفقرَ والبأساءَ ، ليسَ الأمرُ هكذا . بل إنَّ الإسلامَ أمرَ المُسلمينَ بالعملِ وبذْلِ الجُهدِ والطّاقةِ ، والاكتفاءِ الذاتيِّ والاستقلالِ ، وعدَمِ التّبعيّةِ في الاقتصادِ .

بلْ مَلَكَ كثيرٌ مِنَ الصّحابةِ الكِرامِ رضوانُ الله عليهِم ، الأموالَ الطّائلةَ ، لكنّهُم لَم يكونُوا عبيدَ مالٍ أو اقتصادٍ . إنّما كانوا أهلَ إيثارٍ وتضحيةٍ وبذلٍ في سبيلِ اللهِ تعالى وعَطاءٍ ، كانوا أصحابَ عزمٍ وعزيمةٍ ، قِيَمُهُمُ الإنسانيّةُ المُثلى : هي التي توظّفُ المالَ والاقتصادَ معاً .

لكِنَّ قِيَمَ هذهِ الأرضِ الماديّةِ ، لَهِيَ مِنَ الزّهادَةِ والرُّخصِ ، في ميزانِ اللهِ تعالى ، حيثُ لو شاءَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى لأغدقَها على الكافرينَ بهِ إغداقاً . ولكنَّهُ يبسُطُ الرِّزقَ ويَقْدرُ ، حسَبَ حِكْمَةٍ يعلَمُها اللهُ تعالى وحْدَهُ ، ثمَّ حَذَراً أنْ تكونَ فتنةً لكثيرٍ مِنَ النّاسِ ، فتصدَّهُم عن الإيمانِ باللهِ تعالى ، لهذا يقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى في قُرآنِهِ العظيمِ :

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

لولا أنْ يُفتَنَ النّاسُ ، واللهُ سُبحانَهُ وتعالى أعلَمُ بضعفِهِم ، وتأثيرِ عَرَضِ الدُّنيا في قُلوبِهِم ، لَجَعَلَ لِمَنْ يكفُرُ بالرّحمنِ (بيوتاً سُقُفُها مِنْ فِضّةٍ ، وسلالمُها مِنْ ذَهَبٍ ، ... وقُصوراً ذاتِ أبوابٍ كثيرةٍ . فيها سُرُرٌ للاتّكاءِ [عليها] ، وفيها زُخرُفٌ للزّينَةِ . . . رمزاً لِهوانِ هذهِ الفضّةِ والذّهبِ والزّخرُفِ والمتاعِ ، [على اللهِ سُبحانَهُ وتعالى] ، بحيثُ تُبذَلُ هكذا رخيصةً لِمَنْ يَكفُرُ بالرّحمنِ .

[لكنّ هذهِ القيَمَ الوضعية] عندَ اللهِ تعالى زهيدةٌ زهيدةٌ ، ومِنْ ثمَّ يشتركُ فيها الأبرارُ والفُجّارُ ، وينالُها الصّالحونَ والطّالحونَ ، بينَما يختَصُّ برحمتِهِ المُختارينَ المُتّقينَ ، وهؤلاءِ هُمُ المُكرمونَ عندَ اللهِ تعالى بتقواهُم ؛ فهوَ يدَّخِرُ لَهُم ما هوَ أكرمُ وأبقى ؛ ويُؤثِرهُم بما هوَ أقومُ وأغلى . ويُميِّزُهُم على مَنْ يكفُرُ بالرّحمنِ ، ممّنْ يبذُلُ لَهُم مِنْ ذلكَ المتاعِ الرّخيصِ ما يَبْذُلُهُ للحيوانِ! والقلبُ المؤمِنُ يطمئِنُّ لاختيارِ اللهِ تعالى للأبرارِ وللفُجّارِ)(١) .

يضعُ القرآنُ المجيدُ إذاً الأُمورَ في نصابِها ، ويكشِفُ عن سُنَنِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، في توزيعِ الأرزاقِ في الدُّنيا والآخرةِ ، ويُقرِّرُ حقيقةَ القيَمِ ، كما هي عندَ اللهِ ثابتةٌ . ثُمَّ يرسي القواعدَ الأساسيّةَ ، والحقائقَ الكُلّيّةَ التي لا تضطَرِبُ ولا تتغيَّرُ ، سيما التي لها علاقةٌ وطيدةٌ في صميمِ الحياة : النّفسيَّةِ ، والسِّياسيَّةِ ، والاقتصاديَّةِ ، والاجتماعيَّةِ ، مهما تعدَّدتِ المذاهبُ ، وتنوَّعتِ البيئاتُ ، واختلَفَتِ النُّظُمُ .

إنَّ ما يُعطيهِ اللهُ تعالى للفُجّارِ مِنْ حُطامِ الدُّنيا ، لا يدُلُّ على كرامةٍ لَهُم عندَهُ ، ولا يُشيرُ إلى فلاحِهِم في الآخرةِ ؛ لأنَّ العاقبةَ عندَ اللهِ للمُتّقينَ ، ويُشيرُ الرّسولُ ﷺ إلى هَوانِ الدُّنيا على اللهِ عزَّ وجلَّ في الحديثِ الشّريفِ الصَّحيحِ .
عن سهلِ بنِ سعدٍ رضيَ اللهُ عَنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «لو كانتِ الدُّنيا تعدِلُ عِندَ اللهِ جناحَ بعوضَةٍ ، ما سَقى كافراً مِنها شَرْبَةَ ماءٍ»(٢) .

يُفهَمُ مِنَ التعاليمِ الإسلاميّةِ في ضَوْءِ الحديثِ الشّريفِ ، أنَّ الثّروةَ وجميعَ العناصرِ الماديّةِ الأُخرى ، ليستْ هَدفاً في حدِّ ذاتِها ، وإنّما هيَ وسيلةٌ لتحقيقِ مُتطلباتِ الحياةِ الاجتماعيّةِ العامّةِ لجميعِ أفرادِ المُجتمعِ ، إذا أحسنتِ الدّولةُ

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ص٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٢) محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي «٢٠٩-٢٧٩هـ»: مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرح جمله وألفاظه وعلّقَ عليهِ ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث «٢٣٢١» ، ص٣٣٣ .

توظيفَها ونظامَ تداوُلِها ، بحيثُ لا يتنعَّمُ بها المُتنفِّذونَ مِنْ عِلْيَةِ القومِ ، ويُحرمُ منها الآخرونَ من الفقراءِ والمُحتاجينَ ، وإذا أحسنَ الأفرادُ أيضاً استخدامَها ، حيثُ لا يترتّبُ عليها إشباعُ حاجاتٍ ضارّةٍ أو مُحرّمةٍ . لذلكَ أمرَ الإسلامُ بالبحثِ عنْ كُنوزِ الأرضِ وخيراتِها ، واستعمالِها في إنتاجِ حياةِ البشرِ ، وإلى تنميةِ هذا الإنتاجِ لإسعادِهم ، وتضييقِ التّفاوُتِ بينَ مستوياتِ معيشتِهم ، حتّى تتحقّقَ بذلكَ عدالةٌ اجتماعيّةٌ عامّةٌ .

الإسلامُ يضعُ الاقتصادَ في خِدمةِ الإنسانِ ؛ لأنّهُ ينظُرُ إلى الاقتصادِ (على أنّهُ عامِلٌ رئيسيٌّ [رئيسٌ] في حياةِ الإنسانِ ، لكنّهُ لا يَفْضُلُ الإنسانيّةَ في قيَمِها العُليا ، كما لا ينبغيَ لَهُ : أنْ يطغى على الروابطِ بينَ الإنسانِ والإنسانِ . [مُهمّةُ الإسلامِ أن يجعلَ التّوازُنَ بينَ] القيَمِ الإنسانيّةِ والقيمَةِ الاقتصاديّةِ ، [حيثُ] يُخفّفُ مِنْ غَلْواءِ الاقتصادِ واستعلائِهِ في نظَرِ الماديّةِ ، ويضَعَهُ في حَجمِهِ [الطّبيعيُّ] الواقعيُّ . وفي الوقتِ نفسِهِ يرفعُ مِنَ القيَمِ الإنسانيّةِ ، الّتي أهدَرتْها الماديّةُ ، وكادتْ تُلغيها تماماً)[1].

وضَعَ الإسلامُ العلاقاتِ والقيمَ الإنسانيَّةَ ، في موضعٍ أسمى وأعلى مِنَ الروابطِ الاقتصاديّةِ والماديّةِ ، لأنَّ العلاقاتِ الاجتماعيّةِ التي تقومُ على أساسِ القيَمِ الإنسانيّةِ ، تؤدّي إلى تماسُكِ المُجتمَعِ والأُمّةِ ، بينما التّرابُطُ على أساسٍ ماديٍّ اقتصاديٍّ أو قبليٍّ ، يُنتِجُ الخُصُومةَ والفُرْقَةَ ، فالهلاكَ والفناءَ . يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(آل عمران:١٠٣) .

---

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، ص ١٣-١٥ .

جَعَلَ الإسلامُ هداية اللهِ تعالى ، هيَ الرابطةُ بينَ المُؤمنينَ بعضِهم ببعضٍ ، تُغذِّيها أُخوةٌ إيمانيّةٌ ، تنبثِقُ مِنَ التّقوى والإسلام ، أساسُها الاعتصامُ بحبلِ اللهِ تعالى . أيْ على عهدِهِ ونهجِهِ ودينِهِ ، وليستْ مُجرَّدَ تجمُّعٍ على أيِّ تصوُّرٍ آخرَ ، مِنْ تصوُّراتِ الجاهليّةِ ، القائمةِ على الأطماعِ الشخصيّةِ والرّاياتِ العُنصُريّةِ . فما كان إلاّ الإسلامُ وحدَهُ ، الّذي يجمعُ بينَ القُلوبِ المُتنافرةِ ، وما كانَ إلاّ حبلُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، الّذي يعتَصِمُ بهِ المؤمنونَ ، فيُصبحونَ بنعمَةِ اللهِ تعالى إخواناً .

هذهِ هيَ الحُزمَةُ مِنَ القيَمِ الإنسانيّةِ ، الّتي جُلُّ وظائفِها ومهامِّها ، إقامةُ منهجِ اللهِ تعالى في الأرضِ ؛ لِتغليبِ الحقِّ على الباطِلِ ، والعملِ للقَضاءِ على الفقرِ ، نُهوضاً بالمُستوى المعيشيِّ للأفرادِ . إذْ عندما تكونُ الثّروةُ بيد الّذينَ يؤمنونَ بربِّهم ، الّذينَ يعيشونَ ويعملونَ وِفقاً لتعاليمِ دينِهمُ الحنيفِ ، تكونُ الثّروةُ عندئذٍ أداةَ خيرٍ وبركةٍ اجتماعيّةٍ ، ووسيلةَ سُموٍّ على النّزواتِ والغرائزِ البهيميّةِ ، ذلكَ مِنْ أجلِ تحقيقِ المُجتمعِ الفاضلِ ، الّذي يعيشُ أفرادُهُ في سعادةٍ ويُسْرٍ ، دونَ أيِّ قلقٍ على مُستقبلِ حياتِهِمُ اليوميّةِ .

«للبهيّ» مؤلّفاتٌ في السياسةِ مِنْ أهمِّها : كتابُهُ : «الإسلامُ في حلِّ مشاكلِ المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ المُعاصرةِ» :

يُبيِّنُ فيهِ رسالةَ الإسلامِ بأنّها هيَ : رسالةُ الإنسانِ في مُستواها الفاضلِ ، إضافةً إلى أنَّ الإيمانَ باللهِ وحْدَهُ ، يستطيعُ من جرّائِهِ أنْ يسموَ الإنسانُ ، وترتقيَ روحُهُ ؛ لأنَّ الإسلامَ ليس فيهِ جُمودٌ (طالَما كانَ الاجتهادُ ، مبدأً أساسيّاً فيهِ ، . . . مبدأُ مُلاحَقةِ التّطوُّرِ والوقائعِ المُتجدِّدةِ ، في إدراجِها تحتَ مبدأٍ مِنَ المبادئِ العامّةِ فيهِ ... كذلكَ ليسَ في عقائدِ الإسلامِ تعقيدٌ . . . ولا تخلُّفٌ . . . بلْ تقدُّمٌ بالسّعي والعملِ [الجادِّ] في الحياةِ الدُّنيا . [الإسلامُ] إنسانيّةٌ خالصةٌ ومسئوليّةٌ فرديّةٌ واضحةٌ .

لَو كانَ الإسلامُ في أوروبا ما نشأتِ العَلمانيّةُ في الفكرِ الأوروبيِّ ، ولَما وَصَلَ تفكيرُ بعضِ المُفكّرينَ في أوروبا إلى التطرُّفِ في الماديّةِ ، والجُنوحِ إلى شحنِ النُّفوسِ بالأحقادِ ، ودفعِها إلى الانقلابِ الدَّمويِّ ، لحلِّ بعضِ المشاكلِ الاجتماعيّةِ . [فإذا طلبَ حاكمٌ] تطبيقَ العَلمانيّةِ في مُجتمَعٍ إسلاميٍّ . . . فذلكَ لعَدَمِ أهليّتِهِ للحُكمِ ، وللهربِ مِنَ المسئوليّةِ التي يُلقيها الإسلامُ على الحاكمِ كحاكِمٍ ، في طلبِ الاستقامةِ في السُّلوكِ وأداءِ الحُكمِ والعدلِ ، والشُّورى المُتبادَلَةِ والرِّعايَةِ ، وليسَ التّسلُّطُ .

أتُرادُ العَلْمانيّةُ في شرقِنا على نَمَطِ إلغاءِ الدِّينِ ، وإشاعةِ الإلحادِ ؛ لتنفردَ الدّولةُ بسُلطتِها ؟! . . . إنَّ النّصيحةَ هيَ دراسةُ الإسلامِ أولاً دراسةً واعيةً . ثُمَّ عُلماءُ المُسلمينَ قبلَ عامَّتِهم عليهم أنْ : يُعيدوا دراستَهُ في كتابِ اللهِ ، ويستوحوا الرأيَ منهُ ، دونَ أنْ يَفرضُوهُ عليهِ من خارجِهِ)[1].

أعلنَ «البهيُّ» خطرَ الفصلِ بينَ الدِّينِ والدّولةِ ، في المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ المُعاصرَةِ ، كما وأعلنَ ـ من مُنطلَقِ الدّعوةِ الإسلاميّةِ ـ أنّ وحدةَ الرابطةِ الإنسانيّةِ ، تجمعُ بينَ شُعوبِ العالَمِ قاطبةً ، فالإنسانُ هوَ نفسُهُ الإنسانُ في أيّةِ ناحيةٍ من الأرضِ ، والغايةُ من الحياةِ البشريّةِ هيَ : أن يتقارَبَ النّاسُ ويتعارفوا ، لا أنْ يتنافَرُوا ويتخاصَمُوا ويتباعدُوا . مِصداقاً لقولِ اللهِ جلَّ وعزَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:١٣) .

هذهِ الآيةُ الكريمةُ تُوحي بأنَّ المُسلمَ بحُكمِ عقيدتهِ ، مفطورٌ على هذهِ العاطفةِ الإنسانيّةِ العميقةِ ، وإنّ التّقسيماتِ السياسيّةَ والحدودَ الجغرافيّةَ ، واختلافَ الأشكالِ واللُّغاتِ والأجناسِ ، لا يُمكنُها أنْ تُقيمَ حاجزاً بينَ إنسانٍ

---

(١) محمد البهي : الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ص٥٥-٥٨.

وآخرَ . بلْ مِمّا يدلُّ على أصالةِ هذهِ الرابطةِ العامّةِ ويؤكِّدُها ، أنَّ الإسلامَ حينَما فرضَ العدلَ لم يَخُصَّ بِهِ أحداً دونَ أحدٍ ، ولا أُمّةً دونَ أُمّةٍ ، فالحقُّ هو الحقُّ معَ المُسلمِ وغيرِ المُسلمِ ، والعدلُ يُفترَضُ أنْ يكونَ هُوَ أساسُ الحُكمِ معَ كلِّ النّاسِ . يُبنى على هذا : أنَّ الدّولةَ الإسلاميّةَ لا تعيشُ مَعَ غَيرِها مِنَ الدُّولِ المُسالمَةِ في عُزلةٍ أو خُصومةٍ . لكنَها حُريّةٌ تتبادَلُ فيها المعرفةَ والمصالحَ ، غيرَ ظالمةٍ ولا مظلومةٍ ، انطلاقاً من قولِهِ تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٣).

الإسلامُ في ضَوءِ القُرآنِ العظيمِ ، منهجٌ واقعيٌّ للحياةِ الإنسانيةِ ، لا يقومُ على خيالاتٍ مثاليّةٍ ، ولا يدعو إلى نظرياتٍ في قوالبَ جامدةٍ ، إنّهُ يواجِهُ الحياةَ البشريّةَ كما هيَ ؛ ليقودَها قيادةً واقعيّةً نحوَ الارتقاءِ ، والسيرِ بها تجاهَ حُلولٍ عمليّةٍ ، تُتاحُ فيها فُرصُ النّجاحِ للجميعِ .

إنَّ الإسلامَ يُريدُ أنْ يُزيلَ البغيَ والشّرَّ مِنْ دُنيا النّاسِ ، بتقليمِ أظافرِ الباطلِ والضّلالِ ، فَهُوَ يَرعى حُرُماتِ الذي يمتنعُ عنْ تَدنيسِ الحُرُماتِ . لكنّهُ لا يسمحُ أنْ تُتخَذَ الحُرُماتُ متاريسَ ، يقفُ خلفَها المُفسدُونَ البُغاةُ الطُّغاةُ ، يسفكونَ دماءَ الأبرياءِ ، ويرتكبونَ كلَّ مُنكرٍ . فلا بُدَّ والحالُ هكذا مِنَ القتالِ ،

(إنّهُ القتالُ للهِ . . . القتالُ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ في الأرضِ ، . . . ليسَ في سبيلِ المَغانِمِ والمكاسِبِ ، ولا في سبيلِ الأسواقِ والخاماتِ . إنّما هُوَ القتالُ لحمايةِ المؤمنينَ ، [خشيةَ] أنْ يُفتَنُوا في دينِهِم ، أوْ أنْ يجرِفَهُمُ الضّلالُ والفسادُ .

[حـدّدَ الإسـلامُ إذاً هـدفَ ومـدى القتـالِ ، فـلا ينبغـي أنْ] يتجـاوزَ القتـالُ المُحاربيـنَ المُعتدِينَ إلـى غيـرِ المُحاربِينَ مِنَ الآمِنينَ المُسالِميـنَ ، الـذيـنَ لا يُشكِّلونَ خطراً على الدّعوةِ الإسلاميّةِ ، ولا على الجماعةِ المُسلمةِ ، كالنّساءِ والأطفالِ والشّيوخِ والعُبّادِ المُنقطعينَ للعبادةِ مِنْ أهـلِ كلّ مِلّةٍ أو ديـنٍ ، كمـا لا يكونُ بتجاوزِ آدابِ القتالِ التي شرَعَها الإسلامُ ، ووضعَ بها حدّاً للشّناعاتِ ، الـتي عرفتهـا حـروبُ الجاهليّـاتِ الغـابرةِ والحاضـرةِ علـى السّواءِ . . . تلـكَ الشّناعاتُ التي يُنفّرُ منها حُسْنُ الإسلامِ وتأباها تقوى الإسلامِ» (١).

لعـلَّ البـلادَ والـدّولَ العربيّـةَ والإسـلاميّةَ الـتي جرّبـتْ مصـائبَ العصـبيّاتِ والقوميّاتِ والوطنيّاتِ ، ثُمَّ غُمّتْ عَليها السُّبُلُ فـي كـلّ مُشكلةٍ محليّـةٍ داخليّـةٍ أو دوليّةٍ . حيثُ أصبحتِ اليومَ في حاجةٍ ، إلى نـوعٍ جديـدٍ مِـنَ الرّابطـةِ ، الـتي تستندُ إلى وحْدةِ الإيمانِ والفكرِ . ولا يتنافى هذا الطّـرحُ مَـعَ الرّابطـةِ الإنسـانيّةِ العامّةِ . لأنّ الإسلامَ يُقرّرُ وحْدةَ الأُمّةِ الإسلاميّةِ ، لكنّها ليست وِحْدةً مُغلقةً على أصحابِها ، بلْ هِـيَ وِحْـدةٌ مفتوحـةٌ مُبصِـرةٌ ، لكـلّ مَـنِ انشرحَ صـدرُهُ لرسـالةِ الإسلامِ ، واقتنعَ بها بمحْضِ إرادتهِ ورغبتِهِ ، بالإضافةِ إلى ضَمانِ حُريّةِ العقيـدَةِ ، لجَميعِ رعايا الدّولةِ الإسلاميّةِ ، كما كَفَلَ العَـيْشَ المُشْـتَرَكَ لكُـلّ النّـاسِ ، وِفْـقَ السّياسَةِ الشّرعيّةِ في الإسلامِ .

مزجَ «البهيُّ» في كتاباتهِ بيـنَ السّياسـةِ والفكـرِ ، مزجـاً آليّـاً اقتضتـهُ حِقبـةُ التّغلغُلِ الاستعماريِّ ، الذي حاولَ أنْ يفرِضَ على أُمّتِنا ، نمطَ التّفكيرِ العَلمـانيِّ الغربـيِّ ، حيـثُ مـارسَ دفعَهـا إلى مَتاهـاتٍ كـثيرةٍ ، بُغيـةَ إبعادِهـا عـن دينِهـا وتاريخِهـا . فبـثَّ التّعـاليمَ العَلمانيّـةَ في سياسـاتِنا ، واقتصـادِنا ، ومدارِسـنا ، وجامعاتِنا .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ص٢٦٩ .

يهدِفُ ـ مِنْ وراءِ هذا ـ الفصلَ بينَ الإسلامِ والحُكمِ ، ومحاولةَ نشرِ الإلحادِ العلميِّ . وما زالَ : (يُحاولُ مُنْذُ الحربِ العالميّةِ الثانيةِ ، أن يفرِضَ علينا عَلمانيّةً مُتطرِّفةً . . . يُريدُ [أنْ يُلغيَ] الدِّينَ عقيدةً ، بعدَ أن طُمِستْ معالِمُهُ عملاً في [مُعظمِ] أوضاعِ المُسلمينَ ، . . . [يبتغي الاستعمارُ الغربيُّ أنْ يُصدِّرَ إلينا] ما يُسمى : «الإلحادَ العلميَّ» ، بأنْ يفرِضَ العَلمانيّةَ ، كحلٍّ لمُشكلةِ ازدواجِ السُّلطةِ ، ولتحقيقِ العَدالةِ الاجتماعيّةِ [كما يزعُمُ] .

ليسَ هُناكَ مكانٌ في جماعةِ المؤمنينَ ، أو في المجتمعِ الإسلاميِّ ، إلى نزاعٍ حولَ السُّلطَةِ ، [فلا يوجدُ بالإسلامِ] مجموعاتٌ لها قداسةٌ [ولأقوالِها] عِصْمَةٌ ، كما هُوَ تَصْويرُ مَبْعثِ النِّزاعِ بينَ الكنيسةِ والدّولةِ في الفكرِ الأوروبيِّ ، . . . [فليستْ عندنا في الإسلامِ] حكومةٌ إلهيّةٌ [خاصّةٌ في] مجموعةٍ مِنَ النّاسِ ، [مهما] كان إخلاصُهُم في العبادةِ للهِ . [فلا حاجةَ البتَّةَ للإسلامِ ولا للمُسلمينَ بالعَلمانيّةِ ، لأنّهُ أصلاً] لم يكنْ في الإسلامِ أبداً ازدواجٌ بالسُّلطَةِ ، ولا ثُنائيّةٌ في شئونِ الحياةِ)[1].

يُشيرُ البحثُ هُنا إلى أنّهُ لا مكانـةَ للعَلمانيّـةِ في الإسـلامِ ، فإمّـا إسلامٌ بـلا عَلمانيّـةَ ، وإمّـا عَلمانيّـةٌ بـلا إسـلامٍ . إنّـهُما ضِـدّانِ لا يلتقيـانِ ، فـلا حاجـةَ للمُسلمينَ الموحِّدينَ للعَلمانيّةِ ؛ لأنّ اللهَ تعالى شـهِدَ لنفسـهِ بالوحْدانيّـةِ ، حيثُ يقولُ سُبحانهُ وتعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ

---

(١) محمد البهي : محاضرة بعنوان «العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق» ، نُشرت في «مُلحق مجلة التفكير الإسلاميّ» رقم«١» ، «أُلقيت في قاعة دار الفتوى اللبنانيّة» ، بيروت ، الثاني من ربيع الثاني عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م .

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(آل عمران: ١٨ - ٢٠).

هَذهِ هيَ الحقيقةُ التي يقومُ عليها التَّصوُّرُ القُرآنيُّ للاعتقادِ في الإسلامِ . إنّها حقيقةُ التّوحيدِ التي تعني: توحيدُ الألوهيّةِ ، وتوحيدُ القوامَةِ بالقِسطِ أو العدلِ ؛ لأجْلاءِ الشُّبهاتِ التي يُلقيها أهلُ الكتابِ بأنفسِهم عنْ أنفسِهم مِنْ جِهةٍ ، وجلاءِها عنِ المُسلمينَ الذينَ قد تؤثّرُ هذهِ الشُّبهاتُ في عقيدتِهم مِنْ جِهةٍ أُخرى .

أمّا شهادةُ اللهِ سُبحانَهُ ، بأنّهُ لا إلهَ إلاّ هو (مسوقةٌ هُنا لِيُساقَ بعدَها ما هُوَ مِنْ مُستلزماتِها ؛ وهو أنّهُ لا يَقبَلُ اللهُ إذنْ من العبادِ إلاَّ العُبوديّةَ الخالصةَ لَهُ ، المُمثّلةَ في الإسلامِ بمعنى الاستسلام - لا اعتقاداً وشُعوراً فحسبُ - ولكنْ كذلكَ عملاً وطاعةً واتّباعاً للمنهجِ العمليِّ الواقعيِّ ، المُتمثّلُ في أحكامِ الكتابِ . . . ومِنْ هذهِ النّاحيةِ نجدُ كثيرينَ في كلِّ زمانٍ يقولُونَ : إنّهم يؤمنونَ باللهِ ، ولكنَّهم يُشركُونَ مَعَهُ غيرَهُ في الأُلوهيّةِ ، حينَ يتحاكمُونَ إلى شريعةٍ مِنْ صُنعِ غيرِهِ ، وحينَ يتلقَّوْنَ التّصوُّراتِ والقيمَ ، والموازينَ والأخلاقَ والآدابَ مِنْ غيرِهِ . وأمّا شهادةُ الملائكةِ وشهادةُ أولي العلمِ ، فهيَ مُتمثّلةٌ في طاعتِهم لأوامرِ اللهِ ، والتّلقّي عنِ اللهِ وحدَهُ ، والتّسليمِ بكلِّ ما يجيئُهُم مِنْ عندهِ بدونِ تشكُّكٍ ولا جدالٍ ، وشهادةُ اللهِ سبحانهُ وشهادةُ الملائكةِ وأُولي العلمِ بوحدانيّةِ اللهِ ، يُصاحبُها شهادتُهُم بأنّهُ تعالى ، قائمٌ بالقِسطِ [أو العدلِ المُطلقِ] ، بوصفِها حالةً مُلازِمَةً للأُلوهيّةِ .

أمّا اختلافُ أهلِ الكتابِ ، ليسَ اختلافاً عنْ جهلٍ بحقيقةِ الأمرِ ، فقدْ جاءَهُمُ العِلمُ القاطعُ بوحدانيّةِ اللهِ ، وتفرُّدِ الألوهيّةِ ، وبطبيعةِ البشريّةِ ، وحقيقةِ

العُبوديَّةِ ، . . . [فكانَ اختلافُهم ظُلماً وعُدوانًا] ، وقد عدَّ الاختلافُ على حقيقةِ التّوحيدِ كُفراً ، وهدّدَ اللهُ [تعالى] الكافرينَ بسُرعةِ الحسابِ ؛ كي لا يكونَ الإمهالُ - إلى أجلٍ - مَدعاةً للُّجاجَةِ في الكُفرِ والإنكار والاختلافِ . . . فالمُشركونَ وأهلُ الكتابِ هُمْ مَدْعُوونَ للإقرارِ بتوحيدِ ذاتِ اللهِ ، ووحدةِ الألوهيّةِ ووحدةِ القَوامَةِ . مَدْعُوونَ بعدَ هذا الإقرارِ إلى الخُضوعِ لمُقتضاهُ ، وَهُوَ تحكيمُ كتابِ اللهِ ونهجِهِ في الحياةِ)[1].

الإسلامُ لا يَعرِفُ العصمةَ والقداسةَ لأحدٍ مِنَ البشرِ . أمّا الرُّسُلُ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ : فإنّهُم معصومونَ في الأمورِ التشريعيّةِ الدّينيّةِ الموحَى بها من اللهِ تعالى ، وليسَ في كلِّ الشُّئونِ الدُّنيويّةِ ، كقصّةِ تأبيرِ النّخلِ مثلاً . فالنّاسُ كما هم سواءٌ في الاعتبار البشريِّ ، هُم سواءٌ أيضاً في التّعرُّضِ للخطأ والصّوابِ ، والفاضلُ بينهُم ليس هو الذي لا يُخطِئُ ، وإنّما هو الذي لا يَقصِدُ الخطأَ .

إنَّ دينَ اللهِ الإسلامُ لا يعرِفُ تفرقةً عُنصُريّةً ، ولا إنساناً مُقدّساً معصوماً في الحُكمِ أوِ التّقديرِ والرّأيِ . يُريدُ الإسلامُ أن لا يسقُطَ الإنسانُ إلى مستوى الحيواناتِ العجماواتِ في إغفالِ الرُّوحِ والقلبِ أوِ العقلِ ، لكنّهُ يحُثُّ الإنسانَ لكي يكونَ لَبنةً مصقولةً ، في بناءِ المُجتمعِ الإنسانيِّ الكبير ، سياسيّاً ، واقتصاديّاً ، واجتماعيّاً ، وفي شتّى مناحِي الحياةِ كُلِّها .

والآنَ إذا تُرِكَ الإسلامُ (دينُ اللهِ ورسالةُ محمدٍ عليهِ الصّلاةُ والسلامُ ، في المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ ، وأُبعِدَ عن أن يكونَ من مُقوِّماتِ الدّولةِ العصريّةِ ، فذلكَ يرجِعُ إلى أحدِ أمرينِ :

١- إمّا إلى تقليدِ المُجتمعِ الأوروبيِّ ، في غَربِهِ أوفي شَرقِهِ ، تقليداً ينطوي على التّبعيّةِ المُطلقةِ ، في إعراضٍ عن مُراجعةِ الإسلامِ ، وتاريخِ المُجتمعِ الإسلاميِّ .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ص٥٥٦-٥٦١ .

٢- وإمّا سعياً للتّخلُّصِ مِنْ مبادئِ الإسلامِ في الحُكْمِ ، وهيَ تلكَ المبادئُ التي لا تُساعِدُ على أنْ تكونَ السُّلطةُ للتّسلُّطِ ، ولا على أنْ يكونَ الحُكمُ لجاهِ الحُكمِ .

تلكَ المبادئُ الإسلاميّةُ التي أدناها العدلُ ، وأرفعُها الإحسانُ . . . والعدلُ إذا كان توازُناً

في المُبادلَةِ والمُعامَلَةِ ، وإحقاقِ الحقِّ لكُلِّ صاحبِ حقٍّ .

فالإحسانُ هو إعطاءٌ من إنسانيّةِ المُحسنِ ، مُمثَّلاً في عَمَلِ خيرٍ إنسانيٍّ ، أو في مُعاونَةٍ للفقيرِ ، أكثرَ مِنَ الأخذِ مِنْهُ .

تلكَ المبادئُ التي تجعلُ الحُريّةَ ، أمراً مُكتَسَباً للفردِ ، لا تُوهَبُ مِنْ أحدٍ سواهُ ، وإنّما تُنزَعُ عنْ طريقِ العبادةِ للهِ سبحانَهُ وتعالى ، مِنَ هَوَى النّفسِ وشَهَواتِها) (١).

يعرِفُ الإسلامُ إذاً السُّلوكَ الإنسانيَّ المُهذّبَ ، أوِ المُستوى البشريَّ الفاضلَ في السياسةِ والحُكمِ ، بعيداً عنِ الشُّعوبيّةِ المقيتَةِ ، نابِذاً للتَّفْرقَةِ العُنصُريَّةِ البغيضَةِ . إنّما يعرِفُ مقياساً واحداً ، يقيسُ بهِ منازِلَ الأفرادِ ومُستوياتِهم ، هو مقياسُ التّقوى ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

يُنادي اللهُ تعالى النّاسَ جميعاً على اختلافِ أجناسِهم وألوانِهم ، ليَرُدَّهُم إلى أصلٍ واحدٍ ، وإلى ميزانٍ واحدٍ بقيمَةٍ واحدةٍ ، هيَ التّقوى التي تسقُطُ أمامَها جميعُ القيَمِ والفوارقِ ، فالكريمُ حقّاً هو الكريمُ عند اللهِ تعالى ؛ لأنّهُ يزِنُ الإنسانيّةَ جمعاءَ عنْ عِلْمٍ كاملٍ وخبرةٍ تامّةٍ بالقيَمِ والموازينِ ، وإلى هذهِ القيمةِ يرجعُ اختلافُ البشَرِ في الميزانِ الأُخرويِّ .

---

(١) محمد البهي : خمس رسائل إلى الشباب المسلم المُعاصر ، ص٦٤ ، ٦٥ .

هكذا تتوارَى جميعُ أسبابِ النّزاعاتِ السّياسيَّةِ وغيرها ، وترخُصُ كُلُّ القيَمِ التي يتكالبُ عليها النّاسُ ، ويظهرُ سَبَبٌ ضَخمٌ واضِحٌ للألفةِ والتّعاونِ هو : أُلوهيةُ اللهِ للجميعِ ، الذي خلقَهُم مِنْ أصلٍ واحدٍ ، كما يرتفعُ لواءٌ واحدٌ يتسابقُ الجميعُ ليمثُلوا تحتَهُ وحدَهُ : لواءُ التّقوى والآدابِ النّفيسةِ ، وبذلكَ يتحققُ التّعارفُ والوِئامُ ، لا التّناحرُ والخِصامُ ، وإنْ تعددتِ المواهبُ والاستعداداتُ ، فهو تعدُّدٌ نوعيٌّ حميدٌ ، لا يقتضي النّزاعَ والشّقاقَ ، بل يقتضي التّعاوُنَ للنُّهوضِ بجميعِ التّكاليفِ ، والوفاءَ بكُلِّ الحاجاتِ معروفاً وإيثاراً ، اتّباعاً لسُنّةِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، الذي يقولُ في حديثِهِ الشّريفِ : عنِ النُّعمانِ بن بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «مَثَلُ المؤمِنينَ في توادِّهِم وتراحُمِهِم وتعاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ ، إذا اشتكَى مِنْهُ عُضوٌ ، تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[1].

وعنْ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : «يَا عَلِيُّ : إنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ المَعْرُوفَ ، وخَلَقَ لَهُ أهلاً فَحَبَّبَهُ إليهم ، وَحَبَّبَ إليهم فِعالَهُ ، وَوَجَّهَ إليهم طُلاَّبَهُ ، كَما وَجَّهَ الماءَ فِي الأرضِ الجَدْبَةِ لِتَحيَا بِهِ ، وَيَحيَا بِهِ أهْلُهَا . إنَّ أهْلَ المَعْرُوفِ فِي الدُّنيا ، هُم أهلُ المَعْرُوفِ فِي الآخرةِ»[2].

المُسلمونَ إذاً جميعاً في الشَّريعةِ مسئولُونَ أمامَ اللهِ تَعالى عمَّا استرعاهُم ، حفِظُوا أمْ ضيَّعُوا ، لذا تسوسُ الدّولةُ الإسلاميّةُ رَعاياها ، على أنَّهُم مُتساوونَ في الحُقوقِ ، والواجباتِ ، والمسؤوليّاتِ ، على اختلافِ شُعوبِهِم وقبائِلِهِم ، لأنَّ النِّظامَ الإسلاميَّ يُطبِّقُ مبدأَ المُساواةِ ، إلى مدًى أكثرَ بُعداً ممّا يتصوَّرُهُ العقلُ

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : مختصر صحيح مسلم ، اختصره عبد العظيم بن عبد القوي المُنذري ، حققه وعلّق عليهِ وخرّجَ أحاديثه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث «١٧٧٤» ، ص٥٣٤ .

(٢) عز الدين بليق : منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ، رقم الحديث «٨٦٥» ، ص٤٠٨ .

البشريُّ المُعاصِرُ ، فلا قُيودَ ولا استثناءاتِ لأيِّ أحدٍ من النّاسِ (وإنّما مُساواةٌ تامّةٌ بينَ الأفرادِ ، مُساواةٌ تامّةٌ بينَ الجماعاتِ ، مُساواةٌ تامّةٌ بينَ الأجناسِ ، مُساواةٌ تامّةٌ [بينَ الحاكمينَ والمحكومينَ ، وبينَ الرؤساءِ والمرؤوسينَ] وحتى غيرِ المُسلمينَ مِنْ رعايا الدّولةِ الإسلاميّةِ ، هُم والمُسلمونَ أمامَ التّشريعِ سواءٌ . بينما تُميِّزُ القوانينُ الوضعيّةُ دائماً ، بينَ رئيس الدّولةِ الأعلى ، مَلِكاً كانَ أو رئيسَ جمهوريّةٍ وبين [غيرِه من بقيّةِ أفرادِ الرّعيّةِ] فبينما يخضعُ الأفرادُ للقانون ، فإنَّ رئيسَ الدّولةِ لا يخضَعُ لَهُ ، بِحُجّةِ أنّهُ مصدرُ القانون ، وأنّهُ السُّلطةُ العُليا ، فلا يَصحُّ أنْ يخضعَ لِسُلْطَةٍ أدنى مِنْهُ وَهُوَ مَصْدَرُها) [1].

إنَّ السِّياسَةَ الشَّرْعيَّةَ في الإسلامِ ، تُعطي كُلَّ إنسانٍ ـ مهما كانتْ صفتُهُ ومُهمّتُهُ ـ حقَّهُ في التّعبيرِ عن كُلِّ أمرٍ يعتقِدُهُ ثابتاً صائباً ؛ لأنَّ الشّريعةَ الإسلاميّةَ تقومُ على المُساواةِ الحقيقيّةِ الكاملَةِ ، والأخلاقِ الفاضلَةِ ، وتَرمي إلى إصلاحِ وتقويمِ الفردِ والجماعةِ ، ورفعِ مُستوى الفضيلَةِ بينَهُم . فالسّلامُ في الإسلامِ وَحَّدَ الإنسانيّةَ كُلَّها ، وربطَها برباطٍ واحدٍ ، وجمعَ بينَ النّاسِ جميعاً في غايتِهِم ووجهتِهِم وهيَ : عِبادةُ إلهٍ واحدٍ .

كما وأبعدَهُم عنِ المُنازعاتِ والشّحناء ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾
(الأنفال: ٤٥-٤٧)

بيّنتِ الآياتُ الكريماتُ عواملَ النّصرِ الحقيقيّةِ ، وهيَ : الثّباتُ عندَ لقاءِ العدوِّ ، ودوامُ الاتصالِ باللهِ تعالى ذِكْراً وشُكراً ، والطّاعَةُ للهِ تعالى باتّباعِ أوامرِهِ

---

(١) سعيد حوّى : الإسلام ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ٥٧٣/١ ، ٥٧٤ .

واجتنابِ نواهيهِ ، فأمَّا طاعةُ الرسولِ ﷺ ، فَتكُونُ : بالتزامِ سُنّتِهِ وهدْيِهِ ، وَتجنُّبِ النِّزاعِ والشِّقاقِ ، وَالصَّبرِ على التكاليفِ الإيمانيّةِ ، والحَذَرِ كُلَّ الحذَرِ من البطَرِ والبَغْيِ والرِّياءِ .

أمّا الثَّباتُ : (فهوَ بِدءُ الطّريقِ إلى النّصرِ ، فأثبتُ الفريقينِ أغلبُهُما ، . . . وما الذي يُزلزِلُ أقدامَ الذينَ آمنُوا وهُم واثِقونَ مِنْ إحدى الحُسنيَيْنِ : الشّهادةُ أوِ النّصرُ؟ بينما عدوُّهُم لا يُريدُ إلاَّ الحياةَ الدُّنيا ؛ وهو حريصٌ على هذهِ الحياةِ التي لا أملَ لَهُ وراءَها ، ولا حياةَ لَهُ بعدَها ، ولا حياةَ لَهُ سِواها؟! .

وَأمّا ذِكْرُ اللهِ عندَ لقاءِ الأعداءِ : فهو التّوجيهُ الدّائمُ ؛ كما أنّـهُ التّعليمُ المُطّرِدُ [والزّادُ الحقيقيُّ الذي يرفعُ المعنوياتِ الإيمانيّةِ] ، . . . إنَّ ذِكْرَ اللهِ عندَ لقاءِ العدوِّ يؤدّي وظائفَ شتّى : إنّـهُ الاتصالُ بالقوّةِ التي لا تُغلَبُ ؛ والثِّقةُ باللهِ الّذي يَنصُرُ أولياءَهُ . . . فهيَ معركةٌ للهِ ، لتقريرِ أُلوهيّتِهِ في الأرضِ .

أمّا طاعةُ اللهِ تَعالى ورسولِهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ : لكي يدخُلَ المؤمنونَ المعركةَ مُستسلمينَ للهِ ابتداءً ؛ فتبطُلَ أسبابُ النِّزاعِ التي أعقبتِ الأمرَ بالطّاعةِ ، فما يتنازعُ النّاسُ إلاَّ حينَ تتعدّدُ جهاتُ القيادةِ والتّوجيهِ ؛ وإلاَّ حينَ يكونُ الهوى المُطاعُ هو الذي يُوجِّهُ الآراءَ والأفكارَ . فإذا استسلمَ النّاسُ للهِ سُبحانَهُ وتعالى ولِرسولِهِ ﷺ : انتفَى السّببُ الأوّلُ الرّئيسيُّ للنزاعِ بينَهُم - مهما اختلفتْ وجهاتُ النّظرِ في المسألةِ المعروضةِ - فليسَ الذي يُثيرُ النِّزاعَ ، هو اختلافُ وجهاتِ النّظرِ فقطِ ، إنّما هو الهَوى الذي يجعلُ كلَّ وجهةٍ يُصرُّ عليها ، مهما تبيّنَ لَهُ وجهُ الحقِّ فيها . . . ومِنْ ثَمَّ هذا التّعليمُ بطاعةِ اللهِ تعالى ورسولِهِ عليهِ السّلامُ عندَ المعركةِ ، إنّـهُ من عملياتِ الضّبطِ ، التي لابُدَّ منها في المعركةِ . . . إنّها طاعةُ القيادةِ العُليا فيها .

أمّا الصّبْرُ : فهو الصِّفَةُ التي لا بُدَّ منها في ميدانِ النَّفسِ ، أو في ميدانِ القتالِ ، وهذهِ المعيَّةُ من اللهِ هيَ الضّمانُ للصّابرينَ بالفوزِ [والغَلَبَةِ] والفلاحِ . . . ويبقى

التّعليمُ الأخيرُ [للمؤمنينَ بأنْ لا يخرُجُوا للقتالِ بَطَراً ولا فخراً ولا عُجباً ، إنّما يخرُجُونَ] للقتالِ في سبيلِ اللهِ ؛ لتقريرِ أُلوهيّتِهِ سُبحانَهُ في حياةِ البشرِ ، وتقريرِ عُبوديّةِ العبادِ للهِ وحدَه ، وتحريرِ الإنسانِ في الأرضِ من كلِّ عُبوديّةٍ لغيرِ اللهِ تعالى) [١].

قرّرَ الإسلامُ حقيقةَ السّلامِ على أسمى ما تصبُو إليهِ البشريّةُ ، فتجنّبَ الاعتداءَ والبدءَ بالقتالِ ، ثمَّ في حالةِ ما إذا استحكمَتِ العداوةُ ، وهدّدتِ الظّروفُ بوقوعِ حربٍ (دعا المُسلمينَ إلى قَبولِ كُلِّ شروطٍ للصُّلحِ يَعرِضُها عليهِم أعداؤُهُم ، ما دامتْ تُؤدّي لحقَنِ الدّماءِ ، وصيانَةِ الحُرُماتِ وتقريرِ الأمنِ والسّلامِ للجّانبينِ ، وما دامَ ذلكَ لا يَخدِشُ كرامتَهُم ، ولا يذهَبُ بعزّتِهِم . مِنَ الأمثلةِ الواضحةِ في ذلكَ : الموقِفُ السّلميُّ النّبيلُ لتلكَ المُعاهدَةِ ، التي عقدَها النّبيُّ ﷺ ، ووقّعها بنفسِهِ معَ قريشٍ في عامِ الحُديبيةِ) [٢].

بهذهِ القوّةِ الدّافعةِ والسِّياسَةِ الحكيمَةِ ، التي غرسَها الإسلامُ في أتباعِهِ ، وبهذهِ الرُّوحِ المعنويّةِ المِعطاءةِ ، التي أحلَّها بأجسامِهِم . استطاعَ الإسلامُ أنْ يسودَ وينتشِرَ ، فأيُّ سياسةٍ أروعُ؟! وأيُّ جهادٍ أقدسُ ؟! مِنْ هذهِ السِّياسَةِ ، ومن هذا الجهادِ . الذي سَمَتْ غايتُه ، وشَرُفَ هدفُهُ ، فكانَ روحاً لا شَهوةً ، وسلاماً لا حرباً ، وحُريّةً لا عُبوديّةً ، ونظاما لا فوضى فيهِ .

على هذهِ الأُسسِ الإصلاحيّةِ وتلكَ الأُصولِ العِمرانيّةِ ، دأبَ الإسلامُ وسارَ ، فحذّرَ المُسلمينَ مِنْ أنْ يَستَنُوا بسُنّةِ أهلِ الظُّلمِ ، في أخذِ الشُّعوبِ بالقوّةِ والجبروتِ وتخريبِ العامرِ من ديارِهِم ومُدنِهِم ، لذلكَ كانَ المُسلمونَ مِثالاً حيّاً في جميعِ فتوحاتِهِم ، يَعِفُونَ ويَعفُونَ ويتسامَحُونَ ويرأفُونَ . كانَ شعارُهُم في ذلكَ الرحمةَ والعدلَ والإصلاحَ في الأرضِ .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مج٤ ، ١٠/٢٥-٢٧ .

(٢) محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٠٤ .

فمن أرادَ أن يكونَ عزيزاً في دينِهِ وفي آخرتِهِ ، عـزيـزاً عندَ اللهِ ثمّ عندَ النّاسِ ، فليُدافعْ عن دينِهِ ووطنِهِ ، وليسلُكْ سبيلَ المُجاهدينَ الأوّلينَ من المُسلمينَ ، فهُمُ القُدوةُ الحسنةُ والأُسوةُ الطّيبةُ ، وفي ذلكَ يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٢١،٢٢) .

نِداءٌ مِنَ اللهِ تعالى للمُؤمنينَ على مَرِّ العُصورِ والأزمنةِ : لقد كانَ لكُم في هذا الرّسولِ العظيمِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ قُدوةٌ حسنةٌ ، تقتدُونَ بهِ في إخلاصهِ ، وجهادِهِ ، وصبرِهِ ، وفي سياستِهِ وحكمتِهِ ، فهو المثَلُ الأعلى الذي يجبُ أنْ يُقتدَى بِهِ ، في جميعِ أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ ؛ لأنّهُ لا ينطِقُ ولا يفعلُ عنْ هوًى ، ولكنْ عن وحيٍ وتنزيلٍ .

لذلكَ يجبُ عليكُم أنْ تتّبِعوا نَهجَهُ ، وتسلُكوا طريقَهُ ، وذلكَ لِمَنْ كانَ مُؤمِناً مُخلِصاً ، يرجو ثوابَ اللهِ ويخافُ عِقابَهُ ، وأكثَرَ مِنْ ذِكرِ ربِّهِ بلسانِهِ وقلبِهِ . ثُمَّ يلتفِتُ السّياقُ القُرآنيُّ إلى الّذينَ تضجّرُوا وتزلزلُوا واضطّربوا ، يومَ غزوةِ الأحزابِ ، فيقولُ لَهُم : هلاّ اقتديتم بالرّسولِ مُحمّدٍ ﷺ ، وتأسيتُم بشمائلِهِ وثباتِهِ وصبرِهِ ، ثمَّ يصِفُ اللهُ تعالى موقِفَ المؤمنينَ الصّادقينَ ، في غزوةِ الأحزابِ ، لمّا رأوا جنودَ قُريشٍ ومَنْ تحزّبَ معَهُم ، وقد أحاطُوا بهِم كما يُحيطُ السّوارُ بالمِعْصَمِ ، فقالوا عندئذٍ : هذا ما وعدَنا بهِ اللهُ تعالى ، ورسولُهُ عليهِ السّلامُ من المِحنَةِ والابتلاءِ ، والنّصرِ على الأعداءِ ، وما زادهُم ما رأوهُ مِنْ كَثرةِ جُندِ الأحزابِ ، ومِنْ شِدّةِ الضّيقِ والحِصارِ ، إلاّ إيماناً قويّاً عميقاً باللهِ تعالى ، وانقياداً واستسلاماً لأوامرِهِ . فالإسلامُ في ضَوءِ هدايتِهِ : دعوةٌ للحقِّ ، وسياسةٌ في شؤونِ الحُكمِ . لـكـنْ مـعَ كـونِ الإسـلامِ دعـوةً إلـى الحقِّ ، فإنّـهُ

لا يُكرِهُ أحداً على اعتناقِهِ . فهو سياسةٌ أيضاً وتوجيهٌ في شؤونِ الحُكمِ للمسلمينَ . إنَّ الإسلامَ (سياسةٌ وتدبيرٌ لشئونِ المُجتمعِ الإسلاميِّ . وهو تحديدٌ للأُصولِ العامّةِ ، التي يجبُ أنْ يتكوَّنَ [فيها] منهاجُ حُكمِ الأُمّةِ الإسلاميّةِ ، في مجالاتِ العلاقاتِ والروابطِ التي تشدُّ المؤمنينَ بعضَهُم إلى بعضٍ ، التي تقيهِم سُوءَ أنفسِهِم ، واعتداءَ غيرِهِم عليهِم . . . وإذا كانت الظاهرةُ التي يتميّزُ بها جانبُ الدّعوةِ إلى الحقِّ ، في القرآنِ أُسلوباً وتوجيهاً ، هي عدمُ اللُّجوءِ إلى الإكراهِ على الإيمانِ ، . . . فإنَّ الظّاهرةَ الأُخرى التي تتميّزُ بها «سياسةُ الحُكمِ» للأُمّةِ الإسلاميّةِ ، في أُسلوبِ القُرآنِ وتوجيهِهِ ، هي الدّعوةُ إلى «رَقابةِ» المُجتمعِ الإسلاميِّ وحمايتِهِ ، ممّا يُضعِفُ أمرَهُ ويفُكُّ الروابطَ فيهِ بينَ المؤمنينَ . . . أو مِنْ اعتداءٍ يُوجَّهُ إليهِ من خارجِهِ ، . . . ولو استلزمَ الوضعُ استخدامَ القُوّةِ والالتجاءَ إلى الحَربِ ، للمُحافظةِ على المُجتمعِ ووقايتِهِ) [1].

مِنْ صُلبِ سياسةِ الأُمّةِ الإسلاميّةِ ، الاهتمامُ بمبدأ التّدخُّلِ للإصلاحِ من جانبِ الحاكمِ ، ومن جانب المؤمنينَ معهُ على السّواءِ . إذا وقعَ قِتالٌ بينَ فريقينِ في الأُمّةِ ، بسببِ الخِلافِ في الرأيِ على أصلِ الحُكمِ ، أو بسببِ مَنعِ فريقٍ حقَّ الفريقِ الآخرَ . والتّدخُّلُ يكونُ :

أولاً : إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ بين الفريقين : لأنّهُ يجبُ أنْ يُحافَظَ على رِباطِ الأُخوّةِ الإسلاميّةِ بينَ الجميعِ . ويكونُ ثانياً : بقتالِ الباغي والمُعتدي مِنَ الفريقينِ : إلى أنْ يَكُفَّ عنْ بَغيِهِ وعُدوانِهِ ، ثمَّ بإحقاقِ الحقِّ بعدَ ذلكَ في ذاتِهِ ، واتّباعِ العدلِ المُطلَقِ في إحقاقِهِ . وفي مُقدِّمةِ مَنْ لَهُمُ الحقُّ على الآخرينَ : أصحابُ الحاجةِ على المُوسِرينَ ، وأصحابُ الأُجورِ مِنَ العُمّالِ على المالكِينَ وأصحابِ العملِ . يقولُ اللهُ تعالى :

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص٢٩٣ .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ٩-١٠).

إذا مجموعتانِ مِنَ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ـ أيّاً كانَ شأنهما ـ نشبَ بينهُما خِلافٌ وصِراعٌ أو قتالٌ ، يجبُ عندئذٍ أن يتدخّلَ المؤمنونَ بالصُّلحِ بينَ الفريقينِ المُتخاصِمَيْنِ أو المُتقاتِلَيْنِ لتحقيقِ العدلِ ، وللقضاءِ على الفتنةِ في مهدِها ، قبلَ أنَ يستفحِلَ النّزاعُ ، في صُفوفِ الأُمّةِ الواحدة . (وتدخُّلُ المؤمنينَ بالإصلاحِ بينَ ذاتِ البينِ في الأُمّةِ ، بالعدلِ وإحقاقِ الحقِّ فيما بينَ الأفرادِ جميعاً ، كمبدأٍ أساسيٍّ بينَ المبادئ الرئيسيَّةِ [الرئيسة] في سياسةِ الأُمّةِ الإسلاميّةِ : هو السبيلُ للبَقاءِ على تضامُنِ الأُمّةِ وتماسُكِها . . . وهو السبيلُ كذلكَ للحيلولةِ دونَ ما يُسمّى انقلاباً ، أو ثورةً في الحُكمِ ، وهو السبيلُ لحلِّ مُشكلَةِ : ما [يُطلَقُ عليهِ] في الوقت الحاضرِ بالفوارقِ بينَ الطّبقاتِ ، ولتحقيقِ ما [يُدعى] أيضاً بالعدالةِ الاجتماعيّةِ ، ويُضافُ إلى هذهِ المبادئ أيضاً : الثّباتُ والتّحمُّلُ بسببِ الدّعوةِ إلى دينِ الله تعالى في غيرِ إكراهٍ . . . والولاءُ لله سبحانَهُ وتعالى وحدَهُ ، ولرسولهِ ﷺ ، [ثُمَّ] لأولي الأمر . والبعدُ كلُّ البُعدِ عنِ التّبعيّةِ لأعداءِ الأُمّةِ : في داخلِها أو في خارجِها ، وردُّ النّزاعِ إلى كتابِ اللهِ سبحانَهُ ، وما صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ : قولاً أو عملاً ، [أو تقريراً أو صفةً خَلْقيّةً أو خُلُقيّةً] . . . وعدمُ التّدخُّلِ في شُئونِ غيرِ المؤمنينَ باللهِ ، ووراءَ الجماعةِ والأُمّةِ . . [ويكونُ] التّدخُّلُ للإصلاحِ وتحقيقِ العدلِ بينَ مجموعاتِ الأُمّةِ المُختلفةِ ، إن تصارعتْ أو تقاتلتْ فيما بينَها ... يُضافُ إلى ما تقدّمَ مبدأٌ آخرُ ، لَهُ أهميّتُهُ في الحِفاظِ على كيانِ الأُمّةِ ، ومُستقبلِها في عدّتِها وقوّتِها . وهو مبدأ

الصبرِ عندَ الأزماتِ ، كأمورٍ يُترَقَّبُ وقوعُها ، ويُترقَّبُ أنْ تُواجهَها الأُمَّةُ في وقتٍ من الأوقاتِ ، فجأةً وفي غيرِ سابقِ علمٍ بوقوعِها) [1].

الأزماتُ التي تواجِهُ المؤمنينَ ، هيَ في الدّرجةِ الأولى أزماتُ إيمان ، أي بسببِ الإيمانِ ، وفي سبيلِهِ ، والذي يُقاوِمُ ما يواجهُهُ من أزماتٍ ، إنّما يُقاوِمُ من أجلِ ذاتِهِ ؛ لأنّهُ سيحتفظُ بالإيمانِ كعاملٍ في تبليغِهِ مُستوى الإنسانيّةِ الفاضلِ . وقد يتعرّضُ المؤمنونَ لأزماتِ الدُّنيا وما فيها منْ مُتَعِ المالِ والأولادِ ، والقوّةِ والثّراءِ . أمّا السبيلُ إلى الوقايةِ والنّجاةِ ، هو سبيلُ الصّبرِ والتّحمُّلِ ، ومُمارسةُ الصّبرِ في مثلِ هذهِ المواقفِ ، من الأُمورِ العِظامِ التي يتنافسُ فيها ذووا الهِمَمِ العاليةِ ، وأصحابُ الإرادةِ القويّةِ مِنَ النّاسِ . يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦). الابتلاءُ سُنّةُ العقائدِ ودعواتِ الخيرِ والإصلاحِ ، وهو ديدنُ الحياةِ الدُّنيا ، فلا بُدَّ من سياسةِ الاختباراتِ والأذى في الأنفُسِ والأموالِ ، ولا بُدَّ في مُقابلِ ذلكَ من صبرٍ ومُقاومةٍ وثباتٍ . إنّهُ طريقُ التّربيةِ الإيمانيّةِ ، الّذي بهِ تخرُجُ مكنوناتُ الأُمّةِ الموحّدَةِ من الخيرِ والقوّةِ واحتمالِ الشدائدِ والصّعابِ ، فلا يُفرِّطوا في دعوتِهِمُ الإيمانيّةِ ، مهما تَكُنِ الأحوالُ ، (ذلكَ لكي يعرفَ أصحابُ الدّعوةِ حقيقَتَهُم هُمْ أنفسُهُم ، وهُم يُزاولونَ الحياةَ والجهادَ مُزاولةً عمليّةً واقعيّةً ، ويعرفوا حقيقةَ النَّفسِ البشريّةِ وخباياها ، وحقيقةَ الجماعاتِ والمُجتمعاتِ . وهُم يرونَ كيفَ تصطرِعُ مبادئُ دعوتِهِم ، معَ الشّهواتِ في أنفسِهِم وفي أنفُسِ النّاسِ ، . . . . وهكذا عَلِمتِ الجماعةُ المُسلمةُ في المدينةِ ، ما ينتظرُها من تضحياتٍ وآلامٍ ، وما ينتظرُها من أذًى وبلاءٍ في الأنفُسِ والأموالِ [إنّها سُنّةُ الدّعواتِ] ، . . . ولكنّها سارت في الطّريقِ ، لم تتخاذلْ ،

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ٨٧-٨٩ .

ولم تتراجعْ ، ولم تَنكُصْ على أعقابِها ؛ لأنّها تستيقِنُ أنّها ماضيةٌ في الطّريقِ التي وصفَها الله لَها مِنْ قبلُ ، وتستيقِنُ أنّ الصبرَ والتّقوى هُما زادُ الطريقِ ، ويصغُرُ عندها الابتلاءُ والأذى) [1].

تختلفُ وسائلُ الابتلاءِ والفتنةِ ، التي يتعرّضُ لها أصحابُ الإيمانِ ، بسببِ إيمانِهم وصبرِهِم وثباتِهم على عقيدتِهم ، باختلافِ الزمانِ والمكانِ والأشياءِ ، فقد تكونُ بالتّشكيكِ والبلبلةِ في أصول الإيمانِ ، أو تكونُ في أهدافِ وأغراضِ القائمينَ على دعوةِ الإيمانِ ، أو باستخدامِ وسائلِ الدّعايةِ والإعلامِ الحديثةِ المُستأجَرَةِ ، في تشويهِ المقاصدِ النّبيلةِ وتمزيقِ أوصالِها ، وطبيعةِ طريقِها . لذا يبقى النّصُّ القُرآنيُّ مُبشّراً لأصحابِ الإيمانِ العميقِ ، الذين لا يزيدُهُمُ الابتلاءُ إلاّ ثباتاً ويقيناً ، فيمضونَ في سبيلِهم إلى اللهِ تعالى ، بصبرٍ وتُقًى فنِعمَ أجرُ العاملينَ .

* * *

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط٧ ، ٤/١٨٠-١٨٢ .

المبحثُ الرّابعُ

مجموعةٌ من رسائلِهِ في التربيّةِ والإصلاحِ الاجتماعيِّ

كان «البهيُّ» عَلماً من أعلام التربيّةِ في مصرَ ، ومُصلحاً اجتماعيّاً يُشارُ إليهِ بالبَنان ، يعيشُ هُمومَ أُمّتِهِ ، وهيَ ترزحُ تحت سيطرةِ أنواعِ الاستعمارِ لاسيما الثّقافيِّ والرُّوحيِّ ، إذْ كانت عنايةُ الاحتلال الإنجليزيِّ ومُبشِّريهِ[1] شديدةً في إفسادِ الشّبابِ والتّعليم معاً ، من خلال التسلُّطِ على وزارة المعارفِ المِصريّةِ ، بوصفِها المُشرفَةِ على تكوينِ الأجيال . لذا تحوّلتِ النُّظُمُ والبرامجُ والكُتُبُ وطرائقُ التدريسِ كُلُّها ، لكي تعملَ على ترسيخِ الاستعمار الفكريِّ والرُّوحيِّ في نفوسِ الناشئةِ . مُحتواها إيحاءاتٌ بنبذِ العُنصرِ الدّينيِّ ، وإقصاءِ الإسلامِ ليسَ عن الحُكم فحسبُ بل عن الحياةِ جميعاً .

---

(١) من هؤلاء المُبشرين : «صموئيل زويمر ١٨٦٧-١٩٥٢م» مستشرق أميركيّ [من أصلٍ يهوديٍّ] ، عندما سمع النداءَ الوطنيَّ المصريَّ يقول : «مصر للمصريين» هاله ذلكَ وأخذ يرجو البريطانيين ، بأن يفتحوا مصرَ للتبشير بالقوّة ، وكان محرراً لمجلة «عالم الإسلام» وطلب فيها استخدام الصدقات في سبيل التبشير المسيحي ، [من كتبه المضللة] «يسوع في إحياء الغزالي» . انظر ، كرم البستاني : المنجد في الأعلام ، ص٢٨١ . وانظر ، مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربيّة ، ص١٧٤ ، ١٩٥ . وكان «افلين بارينغ كرومر ١٨٤١-١٩١٧م» المعتمد البريطاني في مصر ، ما بين ١٨٨٣-١٩٠٧م ، وعندما التفت المبشرون إلى استخدام التعليم في التبشير ، قام كرومر بمساعدتهم في ذلك ، انظر ، كرم البستاني : المنجد في الأعلام ، ص٤٦٢ ، وانظر ، مصطفى خالدي وعمر فرّوخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٢٣٨ .

اتخذَ «البهيُّ» أُسلوباً تربوياً في تقديمِ الإسلامِ ، فَعرضَهُ عَرضاً اجتماعياً إيجابياً ، يُجابِهُ بِهِ الملاحِدَةَ والماركسيِّينَ ، والرأسماليِّينَ والمُستعمرينَ ، وغيرَهُم مِنَ المبتورينَ عن صفاءِ الفِطرةِ الإنسانيّةِ ، الذين كانوا بلاءً على مصرَ والبلادِ العربيّةِ والإسلاميّةِ في عهده .

يتجلّى ذلكَ الأُسلوبُ من خلال مجموعةٍ راقيةٍ هادفةٍ ، من رسائلهِ ومؤلّفاتِهِ الاجتماعيّةِ والتّربويّةِ[1]،يردُّ في طيَّاتِها على أصحاب التّبعيّةِ الغربيّةِ أو الشرقيّةِ، في تطوير التّربيةِ والتّعليم ، فيقولُ : (يظُنُّ كثيرٌ من الموجِّهينَ في التّربيةِ والتّعليمِ ، في مُجتمَعاتِنا الإسلاميّةِ المُعاصرةِ . . . [أنَّ التطوير] هو مُحاكاةُ بعضِ نُظُمِ التّعليم ، في الشرق أو في الغربِ ، أو هو في الأخذِ بنصيبٍ من كلٍّ منهُما ، وينسى هؤلاء الموجِّهونَ ، أنَّ نُظُمَ التّعليمِ في الشرقِ والغربِ على السّواء ، قامت على استبعادِ الدِّينِ منهُ ، أو على ما يُقالُ مِنَ : «الفصلِ بينَ الدِّينِ والدّولةِ» ، كما يَنسى هؤلاءِ أيضاً خصائصَ الإسلامِ ، في ملاءمته [موائمتهِ] للطبيعةِ البشريّةِ ، وتوجيهها للسّيادةِ ... ثمَّ على الكونِ كُلِّهِ ، وتسخيرِهِ في خدمةِ الإنسانيّةِ وقيامِ المُجتمعِ الإنسانيِّ . . . . [كما يقيسونَ الإسلامَ أيضاً] على أيِّ دينٍ سابقٍ عليهِ ، ممّا يُستَبْعدُ في تطويرِ التّعليمِ في الشرقِ أو الغربِ ، واستبعادُهُم للإسلامِ حينئذٍ عن التّعليمِ ، ليس لسببٍ موضوعيٍّ . إنّما لِوَهْمٍ : هو أنّـهُ مُساوقٌ للأديانِ الأُخرى التي استُبعِدَت . . . . [وينسى أو يتناسى هؤلاءِ الموجِّهونَ ، أنَّ الإسلامَ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ . فهو دينُ حياةٍ مُستمرّةٍ ، ليسَ لفترةٍ زمنيّةٍ مؤقّتةٍ] لذا تجبُ إعادةُ النَّظرِ في وضعِهِ ، وأنْ يأخُذَ طريقَهُ إلى

---

(١) من رسائل «البهي» في التربيّة والإصلاح الاجتماعيّ : ١ : التربية في المجتمعات الإسلاميّة المُعاصرة . ٢ : الإسلام والإدارة «الحكومة» . ٣ : الدين والدّولة «من توجيه القرآن الكريم» . ٤ : الشباب بين التطرُّف والإيمان . ٥: الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة . ٦: منهج القرآن في تطوير المجتمع . انظر ، محمد البهي : مؤلفات البهي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

إعدادِ الأفرادِ لأداءِ الواجبِ ، في رقابةٍ ذاتيّةٍ وخشيَةٍ من اللهِ تعالى ، ومسئوليّةٍ أمامَهُ وحدَهُ) [1]. يُسيءُ القائمونَ على التّربيةِ والتّوجيهِ الاجتماعيِّ في ديارِ الإسلامِ ، فَهْمَ صلتِهم باللهِ ، إنْ هُمُ اعتقدُوا : أنَّ دينَ اللهِ : وهو الإسلامُ ، شيءٌ مُنفصِلٌ عن حياةِ الإنسانِ ، وعمّا يدورُ فيها مِن اتجاهاتِ القُوّةِ أو الضّعفِ ، وما يطرأُ عليها مِنْ نَصْرٍ أَوْ هَزيمةٍ ، أو إنْ هُمْ ظنّوا أنّهُ كافيهم ـ ليكونوا أعزاءَ وأقوياءَ ـ أن ينتسِبوا إلى الإسلامِ انتساباً ، دونَ فَهْمٍ ثاقبٍ لمنهَجِ الإيمانِ ، ويقينٍ صادقٍ يمـلأُ الجَنانِ ، وعـمـلٍ صالحٍ يوافقُ السُّنَّةَ والقُرآنَ .

دينُ اللهِ إذاً (هو سَيْرٌ وِفْقَ مبادئِهِ قبلَ كُلِّ شيءٍ . ومبادئُهُ هيَ قوانينُ المُجتمعِ البشريِّ ، وقواعدُ السُّلوكِ الأخلاقيِّ للإنسانِ ، وقوانينُهُ ترتبطُ بنتائجِها التي لا تتخلّفُ عنها إطلاقاً ، فإنْ [رأيتَ] أنّ هناكَ انعزالاً في حياةِ المجتمعِ ، وحياةِ الفردِ بينَ المبدأ أو القاعدةِ منْ جانبٍ ، والنتيجةِ المُرتقَبَةِ لأيٍّ منهُما من جانبٍ آخرَ . . . [تُدرِكُ] على الفورِ أنَّ المبدأ لم يأخُذْ طريقَهُ الصّحيحَ في التطبيقِ ، أو أنّ النتيجةَ التي وقعتْ في مُجتمعِ المؤمنينَ وفي حياتِهِم ، تمّتْ تحتَ اتّباعِ مبدأ آخرَ ، قد نهى الإسلامُ عنهُ) [2].

فالتّربيَةُ الأساسيّةُ في الإسلامِ : هيَ التي تستهدِفُ طبيعةَ الإنسانِ وأهليّتَهُ للأداءِ ، وإعدادَهُ إعداداً سلوكيّاً اجتماعيّاً ، بتحصينِ مفاهيمِهِ ووسائلِ إدراكِهِ ، ثمّ تحفيزِهِ إيجابيّاً ؛ لِيُكَوِّنَ المُعادلَةَ الصّعبةَ في وجهِ التياراتِ الفكريّةِ ، المُلوّثةِ بالإلحادِ والزّيغِ ، والوثنيّةِ الماديّةِ ، التي تُهدّدُ مُستقبلَ المُجتمعاتِ البشريّةِ ، والقيَمِ الرُّوحيّةِ والأخلاقيّةِ لدى أفرادِها ، لا سيما عندما يتعرّضونَ للسُّخريةِ والاستهزاءِ ، من قِبَلِ المارقينَ الظّلاميينَ ، الغارقينَ في ميزانِ الجاهليّةِ . فيردُّ اللهُ

---

(1) محمد البهي : التربية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، مكتبة وهبة ، ط1 ، 1402هـ/ 1982م ، ص3 ، 4 .

(2) محمد البهي : الدين والدّولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص281 .

تعالى عليهم مُبكِّتاً دعواهُمُ الباطلةَ ؛ فيما انغمسُوا فيهِ منْ أوحال الكُفرِ ، واختلالِ الموازين عندَهُمْ ، حتى أنَّهُم أنكرُوا حسابَ الآخرةِ . يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة:٢١٢).

تَلْمَسُ في ثنايا التَّوجيهاتِ والتَّشريعاتِ القُرآنيَّةِ ـ التي يتألَّفُ من مجموعِها ذلكَ المنهجُ الربَّانيُّ الكاملُ للحياةِ البشريَّةِ ـ مناهجَ تربويَّةَ تقومُ على الخِبرَةِ المُطلَقةِ بالنَّفسِ الإنسانيَّةِ ، ومساربِها الظَّاهرةِ والخفيَّةِ ، يأخُذُ هذهِ النَّفسَ منْ جميعِ جوانبِها ، فيندفعُ المؤمنونَ حِيالَ ذلكَ بنفوسٍ راضيةٍ ، وهِمَمٍ عاليةٍ ، تُشارِكُ في الدَّعوةِ إلى إصلاحِ مُجتمَعِهم وقنواتِ تربيتِهم ، واهتماماتِ مُستقبلِ ناشئتِهم ، وبذلكَ يُحقِّقونَ إنسانيَّتَهُم ، وسِرِّ وجودِهِم في الأرضِ .

تلكَ هيَ بعضُ مَعالِم الطَّريقِ ، التي تتبلْورُ عنها رسالةُ المُجتمَعِ الإسلاميِّ ، بأنْ (يُكافِحَ في سبيلِ القيَمِ ، يُكافحَ في سبيلِ العدلِ ، ودفعِ الظُّلمِ والاعتداءِ ، يُكافحَ في سبيلِ التَّرابطِ والتآخي ، . . . في سبيلِ رابطةِ الإسلامِ [الكي تَبقى] فوقَ رابطةِ القبيلَةِ [والعشيرَةِ] ، . . . ولتستمرَّ أُخوَّةُ الإيمانِ ، قبلَ كلِّ شيءٍ ، وفوقَ لُحمَةِ الدَّمِ ، [لأنَّها مبنيَّةٌ على العقيدةِ الإيمانيَّةِ باللهِ وحدهُ] ثمَّ أُخوَّةُ الأهدافِ والغاياتِ المُشتركَةِ . فإسلامُنا لا يعرفُ الإرهابَ في دفعِ الأفرادِ ، فهوَ قائمٌ على الخشيةِ من اللهِ تعالى ، [وبالجُملة أنَّ] المُجتمَعَ الإسلاميَّ هو مجتمعُ الأخلاقِ الفاضلةِ الكريمةِ) [(١)].

إنَّ التربيةَ الأساسيَّةَ هيَ رسالةُ الإسلامِ ، التي تُكوِّنُ لدى الفردِ المُتلقي ما يُسمَّى بالحسِّ الاجتماعيِّ ، مَشفوعاً ببناءِ الإرادةِ في إيقاظِ الوعيِ بالذَّاتِ الإنسانيَّةِ .

---

(١) محمد البهي : الإسلام نظام للحياة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص١٧-١٩ .

لأنَّهُ مِنَ الأضرارِ الخطيرةِ على البشريَّةِ ، فُقدانُ إرادةِ الأفرادِ ، ممَّا يترتَّبُ عليهِ انعدامُ المُشاركةِ الاجتماعيَّةِ فيما بينَهُم .

الإنسانُ المُسلمُ إذاً صاحبُ رِسالةٍ في الإسلامِ ، لُحمَتُها الرَّقابةُ الذاتيَّةُ ، على الأداءِ والعملِ مِنْ حيثُ الجُودةِ والإتقانِ ، والكمِّ والكيفِ ، وسَداها تقديسُ العدلِ والسِّلْمِ الحقيقيِّ ، القائمِ على الإباءِ ، ويرفُضُ الذُّلَّ والضَّيمَ ، شعارُهُ في ذلكَ ، قولُ اللهِ تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة: ٢).

أيقظَ القُرآنُ روحَ الجماعةِ بينَ الأفرادِ ، عن طريقِ العبادةِ للهِ تعالى ، والعدلِ في التعامُلِ ، ونبذِ العُدوانِ على الآمنِ أو ترويعِهِ .

إنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى (يأمُرُ عبادَهُ المؤمنينَ بالمُعاونَةِ على فعلِ الخيرِ ، وَهُوَ : البِرُّ ، وتركُ المُنكراتِ . يعني : التَّقوى [التي تمنعُ صاحبَها من الوقوعِ في المُنكرات . والمقصودُ بالمنكرِ : ما يُنكرُهُ الشّرعُ ويُعاقِبُ على فعلِهِ] . وينهاهُم عنِ التّناصُرِ على الباطِلِ ، [أو] التّعاونِ على المآثِمِ والمحارِمِ ، [ويعني] الإثم [هُنا] : هُوَ تَركُ ما أمرَ اللهُ بفعلِهِ . والعُدوانُ [هـو] : مُجاوزةُ ما حدَّ اللهُ في [دينِهِ] ومجاوزَةُ ما فرضَ اللهُ تعالى [علينا منْ فرائضَ ، في أنفُسِنا أو غيرِنا . جاءَ الأمرُ والنّهيُ في الآيةِ الكريمة لبيانِ قيمةِ العدلِ الذي] قامتْ بهِ السمواتُ والأرضُ ، [لذا] فإنّهُ واجبٌ على كُلِّ أحدٍ ، في كُلِّ أحدٍ ، في كُلِّ حالٍ) [(١)].

تناولَ القرآنُ الكريمُ ـ لا سيما في الآياتِ المدنيَّةِ ـ منهجَ تَطويرِ المُجتمعِ الإسلاميِّ الجديدِ ، الذي يتجدَّدُ في سلوكِهِ وتوجيهِهِ ، وليسَ بأشخاصِهِ فحسبُ .

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ «المتوفى سنة ٧٧٤هـ» : تفسير القرآن العظيم ، ص٧ .

فالفردُ والأُسرةُ هما محورُ التطويرِ في منهج القرآنِ ، لذلكَ فإنَّهُ يعتني بتربيتِهِ في النّهي عمّا يضرُّ ويُؤذي من جانبٍ ، وتحديدِ الحقوق والواجباتِ من جانبٍ آخرَ ؛ والعلّةُ في ذلكَ هي : إنّ قيادةَ المجتمعِ الحضاريِّ اليومَ ، لا بُدَّ أنْ تُعنى بما يضمنُ القيمَ الإنسانيّةَ العُليا ، لتتمايزَ عن الماديّةِ والجاهليّةِ ، التي لا تحفلُ بغير ذي المال والتّرفِ والجاهِ ، وترفُضُ أن تتقوّضَ ، ويأتي على أنقاضها مُجتمعٌ آخرُ جديدٌ ، لذا فإنَّ مُحاولةَ التخريبِ ـ التي قامَت بها ما تُسمى «بالماركسيّةِ اللينينيّةِ» ـ للنظام الرأسماليِّ في مطلعِ القرنِ العشرين ، (لا يرجعُ إلى منعِ استغلالِ رأسِ المال ، بقدرِ ما يعودُ إلى الحقدِ ، والميلِ إلى زوال نعمةِ المالِ ، . . . فالتطبيقُ العمليُّ لهذا المذهبِ الاشتراكيِّ . . . ليسَ لَهُ أثرٌ إلاَّ في إفقارِ صاحبِ المالِ ، وزيادةِ حرمانِ الفقيرِ ، وإلاَّ فإنَّ استغلالَ رأسِ مالِ الدَّولةِ في النِّظامِ الاشتراكيِّ ، [أشدُّ بشاعةً] من استغلال رأس مالِ الأفرادِ في النّظامِ الحُرِّ ؛ لأنَّ الدّولةَ في النّظامِ الاشتراكيِّ هيَ ربّةُ عملٍ ، وصاحبةُ رأسمال ، وكذلكَ سُلطةٌ مُنفِّذةٌ للحُكمِ ، في خُصوماتِ العُمّالِ من أجلِ العملِ . بينما الدّولةُ في النّظامِ الرأسماليِّ ، تقفُ بحُكمِ القانونِ بينَ الفريقينِ : ربُّ العملِ والعاملِ ، وصاحبُ رأسِ المال والمُستهلك) [1].

لكنَّ الإسلامَ قد صانَ المالَ ، والعِرضَ ، والنّفسَ ، والاعتقادَ ، في حياة كلٍّ من الفرد والمجتمع معاً . والاعتداءُ على أيّةِ واحدةٍ منها ، هو اعتداءٌ في الواقع على جميع أفرادِ المؤسّسةِ الاجتماعيّةِ ، ومُقوِّماتِ الأُمّةِ كلّها ، فالأُمّةُ لا تكونُ أُمّةً بعددِ أفرادِها ، أو بمكانِ سُكناهُم وإقامتِهم فقط ، وإنّما بمدى متانةِ وتوثيقِ عُرى الروابطِ الاجتماعيّةِ فيما بينهُم ، وهيَ روابطُ تحفظُ عليهم : أعراضَهُم ، وأموالَهُم ، ودماءَهُم ، وعقيدتَهُم وإيمانَهُم . ولعنايةِ الإسلامِ بصيانةِ هذه

(١) محمد البهي : المجتمع الحضاري وتحدياته من توجيه القرآن الكريم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص٦٠ .

الجوانبِ ، أصبحتْ لها حُرمةٌ ينبغي أن لا تُمَسَّ بسوءٍ أبداً ، وهي حُرمةٌ تعودُ في الأصلِ إلى قيمةِ الفردِ المُسلمِ ، حيثُ تكمُنُ أهميَّتُه ومكانتُه في استقلالِهِ الذّاتيِّ ، إذْ يتميّزُ هذا الاستقلالُ بحقِّ عدمِ المِساسِ بالعِرضِ ، وحقِّ الفرد بالاحتفاظِ بمالِه ، وحقِّ صيانتِه لنفسِهِ ، وحقِّ حُريّةِ الاعتقادِ لديهِ .

ولخطورةِ هذهِ الجوانبِ في حياةِ الإنسانِ ، تجدُ أنَّ رسالةَ الإسلام ، اهتمّتْ كثيراً بإعادةِ التّوازُنِ بينَ القيمِ الإنسانيّةِ والماديّاتِ ؛ لئلاّ تطغى هذه الماديّاتُ على الرّوحِ الإنسانيّةِ في الإنسان ، لذا فإنَّ من الأُسسِ التي يرتكِزُ عليها النظامُ التربويُّ والاجتماعيُّ في شريعةِ الإسلامِ ، هو التّكافُلُ الاجتماعيُّ بين الأغنياءِ والفقراءِ ؛ لأنَّ النّاسَ يحتاجونَ إلى بعضِهِم البعضِ ، في كلِّ شئونِ حياتِهِم ، ولا تتمُّ سعادتُهُم إلاّ في تمامٍ واكتمالٍ ، قوّةِ وسعادةِ كلِّ فردٍ فيهم . لا سيما إذا كانت القيادةُ بجميعِ كوادرِها صالحةً ، يتنافسونَ في تقديمِ خدماتِهِم المُتميِّزةِ ، بكلِّ أمانةٍ وتجرُّدٍ وإخلاصٍ واعتدالٍ ، ديدنُهُم الإحسانُ في كلِّ شيءٍ ، قُدوتُهم في ذلكَ حديثُ رسولِ ﷺ الذي : رُوِيَ ، عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ :

« إذا كانَ أُمراؤُكُم خيارَكُمْ ، وأغنياؤُكُمْ سُمَحاءَكُمْ ، وأمرُكُمْ شورَى بينَكُمْ ، فَظَهْرُ الأرضِ خيرٌ لَكُمْ مِنْ بَطنِهَا . وإذا كانَ أُمراؤُكُمْ شِرارَكُمْ ، وأغنياؤُكُمْ بُخلاءَكُمْ ، وأمُرُكُمْ إلى نسائِكُمْ ، فبطنُ الأرضِ خيرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهرِها »[1].

إنَّ ارتباطَ النّاسِ في المُجتمعِ الإسلاميِّ ـ على أساسٍ مِنْ هدايةِ اللهِ تعالى ـ هو الأمرُ الذي يُحقّقُ الانسجامَ بينَ الأفرادِ ، فيعرِفُ كلٌّ منهم واجباتِهِ كما يعلم حقوقَهُ ، ويُقاسُ الإنسانُ في الإسلامِ ، بما ينهضُ بِهِ مِنْ مُستوياتٍ إنسانيّةٍ عُليا ،

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي : مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرح جمله وألفاظه وعلّق عليه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث« ٢٢٦٧ » ، ص٣٢٥ .

فيعيشُ على مستوًى عالٍ من الإيمانِ ، وليسَ بحسَبِ مالهِ أو نسبهِ وشرفهِ وحسبهِ .

يعيشُ الجميعُ مُتماسكينَ تحت مِظَلَّةِ التّكافُلِ الاجتماعيِّ ، وهناكَ وسيلتانِ هامّتانِ تحفظانِ على المُجتمعِ الإسلاميِّ ، تماسُكَهُ وتكافُلَهُ بعدَ قيامهِ ، هُما :

(عبادةُ الزّكاةِ ، ونظرةُ الإسلامِ إلى الاقتصادِ . فالزّكاةُ : عبادةٌ تُحبِّبُ المؤمنَ في العطاءِ الماديِّ للآخرينَ ... عطاءٌ لا يُرى فيهِ إلاّ وجهَ اللهِ تعالى ، ولا يُقصَدُ منهُ إلاّ القُربى إليهِ ، وهيَ المدخَلُ إلى المزيدِ منَ العطاءِ الحُرِّ والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ ، . . . [ويشمَلُ سبيلُ اللهِ] المصلحةَ العامّةَ للمجتمَعِ كَكُلٍّ .

والزّكاةُ من أجلِ ذلكَ ليستْ ضريبةً ، فالمُزكّي لا يستهدِفُ بزكاتِهِ إلاّ قبولَها عندَ اللهِ تعالى ، بينما دافعُ الضّريبةِ يدفعُها في مُقابلِ منفعةٍ ماديّةٍ تعودُ عليهِ ، مِنْ تنفيذِ بعضِ مشروعاتٍ مُعيَّنةٍ ، تُباشرُها الدّولةُ نيابةً عنْ أصحابِ المصلحةِ .

الزّكاةُ ناشئةٌ عنْ إحساسِ المؤمنِ المالكِ للمالِ ، بمُشاركَةِ الآخرينَ ممّنْ هُم أصحابُ حاجةٍ لهُ في مالهِ ، وبوجوبِ تعاطفهِ معهُم . [أمّا] الضّريبةُ :

[فهيَ] ناشئةٌ عن إحساسِ دافعِ الضّريبةِ ، بمُشاركتِهِ في المنفَعةِ للآخرينَ معهُ ، فإحساسُهُ إحساسُ الأنانيِّ ، بينما إحساسُ المُزكّي هو إحساسُ الإنسانيِّ .

ونظرةُ الإسلامِ إلى الاقتصادِ ، هيَ نظرةٌ تُبعِدُهُ عنِ التأليهِ ، وعنْ أنْ يكونَ هدفاً لعبادةِ أحدٍ ، [فتُبقي] على المؤمنِ إنسانيّتَهُ)[(١)].

بذلكَ يستمِرُّ المؤمنُ في تعاطُفِهِ وتكافُلِهِ ، معَ إخوانهِ المؤمنينَ ، فهو يتّخِذُ من الاقتصادِ وسيلةً لعبادةِ اللهِ تعالى ، وليسَ غايةً مِنَ الغاياتِ الدُّنيويّةِ ، ثمَّ لأنّهُ يُحبُّ أن يبقى في مُستوى الإنسانِ ، فلا ينزِلُ إلى حضيضِ الماديّةِ البهيميّةِ ، فالمؤمنُ يُحافظُ على إنسانيّتِهِ ، بدوامِ استعدادِهِ للتّكافُلِ ، ويزدادُ الأمرُ عندهُ قوّةً كلما زادَ في سيادتِهِ على الاقتصادِ .

---

(١) محمد البهي : الإسلام والإدارة «الحكومة» ، ص٣٠ .

حثَّ الإسلامُ أيضاً على صدقةِ التطوّعِ ؛ لكي تبقى روحانيّةُ التّواصُلِ بينَ أعضاءِ المُجتمعِ الإسلاميِّ موصولةً وليست موسميّةً ، إضافةً للزكاةِ المفروضةِ ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٥) .

امتدحَ القرآنُ المالَ الصّالحَ ، وأوجبَ الحِرصَ عليهِ ، وحُسْنَ تدبيرِهِ وتثميرِهِ ، وأشادَ بمنزلَةِ الغنيِّ الشاكرِ ، الذي يوظِّفُ مالَهُ في مَرضاةِ اللهِ تعالى ثمّ مَنفعةِ النّاسِ .

إنَّ مَا وردَ في ذمِّ الدُّنيا والمالِ والثّروةِ ، إنّما يُرادُ بهِ ما يدعو إلى الطُّغيانِ والفتنةِ والإسْرافِ ، وما يُستعانُ بهِ أيضاً على الإثمِ والمعصيةِ والفُجورِ ، وكُفرانِ نعمةِ اللهِ تعالى .

أمّا الذي يبذُلُ مالَهُ ويُنفقُهُ في سبيلِ الخيرِ ، فيكونُ جزاؤُهُ أنْ يُضاعِفَ اللهُ لَهُ ذلكَ القَرْضَ أضعافاً كثيرةً ؛ لأنّهُ قَرْضٌ لأغنى الأغنياءِ ، وهو ربُّ العالمينَ جلَّ جلالُهُ ، فهذا القَرْضُ من بابِ صدقةِ التَطوّعِ (وسُمّيت بذلكَ : لإشعارِها بصدقِ باذلِهَا ؛ لأنَّ كلاًّ مِنَ الزّكاةِ والغنيمةِ والفيءِ[1]، يتولّى الإمامُ [جَمْعَها

---

(١) الزكاةُ لغةً : النّموُ والزيادةُ ، والزّكاةُ شرعاً : حقٌّ يجبُ في المال ، وعرّفها المالكيّةُ بأنّها : إخراجُ جُزءٍ مخصوصٍ من مال مخصوصٍ بلغَ نصاباً ، لمُستحقّه ، إنْ تمّ المُلكُ ، وحولٌ ، غيرِ معدِنٍ وحرثٍ . أمّا الغنيمةُ في اللّغةِ : الفوزُ بالشيءِ بلا مشقّةٍ ، واصطلاحاً : هي ما أُخِذَ «من أموالِ أهلِ الحربِ ، بطريقِ القهرِ والغلَبةِ . أمّا الفيءُ في اللُّغة : الرُّجوعُ ، واصطلاحاً : هو المالُ الذي يؤخذُ من الحربيينَ من غير قتال أي بطريق الصُّلح كالجزيةِ والخراجِ ، وقد كان الفيءُ لرسول الله ﷺ خاصّةً يتصرّفُ فيه كيف شاءَ . انظر ، وهبة الزُّحيليّ : الفقهُ الإسلاميُّ وأدلّتُه ، دار الفكر ، دمشق ، ٦، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ٧٢٩/٢ ، ٧٣٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦. وانظر ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : معجم القاموس المحيط ، رتبه ووثقه خليل مأمون شيحا : ، ص ٥٦٦، ٩٦٤ ، ١٠١٩ .

وصَرْفِهَا كما ورَدتْ في شرعِ الإسلامِ الحنيفِ] . وصدقةُ التطوُّعِ : هيَ المُرادةُ عندَ الإطلاقِ غالباً في الكتابِ والسُّنَّةِ) [(١)].

يُقرِّرُ الإسلامُ بأنَّ المالَ وسيلةٌ إلى الخيرِ ، والفقرَ مرضٌ مِنَ الأمراضِ الاجتماعيَّةِ ، لذا شرَّفَ الإسلامُ العملَ ، واعتبرَهُ واجباً مِنْ واجباتِ الدَّولةِ ، ينبغي أنْ تُيسِّرَ وسائلَهُ للنّاسِ ، وتمنعَ القادرينَ على العملِ أنْ يكونوا عالةً على المُجتمعِ ، يعيشُونَ من صدقاتِ الآخرينَ ، فالمالُ الذي يجمعُهُ المرءُ المُسلِمُ ، مِنَ العملِ والسَّعيِ أمانةٌ في يدِهِ ، فمالكُهُ الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى ، جعلَهُ في أيدي الأغنياء ، ليستعملُوهُ في منفعتِهِم ومنفعةِ النّاس أيضاً ، لأنَّ التّملُّكَ في الإسلامِ لَهُ (وظيفةٌ اجتماعيَّةٌ ، وعلى المُجتمعِ أن يحترمَ حيازَتَهُ ، ... ولمّا كان التَّبذيرُ والتّرفُ ضاراً بمصلحةِ الجماعةِ ، فقد أوجبَ الإسلامُ على الحكومةِ ، أن تُشرِفَ على تصرُّفِ النّاسِ بأموالِهِم . ولا تتدخَّلُ في شؤونِهِم ما دامُوا على سُنَنِ الخيرِ واستقامةِ الطّريقِ ، فإذا انحرفُوا وقفتْ في وجهِهِم ، لتردُّهُم إلى الجادّةِ وتمنعَهُم مِنَ الضَّلالِ) [(٢)].

لا ريبَ أنَّ الحكومةَ في الإسلامِ بمثابةِ الوالدِ في العائلةِ ، تُقوِّمُ خطأَ المِعوجِّ ، وتُسدِّدُ خُطى السائرينَ ، وتأخُذُ على أيدي العابثينَ .

الأموالُ في أيدي النّاسِ ، هي أشدُّ ما تلعبُ بها الأهواءُ ، لا سيما في حالةِ فُتورِ الوازعِ الدِّينيِّ لدى الإنسانِ ، وضعفِ إيمانِهِ أو سَفَهِهِ . لذلكَ شرعَ الإسلامُ الحَجْرَ : أي منعُ السَّفيهِ مِنَ التَّصرُّفِ ، وهو ما أشارَ إليهِ القرآنُ الكريمُ بقوله تعالى :

---

(١) محمد بن محمد الخطيب الشّربينيّ : مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج ، دراسة وتحقيق علي محمد معوّض ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ١٧٣/٤-١٩٤م .

(٢) عز الدين بليق : منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، ص٤٩٤، ٤٩٥ .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٥، ٦).

ما أروعَ هذا التّعبيرَ القُرآنيَّ ، وما أبعدَ دلالتَهُ ! أضافَ أموالَ السُّفهاءِ إلى مجموعِ أفرادِ الأُمّةِ ، لا إلى السُّفهاءِ ؛ ليستشعِرَ النّاسُ بأنّ الثّرواتِ الخاصّةَ التي في أيدي الأفرادِ ، هيَ في الحقيقةِ مُشتركَةُ المنفعةِ بينَ جميعِ أطيافِ المُجتمعِ ، فإذا أساءَ أحدُهُم التّصرُّفَ بما في يدِهِ مِنَ المالِ ، كان مِنْ حقِّ الحُكومةِ أنْ تتدخّلَ - لأنّها هي التي تُمثِّلُ الشّعبَ - فتُشرِفَ على هؤلاءِ السُّفهاءِ واليتامى ، الذين لا يُميّزون بينَ النّافعِ والضّارِّ ، ثمَّ تقومُ على شؤونِهم ومصالِحِهِمُ الماليّةِ بالوصايةِ العامّةِ أو الخاصّةِ . فإذا برئَ السّفيهُ من سَفهِهِ ، وبلغَ اليتيمُ سِنَّ الاحتلامِ أو الرُّشدِ ، وأبصرَ الأوصياءُ صلاحَهُم في دينِهم وأموالِهم ، عندئذٍ تُدْفَعُ لهُم كلُّ ممتلكاتِهِم .

إنّ الإسلامَ هو الحضارةُ الحقيقيّةُ ، العفّةُ النّظيفةُ ؛ لأنّهُ يدعو للترابُطِ والتّكافُلِ الاجتماعيِّ ، والحياةِ الإنسانيّةِ الرّفيعةِ ، والتّربيةِ السّويّةِ ، التي تقومُ على الإيمانِ والعلمِ والتّواضُعِ ، ونَبذِ الكِبْرِ والتّعالي على عبادِ اللهِ من النّاسِ ، ومَقْتِ الظُّلمِ والظّالمينَ ، الذينَ يعتدونَ على غيرِهم بأذيّتِهم في أبدانِهم وأعراضِهِم وأموالِهِم بغيرِ حقٍّ .

ربّى الإسلامُ أتباعَهُ على الخِصالِ الحميدةِ ، والأخلاقِ النّبيلةِ ، فغدَوا رُعاةً للأُممِ بعدَ أن كانوا رُعاةً للإبلِ والغَنَمِ ، حبّبَ إليهم خُلُقَ العفوِ والتّسامُحِ ، ونفّرَهُمْ مِنَ الاعتداءِ بغيرِ أمرٍ شرعيٍّ ، كما وردَ في الحديثِ الشّريفِ ، الذي يَحُثُّ على التواضُعِ ، والابتعادِ عنِ الظُّلمِ بأنواعِهِ المُختلفَةِ : عَنْ أبي هُريرة

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قالَ : « ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مالٍ ، وما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلاَّ عِزاً ، وَما تَواضَعَ أحدٌ للهِ إلاَّ رَفعَهُ اللهُ »[1].

وعَنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُما : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ :« اتَّقوا الظُّلمَ ، فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ . واتَّقُوا الشُّحَّ ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، حَمَلَهُم عَلَى أنْ سَفَكُوا دِماءَهُم واستحلُّوا محارِمَهُم »[2].

عَنْ أبي موسى رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُمْلِي للظّالمِ ، فإذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ »[3] ثمَّ قرأ [قولَهُ تعالى]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

(هود: ١٠٢).

المسلمُ في دَولةِ الإسلامِ : لا يَظْلِمُ أحداً مِنَ المُسلمينَ ولا غيرِهِم ، كأهلِ الذِّمّةِ أوْ سِواهُم . كما لا يُحِبُّ أيضاً أنْ يُظْلَمَ ؛ لأنّهُ يعتقِدُ بأنَّ الظُّلمَ بشتّى أنواعِهِ مُحرَّمٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ ، وهو أيضاً يتجنَّبُ : الغِشَّ والغدْرَ والخيانةَ لأنّها : (صفاتٌ ذميمةٌ قبيحةٌ في المرءِ ، والقُبحُ لا يكونُ خُلُقاً للمُسلمِ ولا وصفاً لَهُ بحالٍ من الأحوالِ . إذْ طهارَةُ نفسِهِ المُكتسَبَةُ من الإيمانِ والعملِ الصّالحِ ، تتنافى معَ هذهِ الخلائقِ الذّميمةِ ، التي هيَ شرٌّ مَحضٌ لا خيرَ فيها .

المُسلمُ قريبٌ منَ الخيرِ بعيدٌ من الشّرِّ ، [فإنْ] خطَرَ لَهُ خاطِرٌ بِحُكمِ بشريّتِهِ وعدَمِ عِصْمَتِهِ ، قاوَمَهُ بدفعِهِ عنْ نفسِهِ ، وكراهيتِهِ لَهُ حتّى لا يصيرَ همّاً أو عزيمةً ، فيقولُ بموجِبِهِ أو يعملُ فَيهلِكَ ، فلهذا لا يُرى المُسلِمُ عاجزاً

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ، اختصره ، عبد العظيم عبد القوي المنذري ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث « ١٧٩٠ » ص٥٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، رقم الحديث « ١٨٢٩ » ، ص٥٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، رقم الحديث « ١٨٣١ » ، ص٥٤٧ .

ولا كسولاً ، كما لا يُرى جباناً ولا بخيلاً ، [ولا يتقاعسُ] عنِ العملِ النّافعِ ، وكيفَ يقعُدُ عن العملِ ، أو يتركُ الحِرصَ على ما ينفعهُ ، وهو يؤمِنُ بنظامِ الأسبابِ ، وقانونِ السُّنَنِ في الكونِ ، [فلنْ يُحْجِمَ عنِ الخيرِ] وقد أيقَنَ بالقَضاءِ ، وآمنَ بالقَدَرِ) [1].

تطلُبُ التربيَةُ في الإسلامِ مِنَ الفردِ أن يُحبَّ الخيرَ لغيرِهِ ، كما يُحبُّهُ لنفسهِ ، فلا يظلمُ نفسَهُ بتدنيسها بآثارِ أنواعِ الذُّنوبِ والجرائمِ والسيئاتِ ؛ لأنَّ الذي يرتكِبُ الآثامَ والفواحشَ هو ظالمٌ لنفسهِ ، إذْ عرَّضَها لما يُبعدُها عن فطرتِها السّويّةِ التي جُبِلت عليها . كما يحثُّ الإسلامُ في تربيتهِ للعامّةِ والخاصّةِ على خُلُقِ التّواضُعِ ؛ لأنَّ التواضُعَ مِنَ الصّفاتِ العاليةِ ، التي بها يتعاونُ الحاكمُ والمحكومُ في بناءِ صرحِ المُجتمعِ الإنسانيِّ . وقد نعى اللهُ تعالى أهلَ الفسادِ والكِبْرِ فيقولُ سبحانَهُ :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (القصص:٨٣،٨٤).

يُبشِّرُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى عبادَهُ الذين لا يُفسدونَ في الأرضِ ، ولا يقومُ في نفوسِهِمْ خاطِرُ الاستعلاءِ على الآخرينَ ، إنّما يتوارى شُعورُهُم بأنفسِهم ليملأَها الشُّعورُ باللهِ تعالى ، وبمنهجِهِ في الحياةِ .

الذينَ يخشونَ اللهَ تعالى ويُراقبونَهُ ، فيتحرّجونَ منْ غضبهِ ويبتغونَ رضاهُ ، أولئكَ لهُمُ الدارُ العاليةُ الساميَةُ في الآخرةِ ، فالجزاءُ من جنسِ العملِ ، (لأنّ جزاءَ اللهِ في الآخرةِ لِمَنْ آمَنَ وعمِلَ صالِحاً . [إذِ الإيمانُ والعملُ الصّالِحُ] كلاهُما يحتاجُ إلى صَبْرٍ وتحمُّلٍ ؛ [لأنـّهُ] ليسَ مِنَ السّهلِ سيادةُ الإنسانِ على

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري : منهاج المسلم ، مكتبة الحِكَم الدِّينيّةِ ، المدينة المنوّرة ، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص ١٢٤-١٣٠ .

شهوتِهِ وهواهُ ، وهذهِ السّيادةُ شرطٌ ضروريٌّ للإيمانِ والعملِ الصّالحِ معاً ، فالإيمانُ حقيقةٌ نفسيّةٌ تترسّبُ في أعماقِ الذّاتِ ، وتصدُرُ عنها الظّواهِرُ التي تستتبِعُها كنتائجَ ضروريّةٍ [كالعمَلِ مثلاً]. والمؤمِنُ هو الذي ينفعِلُ بهذهِ الحقيقةِ النّفسيّةِ في ذاتِهِ ، في سُلوكِهِ ومنهجِهِ في الحياةِ ، وفي تفكيرِهِ ، وفي موقفِهِ منَ الأحداثِ والمشاكلِ التي تواجِهُهُ ، . . . وهُنا يبدو ثباتُ المؤمنِ على ما يؤمِنُ بهِ في حالِ رخاءٍ أو شِدَّةٍ ، أو في ضيقٍ وأزمةٍ ، . . . وغيرُ المؤمنِ ، أوْ مَنْ لمْ تترسبْ في أعماقِ ذاتِهِ ، تلكَ الحقيقةُ النّفسيّةُ للإيمانِ ، تَسهُلُ قيادتُهُ ، ويتردّدُ اتجاهُهُ . . . بينَ النّقيضِ ونقيضِهِ ، ويَخِفُّ ثباتُهُ أوْ وفاؤُهُ ، . . . ويتمسَّكُ بالحِرصِ دونَ التّضحيةِ ، ويروغُ مِنَ الأزمَةِ ، وينحني أمامَ الشّدَةِ . . . وإيمانُ القلبِ هو إيمانُ القيَمِ العُليا ؛ لأنَّ القلبَ هو مركزُ الحياةِ العُضويّةِ في الذّاتِ الإنسانيّة)[(١)].

إنَّ التآلُفَ الذي يقومُ على إيمانِ القُلوبِ بالقيَمِ العُليا ، أشدُّ بقاءً مِنَ الّذي يؤسَّسُ على تبادُلِ المنافعِ الماديّةِ ، فالقُوّةُ التي مصدرُها التآلُفُ بينَ القُلوبِ ، هي قوّةٌ تدفعُ بعُنفٍ كُلَّ ما يُصادفُها مِنْ شدائدَ ، ولو كانتْ أضعافَ طاقاتِها ، وصدقَ اللهُ تعالى إذ يقولُ : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال:٦٣-٦٥).

الإسلامُ إذاً منهجٌ عمليٌّ واقعيٌّ للحياةِ ، يواجِهُ مناهجَ أُخرى تقومُ عليها سُلُطاتٌ ، وتقِفُ وراءَها قوًى ماديّةٌ ، فلا بُدَّ للإسلامِ مِنْ قُوّةٍ أيضاً . تُدافِعُ عَنِ

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة القصص» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، لا . ط ، لا . ت ، ص٤٠ .

المنهجِ الرَّبانيِّ ، لكي تؤمّنَ الذينَ يختارُونَ عقيدةَ التّوحيدِ على حُريَّتِهم في اختيارِها ، ولتمنعَ أعداءَ هذا الدِّينِ مِنَ الاعتداءِ على دارِ الإسلامِ . مِنْ هُنا يأتي الأمرُ بتحريضِ المؤمنينَ على القتالِ في سبيلِ اللهِ ، ليعمُروا الأرضَ بالحقِّ والعدلِ بينَ النّاسِ ، فإنَّ تقديرَ قُوّةِ المؤمنينَ في مواجهةِ عدوّهِم ، في ميزانِ اللهِ تعالى هوَ الحقُّ ، وفي هذا إشارةٌ لتطمئنَّ قُلوبُ المؤمنينَ ، فيثبُتوا عندَ لقاءِ عدوِّهِم .

ومِنَ الملحُوظِ أنّهُ لا توجدُ في الإسلامِ حكومةٌ إلهيَّةٌ ، كما أنّهُ (لا توجدُ هيئةٌ خاصّةٌ ، ذاتُ سُلطةٍ سياسيّةٍ باسمِ الدِّينِ ، فهيَ تُنازِعُ ما يُسمّى بالسُّلطةِ السِّياسيَّةِ الزّمنيَّةِ . . . فلا توجَدُ على الأقلِّ خُصومةٌ بينَ الدِّينِ مِنْ جانبٍ ، والدّولةِ والعلمِ مِنْ جانبٍ آخرَ . وإلى مسئوليّةِ «الاجتهادِ» في الإسلامِ ، يعودُ الخطأُ والصّوابُ في سياسةِ الحُكمِ . كما يعودُ إليهِ في ذلكَ طريقُ السُّلوكِ العمليِّ للأفرادِ في الأُمّةِ .

القُرآنُ كتابُ هدايةٍ للإنسانِ في شئونهِ ، وفي وصولهِ ـ عنْ طريقِ معرفتهِ ـ إلى ربِّهِ ، وهو للناسِ متساوينَ [مُتساوونَ] أمامَهُ ، وليسَ مُقسَّماً بعضُهُ إلى مجموعةٍ دينيّةٍ ، وبعضُهُ الآخرُ إلى مجموعةٍ كونيّةٍ أو سياسيّةٍ أُخرى منهُم) [1] .

إنَّ المُتتبِّعَ لكتابِ اللهِ تعالى ، خاصّةً بما يتعلّقُ بالجانبِ التّربويِّ الاجتماعيِّ ، يجدُ أنّهُ يوصي الأُمّةَ كجماعةٍ مُترابطةٍ ـ على أُسُسٍ إيمانيّةٍ ـ بأمرٍ على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّةِ ، في جميعِ سياساتِها الخارجيّةِ والداخليّةِ على حدٍّ سواءٍ . إذْ طالَما الأُمّةُ الإسلاميّةُ ، تلتزِمُ بهدايةِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى في سُلوكِ أفرادِها ، وتتوجّهُ في مصالحِها مُتفيئةً ظِلالَ الشريعةِ مِنَ الكتابِ والسُّنّةِ ، فأمرُ المُخالفينَ لهدي اللهِ تعالى ، تُلقيهِ وراءَها ظِهْرِيّاً ، لا يضُرُّها ولا يُهدِّدُها ، بما أنّهم سلكُوا مَسْلكاً مُضاداً ، واعتقدوا اعتقاداً باطلاً ، وفي ذلكَ يقولُ اللهُ تعالى :

---

(١) محمد البهي : خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر ، ص٥٢ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:١٠٥).

القُدوةُ الحسَنةُ والمبادئُ الإنسانيّةُ الرّاقيةُ ، التي أتت بها رسالةُ الإسلامِ إذا طُبِّقَت ، فهيَ كفيلٌ بصدِّ الباطلِ خارجَ المجتمعِ الإسلاميِّ ، مَعَ العلمِ أنَّ الصِّراعَ بينَ الحقِّ والباطلِ ، والخيرِ والشَّرِّ ، مُستمرٌّ في الحياةِ الدُّنيا ، وهذا يُحتِّمُ أنْ يكونَ هُناكَ مؤمنونَ صُرَحاءُ في إيمانِهم ، وفاسقونَ أو مُنافقونَ كافرونَ ، مُعارضونَ مُعارَضةً باطلةً شديدةَ البيانِ والوضوحِ . وفي هذا إشارةٌ يُنَبِّهُ إليها الحديثُ الشَّريفُ التّالي : عَنْ ثوبانَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنّما أخافُ على أُمّتي الأئمّةَ المُضلِّينَ ». قالَ : وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ مِنْ أُمّتي على الحقِّ ظاهرينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ يَخذُلُهُم ، حتّى يأتيَ أمرُ اللهِ »[1].

فالحربُ قائمةٌ بينَ أهلِ الإيمانِ وأتباعِ الزَّيغِ والكُفرِ ، إلى أنْ يُحِقَّ اللهُ الحقَّ ويُبطِلَ الباطِلَ . مِنْ هُنا يجدُ المرءُ حقيقةَ حتميّةِ الابتلاءِ في الإيمانِ ، بل هيَ ضرورةٌ اجتماعيّةٌ ؛ ذلكَ لأنَّ المؤمنينَ باللهِ تعالى ، هُمُ المؤمنونَ حقّاً بالقِيَمِ الإنسانيّةِ العُليا في حياةِ الإنسانِ ، ممّا يُسهِمُ في بناءِ المجتمعِ الحضاريِّ ؛ لأنَّ الكثيرَ مِنَ التّوجيهاتِ الإيمانيّةِ ، تهدِفُ الإنسانَ في نفسِهِ وعبادَتِهِ ومُجتمَعِهِ ، لتمكينِ أواصرِ المودّةِ والتّعاونِ بينَ أفرادِ المُجتمعاتِ ، بدلاً من التّمزُّقِ والتّعنُّتِ ، والتّخاصُمِ والتّناحُرِ ، فأعباءُ الإيمانِ باللهِ تعالى تَتْرا ، وأعلاها درجةً بناءُ الوحدَةِ الإيمانيّةِ في العبادةِ ، وذُرى سنامِها الإيمانُ بوحدَةِ الأُلوهيّةِ ، وعدمُ الشّركِ فيها (إنَّ الإيمانَ بوحدَةِ الأُلوهيّةِ ، هو عُنوانُ الإيمانِ بالإنسانيّةِ ، بما لها

---

(١) محمد بن عيسى التّرمذيّ : مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرحَ جُمَلَهُ وألفاظَهُ وعلّقَ عليهِ ، مصطفى ديب البغا : م . س ، رقم الحديث « ٢٢٣٠ » ، ص٣١٦ .

مِنْ كرامةٍ وحُرُماتٍ ، وقُدُراتٍ في الإنشاءِ والإبداعِ . هذا هو هدفُ الوحدةِ في العبادةِ ، إذْ جَعَلَ القرآنُ [المجيدُ] طريقَ الوحدَةِ في الأُلوهيّةِ سبيلَ السّلامِ ، لأنّهُ السبيلُ الذي يصلُ بالجميعِ إلى غايةٍ واحدةٍ ، ويُحقّقُ هدفاً يعودُ بالخيرِ على الإنسانيّةِ كلِّها . فإنّهُ يرفعُ من مُجتمعاتِها الخِلافَ ، والخُصومةَ ، والحربَ والقتالَ)[1].

إنَّ هُناكَ أُناساً تتجاوزُهُمُ الأحداثُ ، لاسيما الذينَ يتخيّلونَ الإيمانَ كلمةً تُقالُ باللّسانِ وتُعلَنُ فَحَسْبُ . لذا فإنّ مَنْ يُعلِنُ إيمانَهُ ، عليهِ ألاّ يتوقعَ أنّ الأرضَ مفروشةٌ لَهُ بالورودِ ؛ لأنّ أعداءَ الإيمانِ سوفَ يُباشرونَ عداوتَهم ضدّهُ بشتى الصُّورِ،وهنا تقعُ الفتنةُ ويكونُ الابتلاءُ لكثيرٍ منَ النّاسِ في الأعمِّ الأغلبِ، قال اللهُ تعالى :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (العنكبوت:٢-٥).

قانونُ الابتلاءِ والاختبارِ لا يخُصُّ جيلاً دونَ جيلٍ ، ولا قوماً دونَ قومٍ ، إنّما هو مبدأٌ عامٌّ كانَ سابقاً ، وسيكونُ مُستمراً حالاً ومُستقبلاً ، والعبرةُ في النتائجِ وفي الثّباتِ على الثّوابتِ الإيمانيّةِ .

المؤمنونَ الرّاسخونَ هُمُ الذينَ يجتازُونَ الابتلاءَ بعدَ الاختبارِ بهِ ، بفوزٍ وفلاحٍ .

أمّا المنافقونَ فهم يظنُّونَ أو يتصوّرونَ (أنّ إعلانَهُمُ الإيمانَ يُغني في قَبولِهم في مُجتمَعِ المؤمنينَ وعندَ اللهِ ، عنِ اختبارِهِمْ في إيمانِهم ، وفي اعتبارِهِم أنّ

---

(١) محمد البهي : المجتمع الحضاري وتحدياته في توجيه القرآن الكريم ، ص٤٧-٤٩.

الإيذاءَ الصّادِرَ مِنَ النّاسِ يصرِفُ عنِ الإيمانِ باللهِ ، كما يصرِفُ وعدُ اللهِ بالعذابِ عن الكُفرِ بِهِ . والأمرانِ مُتساوقان . [لكنَّ الحقيقةَ خلافَ ذلكَ ، إذ إنَّ] اختبارَ المؤمنِ في إيمانِهِ ، وافتتانِهِ بمُتَعِ هذهِ الحياةِ أو بآلامِها ، . . . غايتُهُ أنْ يُعرَفَ المؤمنُ على حقيقتِهِ ، ويظهرَ الكاذبُ كذلكَ على حقيقتِهِ ، وإذا أظهرَ المؤمنونَ صِدقاً ، وتميّزوا عنِ الكاذبينَ في ادّعائِهِمُ الإيمان ، ابتعدَ مرضُ النِّفاقِ عنِ المُجتمَعِ ، وسلِمَ مِنْ أخطرِ عاملٍ لتمزيقِهِ ، وإضعافِهِ ، ولا ينبغي أنْ يتصوّرَ أُولئكُمُ الّذينَ يرتكبونَ الجرائمَ ، ويخدعونَ غيرَهُم بالنِّفاقِ ـ للحُصولِ على مغانِمَ ليست لَهُم ـ أنّهُم يفلتونَ منْ عقابِ اللهِ أو أنّهُم يُعجِزونَهُ عنْ أنْ ينالَ منهُم .

إنَّ مِثلَ هذا التّصوُّرِ يدُلُّ على سُوءِ تقديرِهِم ، وتقييمِهِم لقُدرةِ اللهِ ، . . . فاللهُ أولاً لا تخفى عليهِ خافيةٌ ، فهو السّميعُ العليمُ بكُلِّ ما يجري في هذا الوجودِ ، والنّاسُ يجبُ أنْ يتأكدُوا ذلكَ ، ومِنْ هُنا ليسَ هُناكَ داعٍ للنِّفاقِ أو الخِداعِ)[1].

هذهِ الأُطروحاتُ التّربويّةُ الاجتماعيّةُ الجديدةُ التي يعرِضُها «البهيُّ» ، تلتقي مَعَ رسالةِ الإسلامِ ، حيثُ تحُضُّ على التّوجيهِ الصائبِ في الدُّنيا ، الكامِنِ في الإيمانِ ، ومَقتِ النِّفاقِ بأنواعِهِ المُختلفةِ ، ثمَّ السعادةِ الأبديّةِ في الآخرةِ كنتيجةٍ مِنْ نتائجِ التوحيدِ المُطلقِ والإيمانِ الكاملِ .

• • •

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن ، تفسير سورة «العنكبوت» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨/١م ، ص ٦ ، ٧ .